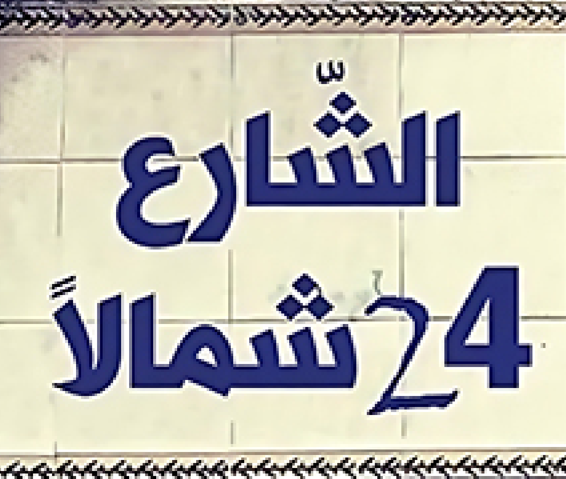


إبتسام تريسي

رواية

منشورات ضفاف
Editions Difaf

ALMANSOUR
Publishing House

الشّارع
24 شمالاً



طبع في لبنان

الشّارع 24 شمالاً

رواية

إبتسام تريسي



منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1438 هـ – 2017 م

ردمك 978-614-02-1571-9

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 9613223227+

مكتبة المنصور للنشر والتوزيع
info@almansour.com.kw

الإهداء

إلى السّيدات الجميلات اللواتي منحنني المعرفة

وتركن خيط السّرد بين يديّ من أوجاعهن

وحياتهن وماضيهن الجميل.

جدتي

أمّي وصديقاتها..

1
خيط دخان...

...
وستعرف بعد رحيل العمر
بأنّك كنت تطارد خيط دخان[1]...
..

أأشبهها إلى هذا الحد؟

ليست المرآة وحدها من يقول ذلك، كانت صباح تقـــول لي إنّي نسخة من جدتي أيام صباها ولا يمكن لأحد يعرفها في ذلـــك الزمن إلاّ أن يذهل لذلك الشّبه الغريب أو يخلط بيننا وكنت أعتبر ذلك أجمل مديح يقال لي.

ليس سهلاً بأيّ مقياس أن أكون مثلها لكن كلّ مـــن يـــراني يعترف أنّه شكّ في حواسه لوهلة قبل أنْ يدرك أنّ الزمن مختلـــف وأنّ وداد دخلت سن الشّيخوخة! أكاد أشعر بذلك أحياناً فـــأرى بقعاً بنية اللون فوق يدي.. وتجاعيد أسفل عينيّ حينـــها يـــتملّكني

(1) قارئة الفنجان/نزار قبّاني.

اليقين أنّها سرقت روحي الشّابة ومنحتني تفاصيل جسدها.

أيعقل ما يحدث لي؟ لا أشعر بجسدي، قوةٌ ما تــرفعني عــن الأرض، أدخل دنيا من وهم أغوص فيها بملء إرادتي.. أشــعر أنّ الأمكنة تغيّرت وأنّي أنهض كفينيق من رماد جدتي فأرتدي ثوبهــا الوحيد الموجود في الصّندوق مع حذاء وزجاجة عطــر فرنســي "ريفدور" ما تزال في كرتونتها لم تنقص الزجاجة ســوى بضــع قطرات!

صعقت حين واجهت المرآة كأنّ جدتي تطلّ بعينيها وشعرها وابتسامتها وثوبها وحذائها حتّى أنّي سمعت دقات قلبها وهي تضع نقطتي عطر خلف أذنيها ونقطة فوق عنقها ونقطتين على ذراعيها وتغلق الزجاجة بغطائها السّماوي، تضعها برفق على القنصــلية، وتخرج من باب السّرايا وهي تتعثر بظلّها. أنا على يقين أنّي سمعت لهاثه خلف ظهري.. كنت أنا من يسير بخطوات بطيئة هاربة مــن عرس سميرة قاصدة مقهى شناتا..

أنا! أيّ يقين يدفع بــي إلى هناك وأيّ وهم يعيدني إلى بيــت صباح؟

لمست المغلف الأصفر بأصابع مرتعشة وأخرجت صــورته.. تأملتها طويلاً.. تلك الصّورة الّتي تخيّلت حين رأيتها أوّل مرّة كم عانت جدتي في إخفائها والحفاظ عليها داخل جــدران السّــرايا وجدران بيت الزوجية..

سمعت صوته، أنا على يقين من ذلك، هو في مكان ما هنــا.. ارتجف قلبــي حين هيّأ لي أنّ الصّوت يخرج من عمق الصّــندوق وأنّ الجان تعبث داخله.. ضحكت من تخيلاتي، هذا الأمــر كــان

حقيقة بالنّسبة لي عندما كنت طفلة لكن الآن! يبدو أقرب للهذيان وهلوسات الوحدة. اقتربت من الشبّاك المفتوح، أزحت السّتارة قليلاً، لمحت شبحاً يتحرّك على بعد أمتار من سور الحديقة.. أغلقت النّافذة ببطء وقلبي يخفق بقوة.. مرّت ساعات وأنا أسمع خطوات تراوح في المكان، هل يراقبونني؟ لكنّهم لا يحتاجون إلى ذلك فهم يقتحمون من دون مقدمات ولا يحتاجون لسبب ولا إذن والتّهم عندهم جاهزة!

من يكون إذن؟

عدت إلى النّافذة وأنا أحاول ضبط ضربات قلبي! فجأة انقطعت الكهرباء.. حاولت الوصول إلى مكان الشّمعة، لم أجد علبة الثّقاب، أين وضعتها يا ترى؟ كلّ مرّة أنبّه نفسي لوضع العلبة بجانب الشّمعة في مكان يسهل الوصول إليه في العتمة.. أخيراً وجدتها، العود السّابع ينطفئ قبل اشتعاله كالعادة.. أضاءت الشّمعة بخجل مساحة يمكنني من خلالها التّحرك بثقة في الصالة. عدت إلى النّافذة، هذه المرّة بدأت الرّيح تحرّك السّتارة بقوة وترفعها بما يتيح للواقف في الخارج رؤية مَن بالداخل إن كان في مجال الضّوء. ربطت السّتارة إلى بعضها وراقبته من خلال فتحة صغيرة، إنّه يقترب من الباب.. أسمع الدّقات.. أم تراه قلبي؟

(همس بذهول: "وداد". قلتُ بصوت خافت: "نعم". قال متسائلاً باستغراب: "كيف؟ هذا مستحيل، أنتِ لم تتغيّري طيلة تلك السّنوات؟ ما زلتِ كما تركتك في الشّارع يوم عرس سميرة! قلت: "كنتَ جباناً وقتها لو أنّك سرت ورائي خطوتين.. فقط

خطوتين". قال: "خفت.. كان هناك مَن يتبعني". قلت بأسى: "خوفك مَن كان يتبعك، الشّارع كان خالياً، لقد راقبته جيداً قبل أن أنزل من الشّرفة". تابع حديثه وكأنّه في عالم آخر:

"كيف يحدث هذا؟ وداد أنا أحلم أليس كذلك؟". قلتُ بنبرة دافئة حنونة: "لا، ليس حلماً، لكنّه أمر خارق للطبيعة، أمر مستحيل الحدوث.).

مدّ يديه الاثنتين، تناول كفيّ بين راحتيه، قرّبهما من قلبه.. شعرت بنبضه يسري في جسدي.. قبّلهما.. أحسست أنّ العمر لم يهرب من جدتي بعد، ها هي تسكن جسدي.. أنا وداد بكلّ تفاصيل الحلم والحقيقة أذهب نحوه، أترك له يديّ وأنتظر همسه، قال: "كنت على يقين أنّي سأجدك في انتظاري؟". قلت وقد صحوت من ذهولي فجأة: "ما زالت تنتظرك على الرغم من أنّ العمر مرّ مخلّفاً وراءه ركاماً من الألم والرماد في حلقها".. أفلت يديّ وكأنّ جمرة لسعته وتراجع إلى الخلف خطوتين وهو يهمس: "أنتِ..." قلت: "وداد، حفيدتها.. تفضل بالدخول".

كلانا على حافة هاوية، أنا أراقب ذلك السّحر الدّفين في نظراته، وهو يحدّق فيّ ولا يصدق أنّي لست هي!

كلانا على حافة الانهيار والانفجار والتّشظي، أنا أراقب عينيه وأشعر أنّه كان لي يوماً، وهو يحاول ضبط أنفاسه ومشاعره بابتسامة مفتعلة وكلمات يحاول انتقاءها جيداً ولا يفلح في مداراة وهجها الذي يلسع وجهي!

كلانا يرفض أن يعترف بأنّ هناك حقيقة مفجعة عليه أن يتقبّلها ويسلّم بوجودها.

أدرك جيداً أنّ مثل هذا لا يحدث في الواقـع وأنّ حدوثـه سيقابل بالاستهزاء والاستغراب والرفض. مع ذلك لا يمكـن أن أتجاهل حدوثه..

رنّ هاتفي فجأة، انتفض جسدي خارجاً من تلـك الحالـة اللزجة، كان الصّوت الغريب على الطرف الآخر يقول: "احضري بسرعة، لقد أفاقت.. تطلب رؤيتك ورؤية شخص يدعى رشدي!"

* * *

لم يقصد الاستماع إلى مكالمتها لكنّ الصوت علـى الطـرف الآخر من الهاتف كان عالياً وواضح النبرات، ابتعدتْ قلـيلاً ربّمـا لخصوصية المكالمة، وبقي في مقعده يعاني عجزاً من متابعة مشـاعره وتحديد ما يريده.

لماذا هو هنا؟ ما الذي جاء به؟ الحنين أم المصير المجهول؟

الكم الهائل من الحنين أثقل كتفيه فانحنى في حركـة لا إراديـة وكأنّه يريد الاتّكاء على عصا تعينه على احتمال الألم.. لم يكن الألم نابعاً هذه المرة من هشاشة العظام التي عانى منها طيلـة السّـنوات العشرين الماضية، ولم يكن بسبب الضّغط المرتفع الذي يشكّل أمـام عينيه غمامة من بخار البحر المتكاثف في هذا القيظ الذي لا حل لـه وسط ارتفاع درجات الحرارة إلى أقصاها. أهي قدماه من يسير بـه إلى الحي القديم؟ أم رغبته في أن يلمح طيفها كما كان قبـل سـتين عاماً مضت؟ اليقين الوحيد ما تراه عيناه، لا وجود للحي بل لبنايات عالية على طرفي زقاق ضيّق فَقَد رائحته المحببة وتفاصـيله الحميمـة وأنفاس ساكنيه وسعة شارعه واحتفظ فقط بلوحة على جدار عتيـق

كتب عليها "الشّارع 4 شمالاً" وانمحى ذلك الرقم الذي خطتّه أنامله وهو صغير بالطّباشير.. كان الرقم 2 يعني له الكثير.. يعني "وداد" هو واحد وهي اثنان في كلِّ لعبة يلعبانها، وفي كلّ تشكيل يقوم به الصبية في الحي، كان يخشى كتابة اسمها كي لا يفضح نفسه لكنّه على يقين أنّها تعرف لماذا وضع ذلك الرقم بالطّباشير على لوحة الشّارع!

في هذا القيظ الأمر مختلف تماماً، التّغييرات الطّارئة على الحي لم تطل ملامحه العمرانية فقط.. بل ناسه أيضاً، لا وجود لأيّ شيء ينبئ أنّه في المكان الذي ولد فيه وعاش طفولته ومطلع شبابه.. حتّى زيارته الأخيرة تركت في ذاكرته بعض الدّفء بوجود الباعة الجائلين، بوجود بعض الأشجار التي صمدت زمناً طويلاً في وجه تحولات الملح بعد تبليط البحر.. مع أنّ شكلها بدا غريباً وشاذاً داخل مساحة لا يمكن تسميتها منتزهاً.. لكنّها ما زالت الشّاهد على تاريخ من مروا بها وحكاياتهم..

اتّجه غرباً طلباً لنسمة يجود بها البحر البخيل في هذا الليل الشّديد العتمة.. يبدو أنّ انقطاع الكهرباء لا يقتصر على المنازل بل شمل مصابيح الإنارة في الشّوارع الرئيسة أيضاً.

قبل أن يجتاز شارع يوسف العظمة حتّى نهايته توقف قليلاً قرب بيت العجيل، نظر إلى الشّرفة التي كانت يوماً عالية وإلى النّوافذ التي انطلق منها صوت "زكية حمدان[1]" وهي تغني في عرس سميرة، كان يومها في العشرين من عمره وكانت وداد في الرابعة عشرة...

---

(1) مطربة من مدينة حلب عرفت بلقب أم كلثوم الشّام، أشهر أغانيها قصيدة "سليمى" شعر نوفل الياس وهو قريب القابلة "أوجا" من مدينة بانياس.

كأنّ ذلك يحدث أمامه في هذه اللحظة فيرى وداد تنسحب إلى الشّرفة وتومئ له وهي ترتعش، فيتوارى متحاشياً أنـــوار المصـــابيح ملتمساً ظلال العتمة الكثيفة تحت الأشجار وقلبه يرتجـــف. مـــع أنّ إشارة وداد كانت واضحة ولا تحتمل تأويلاً إلاّ أنّها لم تلحق بـــه.. انتظر طويلاً ورأسه يضج بأفكار متشابكة حول إمكانية أن تكـــون الإشارة فخاً! أسرع بمغادرة المكان من دون أن يلتفت إلى الخلـــف، وبقي سنوات طويلة يرى نفسه في المنام يعبر الطريـــق إلى الشـــاطئ ويدلف إلى "الكازينو" وصوت وداد يناديه أن يعود لكنّ شيئاً أقوى يدفعه للجلوس في زاوية بعيدة لا تمكّنه من رؤية البحر، وتحجب عنه العابرين.

أخيراً وصل الشّاطئ.. جلس على صخرة قريباً مـــن المـــاء.. كانت الأمواج ترتفع وترتطم بقدميه وتعود من حيث أتت، مع هذا لم يشعر بذلك الإحساس الفريد من النّشوة التي كان يشـــعر بهـــا في شبابه والتي كانت تسبق دائماً قراره بالاندفاع داخل الماء ومصارعة الموج بغض النّظر عن طبيعة الطّقس والمكان.

نهض ومشى على الرصيف، منذ متى أصبح الشّارع خاليـــاً في مثل هذا الوقت! كانت اللاذقية تسهر حتّى الصّباح، كلُّ ما فيهـــا يصدح بأغاني البحر، مقاهيها وشوارعها وبيوتها.. حتّى بائعي البطيخ الذين كانوا ينصبون خيام القصب ويبقون في الشّارع طيلة الليـــل. خيامهم مرتبطة في ذاكرته بطيارة القصب، ولطيّارة القصب حكايـــة يذكرها دائماً ويضحك من شقاوة الطفولة وألعابها، لم يكن طفـــلاً بالمعنى الدقيق للكلمة، لقد تجاوز مرحلة الطفولـــة ودخـــل مرحلـــة الصبا.. في أوائل الأربعينات اتفق ورفاقه في المدرســـة علـــى صـــنع

طيّارات من ورق وكانوا يحتاجون إلى عيدان القصب لربط الطيّارات بها، فشنوا هجوماً ليلياً على أحد باعة البطيخ الذين كانوا يخيّمون في أبعد نقطة من السّاحة تحت ظلّ أشجار الحديقة، وكانت خيامهم من عيدان القصب الصّفراء الزاهية..

وهم يسحبون عيدان القصب شعر صاحب "البسـطة" النـائم قربها بوجودهم، وانتفض مستلاً عصاه صارخاً "يا حرامية".. هـرب رفاقه بسرعة وتقدّم هو ببطء وهمس لبائع البطيخ بأنّ هناك دوريـة فرنسية قادمة اعتقلت أصحاب البسطات وقد جاء لتنبيهه. تابع سيره بهدوء مبتعداً وحين التفت بعد أن قطع مسافة مناسبة لم يجد البـائع، فصفر بقوة، تجمّع رفاقه وسحبوا العيدان بمهارة وفروا لا يلوون على شيء. كانوا قد أحضروا من بيوتهم خيطان القنّب وبعضهم أحضـر خيطان "الملاحف" التي تنجّد بها أمهاتهم وجوه اللحف، وأحضـروا أوراق الجرائد وبعض أوراق الخياطة، وكان الحصول علـى النشـاء يسيراً فهو موجود في كلّ بيت.

طارت طياراتهم في السّماء وكسب يومها الرهان فقد كان فناناً في صناعة الطائرة وفي جعلها تحلّق أعلى من طائرات رفاقـه؛ لأنّـه امتلك اليقين بأنّ كلّ تحليق يصحبه حلم برؤية وداد سيكون الـرابح فيه. أمّا رفاقه فكانوا يعزون ربحه إلى بكرة الخيطان الخشبية التي كان يستخدمها وتدعى "عكرة صليبا" والتي كانت غالية الثمن، أمّا هـم فيمضون وقتاً طويلاً في حل خيطان الملاحف وربطها ببعضـها ممـا يجعلها أقلّ استقامة وأقلّ طواعية للرّيح!

توقفت قربه سيارة أجرة، ركب من دون أن يعرف لماذا، سأله السّائق عن وجهته؟ ردّ بآلية "مقهى شناتا". لم يكن اختياره للمقهى

سوى رغبة دفينة بالعودة إلى اللحظة التي جاء فيها إلى الدّنيا والتي ارتبطت بحدث استثنائي في تاريخ اللاذقية، تلك اللحظة التي كُتب فيها في اللوح المحفوظ التّفاصيل الدّقيقة لحياته ومصيره.

نزل من السّيارة وقصد المقهى، كانت الطاولات مقلوبة ولا يوجد زبائن، وقف وسط الفوضى مذهولاً، سمع صوتاً يرحب به، التفت فوجد مدير المقهى جميل قْميرة يبتسم ويقول له: "للأسف لم يعد هناك مقهى شناتا، كما ترى نجمع أغراضنا لنرحل إلى مكان آخر فقد قرّر المالك هدم المكان". أوجعته كلمة الهدم، شعر بحلقه يصدر طقطقة خفيفة، سعل سعلة جافة، جاءه جميل بقنينة ماء بسرعة واعتذر عن استقباله.

وقف على الشّرفة البحرية الواسعة، نظر صوب الأفق، تخيّل المباني السكنية التي ستقام مكان ذكريات العشاق، مرّ أمامه شريطٌ طويل من ذكريات المكان، وسمع صوت "حنين[1]" وهو يغني مونولوج ينتقد فيه لبس القبعة بدل الطربوش، وراح يردد همساً "لا بدا عيطة ولا بدا شيطة، نفد المقدور يا عيني ولبسنا البرنيطة".

ثانية وجد نفسه في سيارة أجرة سأله السّائق: "إلى أين؟". ردّ بلا مبالاة: "أيّ مكان بعيد على الشّاطئ.. لا يهم".

انطلق السّائق، وبعد زمن انتبه إليه يقول: "هل تنزل هنا أم أعود بك إلى شارع الأمريكان؟". قال ساهماً: "خذني إلى الصليبة". انتفض السّائق واصفرّ وجهه فجأة وقال: "لا يا عمي، لا أذهب إلى هناك، انزل هنا".

---

(1) عمر الزعني، مونولوجست طار صيته في اللاذقية كان خفيف الظل وأغانيه تنتقد الظواهر الاجتماعية والسياسية.

بسبب غربته الطّويلة لم ينتبه للهجة السّائق مباشرة و لم يـــدرك أنّه يطلب المستحيل فالسائقون من الطائفة العلوية لا يجرؤون علـــى دخول الصليبة منذ زمن طويل، ويعتقدون أنّ دخولها يساوي موتهم ذبحاً.

فتح باب السّيارة ونزل من دون كلام، نقد السّـــائق أجرتـــه ومشى صوب البحر..

لمح ضوءاً شحيحاً آتياً من منزل يشبه فيلا صغيرة محاطة بســـور حجري، تلفت حوله.. أين هو بالضبط؟ العتمة تمنع عنـــه تحديـــد المنطقة التي وصل إليها، لكنّها بالتأكيد ليست بعيدة كثيراً فالسّيارة لم تأخذ وقتاً طويلاً والمكان مألوف جداً على الرغم من التّغييرات الـــتي طالته. تذكره بكلّ تفاصيله الحميمة حين كـــان يرافـــق والـــده في الشّاحنة صيفاً، في هذه البقعة بالذات بنى عاصم آغـــا في أربعينـــات القرن الماضي شاليه من غرفتين، يذكر جيداً حين مرّ مع أبيه ليعطـــي سكينة خانم بعض المفروشات التي طلبت منه إحضارها من البيـــت.. يومها وقف في ظلّ شجرة تين ضخمة ينتظر أن ينتهي والده من نقل الأغراض فنادته: "تعال يا رشدي". وأعطته قمعاً من فستق العبيـــد وصحن مهلبية ساخن!

لا وجود لشجرة تين هنا! والفيلا لا تنبئ عن غرفتين صغيرتين، وعلى الرغم من كثافة شجر الفتنة حولها إلاّ أنّ النّاظر إليها يدرك أنّه أمام منزل تتجاوز مساحته المئتي متر مربع..

تقدّم نحو البناء، دار حول السّور، سمع صوت أم كلثوم آت من غرفة خلفية عرّشت على نافذتها شجرة ياسمين أبيض عانقت شـــجرة ياسمين عراتيلي! جمّده اللحن في مكانه! لا يمكن أن تكـــون مجـــرد

مصادفة أبداً.. هو على يقين أنّه لمح وجهها خلف السّتارة، كانت تدير الأسطوانة بيد ترتعش ويتدفق النّغم من غرفة سكينة خانم دافعاً السّتارة خارج النّافذة "وأقول له خايف لتنساني يقول لي: مستحيل أقدر... وبقينا نقول ونعيد بعينينا[1]"

بقيت تلك الأغنية التي ناجته بها وداد خلسة بعد موت سكينة خانم بأشهر رفيقته في غربته سنوات طويلة.. كلّما أعاد سماعها يكتشف شيئاً جديداً.. رفة رمش، خفقة قلب، جملة، رعشة...

ارتعشت يده وهو يمسح العرق عن جبينه بمنديل ورقي، رماه، وأخرج من جيبه الدّاخلي منديل وداد الشّفاف الذي طرّزت عليه اسمه ورقم الشّارع! شمّه بعمق وأغمض عينيه ليجمع تحت جفنيهما المطبقين صورها وصوت أم كلثوم يعيد إليه أسعد لحظة في حياته!

كان يخطو ببطء صوب الضوء الخافت وقلبه يخفق بشدّة.. هل تعب إلى هذه الدرجة؟ ألن يسعفه جسده بالوصول إلى الباب؟ يذكر جيداً أنّه كان هنا في زمن ما.. يرى بعين روحه طيف وداد وهي طفلة تسحبها سعدى من يدها، تجلسها على كرسي خارج الشّاليه بالضبط هنا في موقع قدميه وتعود إلى الدّاخل لتتابع تنفيذ أوامر سكينة خانم بالتّنظيف والتّرتيب. كان يوماً قائظاً وكانت وداد تبكي وتطلب من أمّها عروسة لبنة، كانت جائعة وعطشى وأمّها تهدّدها حيناً وتسترضيها حيناً وتطلب منها الانتظار ريثما تنتهي من عملها وتعود إلى البيت.

بقي يراقبها من دون أن يجرؤ على الاقتراب، نبّهه أبوه "ابقَ حيث أنت ريثما أنتهي من الحديث مع الخانم". تردّد في مواساتها،

---

(1) الحلم/كلمات بيرم التونسي، ألحان زكريا أحمد.

بضعة أمتار تفصلهما.. بضعة أمتار يمكنها أن تصـــنع معجـــزة أدرك ذلك من صمتها للحظات حدّقت فيه ثمّ عادت للبكـــاء.. كـــرّرت ذلك وكأنّها تدعوه لإنقاذها وبقي هو عاجزاً عـــن التحـــرّك مـــن مكانه.. تلك البداية التي حدّدت فيما بعد المسافة بينـــه وبـــين وداد والتي بقيت طيلة حياته حتّى بعد أن جاء في زيارة إلى اللاذقية بدايـــة الستينات بعد أن أنهى الدكتوراه وعرف أنّ زوج وداد هجرهـــا، لم يجرؤ على أن يقطع تلك المسافة التي لا تتجاوز بضعة أمتـــار وربمـــا بضع كلمات يقولها في الهاتف.. ويتغيّر مصيرهما!

أهو جبنه مَنْ صنع هذه النّهاية لكليهما أم أنّ القدر كان سيفرّقهما حتّى لو تجرّأ على البوح لها بحبّه؟ سألته نوال يومها: "ألا تريد أن أقـــول شيئاً لوداد؟ أنا ذاهبة لزيارتها". خذلته الكلمات وتلفّت حوله خشية أن تكون أمّه على مقربة تسمع ما يدور بينهما. كان على يقين لو أنّ القدر لم يمنعه من الوصول إلى وداد قبل أن يزوجها عاصم آغا لقامت أمّه بمنعه على الرغم من محبتها لسعدى إلاّ أنّها كانت تنظر إلى وداد على أنّها ابنة "الخدّامة" التي تزوجها الآغا لأجل الحلال والحرام لا أكثـــر ولا أقـــل! وعلى الرغم من شهادة جميع نساء الحي لوداد بالنّظافة والتّرتيـــب إلاّ أنّ الوسواس الذي يركب نورية أحياناً يمنعها من قبول كأس الماء من يـــدها لاعتقادها أنّ وداد لا تفهم بالطهارة وإن كانت على دين والدها وهـــي النّظرة التي كانت تعاني منها والدتها سعدى مهما حاولـــت أن تلتـــزم بتقاليد نساء الحي فكانت تصوم وتصلي مثلـــهن وتســـأل عـــن أدق التّفاصيل كي لا تعاملها النّساء على أنّها مختلفة عنهن.

تحمّل نتائج خوفه من أمّه بالإضافة إلى شيء داخله كان يمنعـــه من التّفكير بوداد بعد زواجها فلم يكن يستطيع تقبّل فكرة أنّ رجلاً

غيره قد اختلى بها، كلّما حاول أن ينسى وأن يتقدّم خطوة تجاهها تصدمه تلك الصورة وتلاحقه على شكل كابوس ينهض منه مغتسلاً بعرقه وهواجس لا يستطيع التّخلص منها.

من دون مقدمات صار الحنين للعودة يقض مضجعه، ومن دون تفكير قرّر أن ينهي كلّ ارتباطاته بأشكالها المتعددة في بلد الاغتراب والعودة.

كان يدرك أنّه لم يبقَ في اللاذقية ما يعود إليه فقد مات الأحبة جميعاً وليس لديه فيها إلاّ حفنة ذكريات تنضج على نار الحنين وتتوهج وتبدو أكبر من حجمها.. سبب آخر دفعه لاتّخاذ القرار في الوقت الذي كان السوريون يتدفقون في موجة لجوء إلى أوربا وألمانيا تحديداً، كانت بوصلته تشير إلى توقيت البحر المتوسط وإلى مقبرة اللاذقية! قرّر أن يجد فيها قبراً يضمّه قرب أمّه وأبيه وأخويه.

توقفت خطواته قليلاً قرب الباب، نظر إلى البحر.. لا منارة تضيء للسفن العائدة! ترى من يسكن الآن هنا؟

لم يكن قد نبش وداد من ركام ذكرياته لكنّها حضرت فجأة في غفلة من حنينه، أمسكت بيديه وقادته إلى الصّخرة، أغمض عينيه واستنشق نسيم البحر بعمق.. رائحته مختلطة بروائح من الذاكرة تندفع من خلايا جلده وتطغى على ما حولها.. رائحة دخان سجائر عجائز الحي، ياسمينة رقيّة، زهر الرّمان في فسحة الدّار، الزنبق البحري في تنكات رصّتها عطية على سطح منزلها، خبز فرن السرّاج، والحمّص الأخضر المشوي، وحلوى التّفاحية تسيل على طرفي فمها وهي تقف أعلى الدّرج وهو يسترق النّظر إليها من شبّاك غرفة أمّه في الطابق الثّاني.. رشرشة الماء من طنبر السقّا، خضار أم

علي الطازجة، رائحة الزعتر البري النفّاذة وطعم الحميضة المميز...

هو على يقين أنّ تلك الروائح خرجت دفعة واحدة مــن وراء سور البيت، بالتّحديد من غرفة مضاءة بنور قنديل أو شمعة يتســرّب خافتاً من خلف ستارة سميكة يلاعبها النّسيم فتنحسر قليلاً؛ لتكشف جزءاً من الغرفة، جدارٌ أعزل ينعكس عليه ظلّ امرأة بلا ملامــح.. اقترب أكثر.. دافعٌ خفي جعل يده تمتدُّ إلى الباب، تقرع الجــرس.. الانتظار وإن لم يدم سوى لحظات جعل ضربات قلبه توهن جسده.. انفرج الباب قليلاً.. رآها رؤية العين.. لم يكن حلماً، لم يكن منامــاً بل هي بعينيها المتألقتين كفجر يوشك على الرحيل وجبينها المشــع بياضاً وسط هالة شعر شديد السّواد وفم ينفرج فتغوص فيه غمازتان عميقتان تكشفان عن سحر الابتسامة وعبقها الآسر.

هي.. اليقين يكفيه، مع ذلك امتدت يده إلى يدها، أخذها بين راحتيه وهمس بذهول: "وداد". قالت بصوت خافت: "نعم". قــال متسائلاً باستغراب: "كيف؟ هذا مستحيل، أنتِ لم تتغيّري طيلة تلك السّنوات؟ ما زلت كما تركتكِ في الشّارع يوم عرس سميرة! قالت: "كنتَ جباناً وقتها لو أنّك سرت ورائي خطوتين.. فقط خطوتين". قال: "خفت كان هناك مَن يتبعني". قالت بأسى: "خوفك مَن كــان يتبعك، الشّارع كان خالياً لقد راقبته جيداً قبل أن أنزل من الشّرفة". تابع حديثه وكأنّه في عالم آخر:

"كيف يحدث هذا؟ وداد أنا أحلم أليس كذلك؟". ردت بنبرة دافئة حنونة: "لا، ليس حلماً، لكنّه أمر خارق للطبيعة، أمر مستحيل الحدوث".

* * *

نظرتُ إليه، كان غارقاً في ذهوله بعيداً عني، احتجت لدقائق كي أضبط أعصابـــي وأستعيد هدوئي إثر المفاجأة التي صدمتني.. ما معنى أن تطلب حضوره بالاسم؟ هل شعرتْ بوجوده معي؟ هل هذا ما جعلها تخرج من ثقب الغيبوبة الأسود وتســـتعيد وعيهـــا؟ أكاد لا أصدق!

تردّدتُ بإخباره، شككت بعد غرقنا معـــاً في تلـــك الحالـــة الغريبة أن يذهب معي لرؤيتها، كان واضحاً أنّه لا يريد الاعتراف بوجودها على قيد الحياة، وكنت محبطة وحائرة، تتنازعني رغبتـــان كلاهما أصعب على قلبـــي من الأخرى..

اتّخذت قراري.. وأخبرته أنّ جدتي تعرف بوجوده وتطلـــب رؤيته. لم يتحرّك من مكانه، ولم تظهر على وجهه أيّة علامة تـــدل على أنّه استوعب ما قلته أو سمعه، قلت بهـــدوء اســـتغربته كمـــا استغربت نبرة صوتي الخافتة: "رشدي، هـــل ســـتذهب معـــي؟" ارتعشت يده الممسكة بمقبض الكرسي، نهض من دون أن يـــرد، وسار أمامي إلى الباب.

أضحكني خاطر عـــابر ونحـــن في الطّريـــق إلى غرفتـــها في المستشفى، كيف سأناديه أمامها؟ أليس المفروض أن أقـــول لـــه جدي، أو على أقل تقدير "عمي رشدي"! نفضـــت رأســـي مـــن الخاطر المزعج وأنا أدلف إلى الغرفة الهادئة وأرى وجهها الضاحك واللهفة في عينيها.. أهي حقّاً جدتي وداد؟ تبدو أصغر من عمرهـــا بسنوات ويبدو وجهها بهياً يشع نوراً، وكأنّ تلك البقع البنية قـــد فارقته.. شككت للحظات أنّ جدتي وضعت مكياجاً على وجهها وتزيّنت فتلك الألوان المبهجة لم أرها منذ عشرين سنة مرّت عندما

كانت في الستين وكلّ من يراها يعتقد أنّها لم تتجاوز عتبة الأربعين، وخزني قلبي وأنا أنتبه إلى المرآة المعلقة قريباً من سريرها.. كان وجهي هناك أصفر باهتاً تنتشر فيه تلك البقع الكامدة، ووسطه عينان مطفأتان وشفتان ازرقّتا وكأنّهما تعانيان من نقص الأوكسجين، أفزعني المنظر كنت هناك كجثة تتحرّك بشكل آلي.. افتقدتُ روحي، حتّى تصلّبت أصابعي الممدودة بباقة الزهر إليها..

شمّت زهور الزنبق البحري بعمق، وضمّت الباقة البيضاء إلى صدرها، قلتُ: "جدتي.. معي ضيف في الخارج يريد أن يراكِ". فتحت عينيها فانطلق منهما نور غمر وجهها، وهمست: "رشدي". لم أعلّق، وخزني حلقي بشدّة كأنّ سكينا غرزت هناك.. خطواتي البطيئة أفضت بي في النّهاية إلى الممر الخالي، بحثت عيناي عنه بقلق.. لم يكن هناك!

الموقف كان مربكاً وقاسياً، لم أعرف ماذا أقول لها فاستعنت بالممرضة كي تخبرها أن علينا المغادرة إلى البيت.

لأوّل مرّة أنتبه إلى قامة جدتي المشدودة الممتلئة تسير بثقة صبية في الثلاثين.. كنت مرتبكة الخطوات أشعر بثقل جسدي الذي يرهق قدميّ فأضطر إلى جرّهما بصعوبة.. حين وصلنا أفسحت لي الطريق لأتقدّمها وأفتح الباب.. كانت باقة الزنبق البحري تستريح بين ذراعيها كطفل صغير وترسل هالة لطيفة الرائحة تلفّ جسدها ونظراتها.

أهي صدفة جعلتها تختار المقعد الذي جلس عليه منذ ساعات؟ أغمضت عينيها وغابت عن الوجود، لم أعرف إن كانت

نائمة أم غارقة في حلم يقظة، فقط سمعت اسمه يتكرّر كتعويذة من شفتيها.. ثمّ فجأة قالت بصوت واضح النبرات: "كنتَ جباناً وقتها لو أنّك سرت ورائي خطوتين.. فقط خطوتين". ارتعش قلبـــي، أنا التي قلت هذه العبارة لرشدي منذ ساعات وليست هي! أنا علـــى يقين من ذلك.

***

كان لا بدّ له من مواجهة الحقيقة حين سمع صوتها وأيقن وهـــو مغمض العينين أنّ التي تحدثت إليه ليست وداد، وداد كانت تملـــك صوتاً رخيماً خافت النبرات، حين تتكلّم تخرج الحـــروف خجولـــة تتعثر قليلاً ويخفت صوتها حدّ الهمس. يحفظ جيداً تلك الذبذبات التي يخلّفها صوتها في روحه.. تغافله في وحدته فيشكّ أنّ صـــوتها يعـــبر البحار إليه.. وأنّها واقفة خلف نافذته المغلقة على البرد والثّلج، تنقر الزجاج برقة وتهمس: "تأخرت.. يكاد قلبـــي يتجمد". غالبـــاً مـــا يلبـــي النّداء ويفتح النّافذة فتهاجمه ذرات الـــثّلج.. تلســـع وجهـــه فيصحو من الحلم الذي يتكرّر دائماً في أماكن مختلفة وأشكال مختلفة والتّفاصيل نفسها.

وداد التي يجلس في حضرتها الآن جعلته يتأرجح علـــى فوهـــة بركان قابل للانفجار في أيّ لحظة وهو في سن لم يعد قـــادراً علـــى تخطي مشاعره وتجاهلها ومداواتها بالتي كانت هي الـــدّاء! وصـــل للمحطة الأخيرة و لم يعد قادراً على السّفر إلى أيّ مكان.. بل لم يعد قادراً على مغادرة مقعده.. إنّها النّهاية التي تلوّح له بكفٍ من حنـــاء وزعفران كان قد أوصى أن يفرش قبره بهما وأن يوضع قرب رأســـه

عود "تمر حنة". لم يكن يحبُّ الريحان ولا الآس الأخضر على القبور أوصى أن يكون له شجرة فلفل تخيّل أنّها ستطرح ثمارهــا الحمــراء فوق بلاط القبر وتصل رائحتها إلى عظامه.

وداد التي مشت في دورته الدّموية طيلة سبعين عاماً منذ امتطت ظهره أوّل مرّة لتتسلّق شجرة الجميز ولمست يده ســاقها المخمليــة وهي تنزلق إلى الأرض ومنحته شعوراً إلهياً بالتّحليق. ما الذي جعلــه ينساق وراء هذه الصبية لتقوده إلى حيث تقبع جثة أحلامه، ألــيس كلّ ما عاش ينتظره مجرد وهم؟ أحسّ أنّ ما يجري نكتة سمجــة، لا يستطيع أن يتخيّل وداد وقد شاخت.

سمع صوت حفيدها تقول: "جدتي معــي ضــيف يريــد أن يراكِ".

ارتعش قلبه، نظر في عمق الممر كان خالياً، حث خطاه وغادر المكان بسرعة، لم يتوقف حتّى لاحت زرقة البحر وعرف أنّه صــار بعيداً عن متناول رائحتها.. وبمجرد أن ألقى جســده علــى مقعــد خشبــي في الحديقة الفارغة اقتربت الرّائحة مجدداً، رائحــة الزنبــق البحري الذي أصرّت وداد على أن يشتريه لجدها.. كيف عرفت أنّه زهره المفضّل؟ كانت وداد تضمُّ زهور الزّنبق البيضاء في قوس أسود تسحب به شعرها فيبدو جبينها مضيئاً كجبين آلهة يونانية. هرب من الرّائحة والذكرى ودلف مقهى سبيرو..

جاءه النادل بفنجان قهوة وقنينة ماء بارد، تناول رشــفة مــن فنجانه وفكّر فيما فعله، لماذا هرب من مواجهتها؟ وإلى متى ســيبقى يتهرّب من لقائها؟ فاجأه خاطر مربك "أكان يتمنّى ألا يجدها علــى قيد الحياة حين عودته؟".

طيلة السّنوات العشر الأخيرة بعد انقطاع أخبار الحي عنـــه لم يعد متأكداً إن كانت حيّة أم رحلت؟

لماذا يدور الزمن على أعقابه الآن ليرســـم صـــورة البـــدايات ويطحن قمح بيادره ويذروه هشيماً؟ لم يتبقَ سوى الهشيم مع أنّـــه يشعر أحياناً أنّ بإمكانه أن يلمس بأصابعه نداوة صـــباحات أيلـــول حين كان يهرب من المدرسة ليراقب دربها ويطمئن أنّ أحداً لن يجرؤ على الاقتراب منها مادامت عيناه تخيّمان فوق رأسها كغيمة!

نداوة أيلول التي ارتبطت بآخر مواسم البطيخ وأوائل موســـم العنب والتين وافتتاح المدارس ورائحة الكتب والحقائـــب المدرســـية وعرائس الجبنة واللبنة، وطيّارات الورق! وبدايات المطر، يذكر حين تنهمر "مطرة المسطاح" كيف تركض أمّه لتجمع الـــتين المرصـــوف على المصطبة ليجف أواخر الصيف، وكيف تحثه علـــى مســـاعدتها فيملأ جيوبه بحبات التين ويركض إلى الشارع تاركاً إياهـــا تدمـــدم بكلمات لا تصل أذنيه..

دائماً يهرب إلى تلك الذكريات حين يصطدم بواقع مـــؤلم أو يواجه موقفاً صعباً.. وينجح في العودة للزمن الذي كانت وداد لـــه بمشاعرها ووجودها.. قبل أن تصبح زوجة وأمّاً.. وقبـــل أن يلتقيـــا مصادفة في سوق أوغاريت الشعبـــي قريباً من العوينة[1]. كان يومها عائداً من زيارة صديق هناك وأحبّ أن يتمشى في السّـــوق القـــديم كعادته، فهناك تكمن التّفاصيل الحميمة لتاريخ الصناعات اليدويـــة

(1) سمي بالعوينة نتيجة إقامته على عتبة مائية ترفدها عدة عيون وكان يعرف قديما بـــ "حير صولاق" وهي تسمية تركية تعني الماء، فيه ثلاثة مساجد أثرية ومطرانية قديمة.

القديمة بدءاً من تبييض النّحاس وصناعة كراسي القــش إلى صــناعة الأراكيل والمدافئ وأدوات الصيد، كان يتفرّج على الخانات ويتوقف أمام واجهاتها حين لمحها تجرّ ابنتها وصال والطفلة تبكي تريد أن تقف لتتفرّج على مبيّض النحاس وهي تزجرها بنبرة غاضبة. كانت تحمل بيدها أكياساً فيها فاكهة وخضار وفاحت منها رائحة السمك. أراد أن يقول شيئاً، ارتبكت خطواتها وسط الزّحام.. وتعثرت كلماته فلم يجد منها سوى التّحية والسّؤال عن الحال! وفطن فجــأة إلى الخبــز السّاخن المملح الخاص الذي اشتراه قبل قليل من أقدم فرن في المدينة، ناول وصال رغيفاً من أرغفة رمضان، ردت بابتسامة وتوقفت عــن البكاء، سحبتها أمّها بقوة وتابعت طريقها.



القيثارة الحزينة

...

دخلتُ المطبخ، صنعت فنجان قهوة، وعـــدت إلى الصـــالة، كانت واقفة قرب النّافذة والزنبق أمامها في مزهرية، التفتـــت إليّ متسائلة: "أين صباح؟".

لم أستعد لهذه المفاجأة.. كنت قد نسيت تماماً أمر صـــباح.. كيف سأخبرها؟

عادت تسألني: "منذ متى وأنت تقيمين عندها؟

تلعثمت وأنا أقول: "منذ دخولك المستشفى يا جدتي".

همست: "حسناً فعلتِ، أختي صباح طيبة جداً، لا تشبه أمّها في شيء، سامح الله نسرين خانم كانت السّبب في تفريقنـــا وزرع الكراهية في نفوسنا".

تراءت لي صباح عند حافة البحر وأنا أنظر من النّافذة مبتعدة عن جدتي كي لا ترى أثر كلماتها على وجهي.. كنّا ســـوية قبـــل أشهر نجلس هناك...

تدفّق هواءٌ منعش من جهة البحر ومال الجوّ لـــبرودة لطيفـــة أحيت روحي.. التفتُّ نحو صباح.. ما زالـــت علـــى جلســـتها في الشّرفة تحدّق في العتمة وتتنفس بعمق، وصوت أم كلثوم يطغى على

صوت عناق الأمواج للشاطئ، تجرّأتُ على سؤالها: "لماذا اخترتِ السّكن هنا بعيداً عن النّاس، ولماذا تركتِ التدريس ولم تصلي إلى سن التّقاعد بعد؟" كنت أريد أن أصل إلى سؤال مختلف، فقد أفقت على صوت نشيجها، لمحتها وقد تركت كمبيوترها المحمول مفتوحاً وخرجت إلى الشّرفة تبكي! لم أقصد التّجسس عليها، ربّما فضولي هو الذي جعلني أسترق النّظر إلى الشّاشة التي احتفظت على سطحها بملف مفتوح.. سرقت عيناي بعض العبارات بسرعة.. ثمّ خجلت من نفسي حين عرفت أنّها محادثة خاصة مع رجل!

الغريب أنّنا كلّنا نعرف لقب خالتنا الرزينة صباح "البتول" المضربة عن الزواج على الرغم من تقدّم العشرات من أبناء العائلات في اللاذقية لخطبتها حتّى بعد أن تجاوزت الخمسين من عمرها لم ينقطع الرجال عن طلب ودّها، وقد كانت نساء الحي يتندرن بعزوفها عن الزواج وارتباط ذلك باسمها الذي اختارته لها أمّها لحبّها الشّديد للمطربة صباح! وكم تمنّت لو أنّ ابنتها امتلكت ذلك الصوت الجميل الذي كان من نصيب صفاء ابنة هاجر وعبد الغفور التي كانت تبز صباح حين "تسحب الموال" لدقائق من دون أن تلتقط نفَسها.

لم تكن صباح بحاجة للحديث عن الماضي البعيد الذي أعرف تفاصيله كما يعرفها أهل الشيخ ضاهر وتحديداً الشّارع 4 شمالاً.. ولم تبدأ بالحديث من فكرة عدم ثقتها بالرجال على مبدأ المثل القائل أنّهم كالماء في الغربال، المفاجئ أنّ لدى صباح بداية أخرى مختلفة تماماً عن الفكرة السّائدة عنها ومنسجمة مع أغنيتها المفضلة التي لا تمل سماعها "جددت حبّك ليه؟".

تعرّفتْ على زميل لها أثناء امتحان السّنة الأولى وحـــدث أن أعجبت به. دامت صداقتهما أربع سنوات تبادلا خلالها رســـائل منتظمة تحدثا فيها عن كــلّ شـــيء، الأدب والفلســفة والحيـــاة والسياسة والفن، لكنّهما أغفلا المنطقة الخطرة ولم يقتربا منها أبداً "القلب".. لم يلتقيا سوى مرّات قليلة كانت كافية ليتأكد كلاهمـــا من مشاعره تجاه الآخر لكنّهما التزما الصّمت تجاه البوح.

هدأ النّسيم، وازدادت الرطوبة فذهبنا إلى الحديقة الخلفيـــة الموصولة برمال الشّاطئ.. جلسنا معاً في مواجهة البحر، صـــنعت صباح إبريق شاي ثقيل.. شاركتها في شـــرب كـــأس صـــغير، لم أكن أحبّ الشّاي الأحمر الثّقيل بل أفضّل الأخضر بالنّعنـــاع.. لم تكن صباح توجه حديثها إليّ حين قالت: "وكأنّ ذلـــك حصـــل البارحة، رأيته في المنام قادماً إليّ عبر الشّاطئ فوق تلك الصّخور، كانت يداه مملؤتين بزهر الليمون، وكنت أسير إليه بلهفة لم أنتبـــه معها إلى الطّحالب تحت قدميّ حتّى كدت أصل إليـــه فانزلقـــت وتلقفتني يداه.. كم أحبّ رائحة زهر الليمون، وكم كانت يـــداه دافئتين!

كتبتُ له المنام على شكل قصة وختمته بجملة "كـــان مجـــرد منام". ردّ برسالة قال فيها: "ليتك لم تكتبـــي الجملة الأخيرة فقد هدمت الحلم بأكمله". لم أفهم أنّه يقصد الواقع لا النّص، ظننـــت حينها أنّه ينقد ما كتبته من حيث الشّكل الفني!

صمتت قليلاً ثمّ قالت من دون أن تنظر إليّ: "أشعر بتعب هل ندخل؟". لم تنتظر ردي، نهضت ودخلت غرفتها وتركتني وحدي أفكّر في الحياة التي عاشتها نساء عائلتي بـــين الفقـــد والوحـــدة

والقهر.. لماذا على النّساء أن يقعن في الحبّ ويتحمّلن كوارثه، ثمّ يستسلمن للموت هكذا من دون اعتراض؟

مضى على وجودي مع صباح أكثر من أسبوع حاولت خلاله أن أكون ضيفة متعاونة أقوم عنها بأعباء المنزل وأستشيرها فيما تحبّ من الطّعام، اعترضت في البداية على ذوقي في ترتيب البيت ونوع الزهور والرّائحة التي أستخدمها في تلطيف الجوّ حتّى المنظفات التي أمسح بها الأرضيات وأغسل بها الملابس، ثمّ فجأة قبلت كلّ شيء أعمله وصارت تعبّر عن رضاها بابتسامة ولا تبخل عليّ بكلمة تشجيع، شعرتُ مع الوقت أنّها هي أيضاً تخاف الوحدة وأنّها في أعماقها لم تتضايق من زيارتي وإقامتي معها.

أستطيع القول إنّ صباح قد أصبحت صديقتي. ووجدت نفسي أنحاز إليها على الرغم من محاولاتها الدّائمة لتذكيري بأنّي لا أنتمي إلى عائلتها العريقة وإن كانت جدتي ابنة عاصم آغا. كنت مقتنعة بالأسباب التي جعلتني أتعاطف مع صباح؛ لأنّي أرى فيها الصّورة المستقبلية لي.. كنت على يقين أنّي حين سأصبح في عمرها سأكون وحيدة في بيت صامت تصله في الليل أصوات جنيات البحر تغني على الشّاطئ ثمّ ترحل في الصّباح وتعيدني إلى زمن الحكايات..

في ذلك الزمن كانت أغنية أو مسلسل أو قصيدة أو رسالة في البريد كافية لتغيير مسار حياة إنسان بشكلٍ كامل.. هكذا قالت لي صباح ونحن نعود إلى جلستنا المعتادة قرب الشّاطئ. بالنّسبة لصباح كان المنام الذي تحوّل إلى قصة الشّرارة التي جعلت قلبها يتعلّق بـ "طارق". همست بصوت جمّلته بحة حزينة: "كان

يشبهه إلى حدٍّ كبير، الهدوء والبطء في نطق الكلمات، الصّوت العميق الدّافئ، لون العينين، والشّخصية الطّاغية الحضور. كأنّه هو! أكانت مصادفة أن يحمل الاسم نفسه؟".

سألتها: "عمن تتحدّثين؟". قالت: "نزار قباني". قلت لها باستغراب: "لكنك قلتِ لي إنّ اسمه طارق!". قالت: "نعم، ونزار كان اسمه "طارق" في مسلسل "القيثارة الحزينة". فتحت فمي دهشة: "نزار شاعر وليس ممثلاً، ما بكِ يا خالتي؟ يبدو أنّك تخلطين الأمور". رمقتني باستهزاء وقالت: "أنا واعية ولا أخلط الأمور، أنتِ جاهلة.. نزار مثّل في مسلسل "القيثارة الحزينة[1]" مع نجاة الصّغيرة، وكان اسمه طارقاً، وكان كاتباً وصحفياً في المسلسل، كنت أسمعه من إذاعة الشرق الأوسط وأنا في المرحلة الثانوية.. وقد أسر قلبي وتمنّيت لو أنّي مكان نجاة، لو أحبني قليلاً، لو التقيته في مقهى السيريانو في الإسكندرية، لو جلسنا على تلك الربوة التي يغمر البحر نصفها، لو قال لي ذلك الشّعر.. لو...

صمتت قليلاً ثمّ تابعت: "كان موعدهما في الخامسة، التقيا السّاعة السّادسة، قال لها: "غروب الشّمس رائع يجد فيه الانسان ألف معنى، والشّاعر ألف قصيدة وقصيدة".

حين التقيت "طارق" لم يكن الشّيب قد غزا رأسه، لم يكن في عمر نزار، لكنّي تغاضيت عن الأمر وقلت سيأتي اليوم الذي يشتعل فيه رأسه بفضة نادرة ألمسها بأصابعي وأرتعش".

---

(1) القيثارة الحزينة قصة يوسف السباعي، بطولة نجاة الصغيرة، نزار قباني، كمال الشناوي. أذيع المسلسل عام 1967.

أنا التي ارتعش قلبـــي مما قالته صباح.. أيعقل هذا؟ أيمكن أن تورّثني صباح هذا الإحساس بروعة الفرق في العمر حين تكـــون الفتاة شابة ويكون الرجل في نهاياته؟ أيّ جنون هذا؟

حكت لي صباح أنّها كانت تستمع إلى المسلسل بالسرّ فقـــد فرض عاصم آغا ذوقه الخاص على بناته فكـــان يغضـــب إن رأى مؤشر الراديو على إذاعة غير محطة "هيئة الإذاعة البريطانيـــة مـــن لندن" أو محطة الشّرق الأدنى من يافا" التي انتقلت إلى قبرص بعـــد سنة. كانت دقات ساعة "بيغ بن" مقدسة لديه فهي تعلـــن عـــن موعد الأخبار التي يعشق الإنصات إليها بأصوات مـــذيعي لنـــدن الجادة والحيادية، ويهرب منها أفراد العائلة والـــتي اســـتبدلها في أواخر الأربعينات بالاستماع إلى إذاعة دمشق التي افتتحها يحـــيى الشهابـــي بصوته المميز.

كانت صباح تضطر أحياناً للتسلل إلى بيت أختها لســـماع الحلقات إن كان الراديو في حضرة عاصم آغا. وحتّى بعد دخول التلفزيون إلى البيت واحتلاله صـــدر غرفـــة الجلـــوس في نهايـــة السّتينات بقيت صباح مخلصة للراديو الترانزستور الصّغير الـــذي اشترته من مصروفها الخاص ولم تعد مقيدة بالاستماع إلى الراديـــو العتيق الذي يتصدّر رفاً صنع خصيصاً له ووضعت نسرين خـــانم تحته مفرشاً من الكروشيه وغطّته بمفرش من أجمل ما نسجت رقيّة في صباها.

حين التقت صباح بطارق بعد تلك الرّسالة ابتعـــدت قـــدر المستطاع عن مناقشة ما جاء فيها معه على الرغم من تلميحاته التي أراد من خلالها فتح باب الحوار لعلّه يصـــل إلى معرفـــة حقيقـــة

مشاعرها نحوه. لم يصبه اليأس فقد كتب لها ثانية ما يوحي بأنّه فهم الرسالة الحقيقية من وراء النّص، هذه المرّة كتب رسالة طويلة من ثمانية صفحات على الآلة الكاتبة.. في البداية انزعجت لغياب خطه الدّافئ كونها تعتقد أنّه يصل القلب بالقلب.. وخافت الحبر الأسود الجاف الخالي من روحه، كانت تظنّ أنّ بين القلم والإصبع رابط خفي من أعصاب الروح ينقل النبض إلى الحروف.. لكنّها استطاعت بعد تكرار القراءة عدّة مرّات أن تستخلص روح الكلمات التي وضعتها في حيرة جديدة. كتب لها:

(الحلم شمس خجلى في خدرها تنتظر لحظات اليقظة النّهارية من أجل أن تتفجّر ظهوراً نورانياً، وحلمك العذب أشرق في داخلي بعيداً عن ظلمة كانت تملؤني وتحاول تمزيقي في صمت، أتشاغل عنه بالقراءة تارة وبالتّسكع تارة أخرى.

لذيذ هو حلمك.. وجدت فيه طعم التّوابل الهندية، ولذة الدّفء الشّتوي..

مرآة هو حلمك.. شاهدت فيها نفسي.. التّدخين، البحر، الأصابع النّحيلة.. ينبوعٌ هو حلمك وشمس غير آفلة، أتمنّى أن يعبأني أكثر بشوق إلى اللقاء، وعربة الزمن تفرغ حافلاتها الأيام في مخزن الماضي.. ولعلّنا نتناول معاً خمرة اللقاء معتقة.. حينئذ نقول مالم نقله، ونشاهد مالم نشاهد ونكتب مالم نكتبه في عالم حلو نريده..

شاسع الفرق بيننا؟

لا أعتقد، نحن قريبان على بعدنا.. نراوح معاً، نتأرجح معاً بين مسافة الممكن والمستحيل، نصمت حين تتوقد الكلمات، ونصرخ حين يتفجر الصّمت لغة جوفاء. آه كم نحن قريبان، وكم

نحن بعيدان! تعالي ندخل بوابة الصّفاء، وتفتح الحلم، وفرح الأمطار، والكتابة الخجولة، ورائحة الزهر اليابس.. تعالي نبتعد عن أرض الواقع قليلاً، ولنتفق أولاً على صياغة معالم الطريق.

الحلم! زمن شهي أهرب إليه من الواقع، يرميني في دوامة الفراغ، الحلم كالكتابة حريق ممتع لابدّ منه إذا أردنا الخروج من دائرة الواقع الصّعب.

كم أتمنّى لو خرجتِ عن صمتك لننهي هذا العذاب الشّهي الذي تبغين!

أرجو أن أكون إلى جانبك دائماً في الآلام والأحلام والآمال.. لأقول: "شفاكِ الله ورعاكِ[1]"

طارق.)

ردّت بلباقة أوحت له أنّها لم تفهم قصده.. وبقي كلاهما في لعبة شدّ الحبل تلك طيلة سنوات الدراسة كلّما تقدما نحو بعضهما خطوة تراجعا خطوتين حتّى تخرجا من الجامعة ولم يعد بإمكانهما أن يلتقيا.. فجأة انقطعت رسائله وغرقت صباح في موجة اكتئاب لم يخرجها منها انشغالها بالتّدريس والسّفر إلى منطقة نائية، لم تنقطع عن الكتابة إليه بشكلٍ منتظم حتّى عادت آخر رسالة إليها وقد كُتب على غلافها "لم نعثر على المرسل إليه". توقفت حينها عن إرسال الرسائل وعن السّؤال عنه.

وقبل بلوغها سن التّقاعد قرّرت أن تترك التّدريس وتعود إلى اللاذقية، فقد تكرّر حلم البحر كثيراً لدرجة أنّها صارت تراه في منامها كلَّ يوم تقريباً وتشعر أنّ "طارق" قد عاد!

---

(1) عبارة جبران الأزلية إلى مي زيادة في نهاية كلّ رسالة.

لم تجد أحداً بانتظارها فقد ماتت أمّها في تلك الفترة ومـــات شقيقها هشام، ولم تكن على علاقة جيـــدة بأخواهّـــا ألمـــا ووداد وسامية. لم يزرها أحد في منفاها على شاطئ البحر سوى زيـــارات عابرة لأولاد أخوهّا ولأجل هذه المعاملة فكّـــرت بحرمـــاهم مـــن ميراثها الذي سيؤول إليهم بعد موهّا.

صباح التي كانت لغزاً لنا جميعاً فتحت قلبها المغلق كمحـــارة فبان اللؤلؤ دافئاً ومريحاً وحميماً.. لؤلؤ تمنحه بسخاء لا تشوبه منة، هل كانت تدرك أنّها تعطيني الأمل الذي سيعينني على الاســـتمرار وسط هذا اليأس الذي يحيط بكلّ تفصيل في حياتي؟

بالتّأكيد من يمنح من دون هدف لا يسأل عن أثر عطائه؛ لأنّ العطاء فطرة. سألتها: "ماذا حـــدث بعـــد أن وصـــلتك تلـــك الرسالة؟". قالت باستسلام: "لا شيء، سارت الحياة خارج عالمي كالمعتاد أناس يولدون وآخرون يرحلون، حروب تشتعل ومـــدن تفنى وأمراض وكوارث طبيعية.. لكن داخل جدران هذا البيت لم يحدث شيء البتة. بقي كلّ شيء على حاله. لقد عشـــت يومـــاً واحداً مكرراً إلى ما لانهاية.. أستيقظ وآكل وأشـــرب وأســـتحم وأتسوق وأطبخ وأنظف البيت وأقرأ وأنام. لا جديد أبداً. ربّمـــا الشّيء الوحيد الذي أشعرني بمرور الـــزمن داخـــل عتبـــة بـــيتي اضطراري لزيارة طبيب الأسنان. لا تضحكي.. زيـــارة الطبيـــب أشعرتني أنّ تغييراً يحدث وأنّ الزمن يمرّ...".

عندها لاحظت أنّ بيت صباح كان خالياً مـــن المرايـــا وأنّ السّاعات في جميع الغرف قد توقفت عند السّادسة مســـاءً.. وأنّ "الرزنامة" الوحيدة المعلقة على الجدار تاريخهـــا يعـــود إلى عـــام

1977.. لم تكن صباح بحاجة لأن تخبرني أنّه العام الـــذي افترقـــا فيه وأنّ التّاريخ في الرزنامة يشير إلى يوم الأحد من شهر نيســـان اليوم الذي كتبت فيه رسالتها لطـــارق، ويـــوم التقـــى نـــزار في المسلسل بنجاة، يوم الأحد الذي تناجيا فيـــه، وظلّـــت صـــباح تناجي طارق بالعبارات نفسها التي ناجت فيها نجاة نزار.. وتنتظر أن يقول لها طارق ما قاله نزار: "اللي أعرفه عنك إنّـــك قيثـــارة حزينة منتظرة الأصابع السّحرية اللي تعزف عليهـــا أرق وأحلـــى الأنغام".

اليوم الذي توقفت فيه الحياة وصارت تقتات علـــى فتـــات ذكريات لم يكن فيها ما يروي عطش السّنين المتتابعة لكنّها عرفت كيف تعيد تدويرها وتصنع منها ما يحمي جسدها وروحهـــا مـــن الانقراض. يوم الأحد ذاك كتبت لطارق تخبره أنّها تحبّه وأنّه لم يعد مهماً بالنّسبة إليها أن تلتزم بضوابط متعارف عليها اجتماعياً ولن تندم على بوحها حتّى وإن كان حيادياً في مشاعره نحوها.

استمرّ هذا الحال حتّى دخول الألفية الثالثة حين تعبت صباح من الوحدة والعزلة وفكرت أن تشتري كمبيوتر وتسجل في البريد على خط انترنت بعد أن سمعت بمميزات كثيرة يمكنها من خلالهـــا معرفة ما يجري في العالم من دون حاجـــة للصـــحف والمجـــلات، وإرسال رسائل خلال لحظات.

لم تكن تفكر بإرسال رسالة لأحد؛ لأنّها لم تكن تعرف أحـــداً تراسله! أغوتها الفكرة وذهبت إلى مبنى البريد، وهناك حدث ما لم تتوقعه. دافعٌ خفي جعلها تذهب إلى غرفة الأرشيف لتسلّم علـــى "أبو عبد الحميد" الذي قضى عمره موزعاً للبريـــد ثمّ أحيـــل إلى

الأرشيف بعد أن صار عاجزاً عن قيادة دراجته الهوائية وصارت أنفاسه تضيق من المشي.

حين رآها حدّق برهة في وجهها محاولاً تذكرها، سبقته وقالت: "كيفك عمي أبو عبدو؟"... هبّ واقفاً متهللاً، وتقدّم إليها مصافحاً: "يا أهلاً بابنة الغالي، كيفك عمي صباح؟ كيف الصّحة؟ وين رماكِ الزمان يا عمي، ما شفتك من عشرين سنة أو أكثر.. إيه على الزمن لم يترك لنا سوى ذكريات". طلب لها شاياً وأصرّ أن تجلس معه وتشربه، كانت الأحاديث تتدفق من فمه كنهر لا يريد أن يتوقف حتّى في مصبه! مضت ساعة وهي تستمع إليه بشرود، تتذكّر وجهه حين كان يناولها رسائل طارق ويبتسم غامزاً: "امتى رح نفرح فيكِ يا عمي؟". فيضرب الخجل وجهها بحمرته، ولا تجيب. تململت بما يوحي أنّها تريد الذهاب، انتبه أبو عبد الحميد وتوقف عن الحديث وقال: "ليتك تعيدين الزيارة" ثمّ قال بعد توقف: "لم أسألكِ ماذا جئت تفعلين في البريد؟" أخبرته باختصار، نظر إليها وهو ساهم كأنّه يحاول تذكر أمر ما، صافحته ومشت، في تلك اللحظة ناداها: "استني يا عمي في عندي أمانة لك". توقف قلبها عن الخفقان لثوانٍ فقد أدركت مباشرة نوع الأمانة لكنّها تمنّت ألا تكون منه فلم يكن باستطاعتها في تلك اللحظة أن تنظر إلى حروفه ثانية متجاهلة الزمن الذي مرّ على فراقهما. لكنّ الرسالة كانت منه فعلاً، شرح أبو عبد الحميد أنّه جاء إلى بيتهم عشرات المرّات لأشهر طويلة ليسلّمها الرسالة لكنّهم قالوا له إنّها سافرت إلى محافظة بعيدة ولن تعود، وأخبرها أنّه كلّما مرّ بالحي 4 شمالاً يسأل عنها ولا يجد جواباً.. أراد أن

يضيف ما أخبار طارق؟ هل تزوجتما؟ لكنّه حدس الجواب لم يكن في إصبعها خاتم ولم تكن هيئتها تدل على امرأة متزوجة!

لم تستطع صباح أن تصف ما حدث لها في تلك اللحظة التي وجد فيها أبو عبدو المغلف وناولها إياه.. ارتعشت أصابعها وغاض الدم في عروقها وارتجف قلبها كما لو أنّ طارق في تلك اللحظة قال لها: "أنت قيثارة حزينة تحتاج لأصابع سحرية لتعزف عليها أرق الألحان" انتفض جسدها ولم تستطع السّيطرة على خطواتها المترنحة. انكمشت بجانب الجدار ودسّت الرسالة في حقيبتها وطلبت تاكسي يعيدها إلى البيت.

ظلّت ساعات طويلة خائفة من فتح الحقيبة ترمقها بحذر وتتراجع كلّما مدت يدها إليها. لكن المواجهة لا بدّ منها يجب أن تعرف محتوى الرسالة. حين فتحتها وجدت فيها بضعة أسطر توقفت نظراتها ونبضها عند الجملة الوحيدة التي انتظرتها عمراً كاملاً "موعدنا في مقهى العصافيري السّاعة الخامسة مساء يوم الأحد، سأنتظركِ حتّى السّادسة إن لم تأتِي أعرف أنّك مرتبطة بغيري.. قطاري سيعود إلى دمشق في الثّامنة مساءً.. طارق".

ما حدث بعدها أنّ صباح قد عاد إليها الأمل في لقاء طارق، صارت تبحث عنه عبر الانترنت حتّى حظيت بمعلومة عنه في أحد المواقع، أمسكت رأس الخيط وذهبت وراءه حتّى حصلت على بريده الالكتروني.

وماذا بعد؟ سألتها.. سكتت طويلاً ثمّ قالت: "لا طاقة لي على احتمال نتائج البحث، ليتني لم أبحث عنه، ليتنا لم نعد كما كنّا". توقفت عند العبارة الأخيرة، ماذا تقصد صباح بعودهما كما كانا؟

قالت: "كتبت له أخبره أنّي انتظرته طوال عمري ولم أتزوج ولم أحبّ شخصاً غيره. ردّ عليّ بأنّني ما زلت في القلب، لكنّه تزوج وأولاده أصبحوا شباباً وزوجته مدرّسة في الجامعة لها شخصية محببة وهما سعيدان معاً". توقفت عن الكتابة إليه كان حديثه طعنة في قلبي قتلت كلّ ذكرياتنا الجميلة، لم أبحث عن الدّوافع والأسباب، انسحبت بهدوء حتّى جاءتني رسالة منه بعد أشهر يقول: "ألا تريدين دعوتي لفنجان قهوة؟ اصنعيها من فضلك من دون سكر، أنتظرك السّاعة السّادسة مساء، أرجو أن تفتحي الماسنجر لنتحدث".

لم أرد، كنت غاضبة ومستاءة منه ماذا يظن نفسه؟ كيف يفكّر أنّي طوع أمره وقت يشاء؟ لكنّه عاد وكتب لي في اليوم الثاني: "أنا جاهز لأيّ ترضية، أعلم أنّك غاضبة مني وأعرف السّبب لكن قبل أن تحكمي عليكِ سماع دفاعي". لم أرد كنت قد اتّخذت قراري بالابتعاد عنه فلا فائدة من استعادة ما بيننا. لكنّه كتب لي للمرّة الثالثة: "أتبخلين عليّ بفنجان قهوة؟ تعلمين؟ لم أذق في حياتي أطيب من قهوة "العصافيري"؛ لأنّني كنت في انتظارِكِ.. طعمها ما زال في فمي.. يحملني إلى دقائق الانتظار تلك والموج يعانق أقدام المقهى ويتناوب مع قلبي في حساب الوقت.. لماذا خذلتني ولم تأتي؟". لم يكن أمامي خيار كتبت له أشرح موقفي وأنّي أرسلت إليه رسالة أخبره فيها أنّي أحبّه لكنّه لم يرد! مع هذا لم أخن نفسي وعواطفي ولم أتزوج من غيره ليس لأنّي أحبّه فقط، ليس لأجله؛ بل لأنّي لا أريد خيانة الرجل الذي سأرتبط به وإن كان ذلك باجترار ذكريات مع غيره.

كتب لي: "سامحيني لم أكن أعرف، أردت الانتقام لكـــرامتي المجروحة، حياتي ليست سعيدة كما أخبرتك، زوجـــتي لا تحـــبني وتفضّل الأولاد عليّ وتعاملني بفوقية فقد حصلت علـــى درجـــة أكبر من درجتي في التّـــدريس! في البيـــت وحتّـــى في الفـــراش تشعرني أنّي أقلّ منها.. صدقيني أنا نادم لأنّي لم أفعـــل مثلـــك.. سامحيني فلم يعد بيدي ما أقدمه لكِ سوى كلمات لا طعم لها ولا رائحة".

قوة خفية دفعتني لقبول طلبه، عاتبني برقة وكتـــب لي مـــا لم أحلم به وأتخيله ثمّ فجأة طلب أن يراني.. لم أكن أجرؤ على النّظر في المرآة ولو بشكلٍ عابر حتّى حين أدخل محلاً لشراء ألبســـة أو حذاء أتجنب المرايا.. أخاف أن أرى آثار الزمن في وجهي فكيـــف أدعه يراه؟ رفضت فتح الكاميرا وكان أجرأ مني ففتحها..

حدّقت فيه، كان رجلاً آخر.. أحسست بالخديعـــة، انـــدفع الدّم في عروقي وارتعش جسدي، أحسســـت بـــالبرد وبـــدموع تفجرت من عينيّ بعد انحباس وتحجر طويلين.. لم يكن هو.. الرجل الذي أراه أمامي لا يشبه طارق الذي أحببته وانتظرته واعتزلـــت العالم لأجله. في الشّاشة رجل بدين أصلع نظارته سميكـــة يشـــفط الشّاي من فنجانه بطريقة مزعجة ويأكل وهو يكلّمـــني! لم يكـــن هناك فضة تلمع ولا عينين عميقتين تنظران بلهفة ولا أصابع رشيقة تعبّر عن الشوق بحركة كنت أعشقها وهي تمتدّ لمصافحتي!

كأنّ كلّ شيء في داخلي انهار دفعة واحـــدة. حاولـــت أن أحافظ على لباقتي في الحديث، حاولت أن أضبط نبرات صـــوتي المجهدة، حاولت ألا أجعله يشعر بـــذلك الانقـــلاب العنيـــف في

مشاعري.. لكن من دون جدوى، كلُّ ما فيّ كان ينطق بعدم قبول ما يحدث.

حينها قال لي "أتعلمين؟ ما زلت أحبّك، إن وافقتِ سأترك كلّ شيء ورائي وآتيكِ".

أراه؟ هذا آخر شيء أفكّر فيه. حاولت أن أتملص من لقائه بذريعة أولاده وبعد المسافة بيننا ومشقة السّفر وحصار زوجته وأشياء كثيرة اخترعتها كي لا أقول السّبب الحقيقي. لكنّه كتب لي: "قولي بصراحة إنّك لم تعودي تحبينني، قوليها ولن يجرحني ذلك هذا حقّك على الأقل تأخذين بثأرك مني".

على الرغم من أنّي لم أكن أفكّر بتلك الطريقة وحاولت أن أشرح له أنّ ما بيننا لا علاقة له بالثأر بل هو واقع علينا التّعامل مع معطياته بعقلنا قبل عواطفنا إلاّ أنّه لم يقتنع وحاول إحراجي بإلحاحه كي أتراجع عن موقفي حتّى شعرت أنّه يستجديني وهذا ما دفعني للهرب منه.

كما ترين، يومياً نتحدّث ونجترّ ذكريات صرت على يقين أنّها لم تكن ذات قيمة ولا معنى، وأنّي كنت حمقاء وغبية حين حافظت عليها كلّ هذه السّنين.. لكن لم يعد في العمر ما يستحق أن أعيد النّظر لأجله في حياتي وأبدأ من جديد.. أصعب ما مررت به شعوري بالخديعة وعدم مقدرتي على إعادة عقارب الزمن إلى الوراء لأعيش حياة عادية مثل غيري من النّاس! إياكِ والوقوع في فخ الحبّ.. إن حدث وأحببتِ حكّمي عقلك".

* * *

بعد شهر من وجودي في بيتها، استيقظت في الصباح الباكر كانت روائح القهوة المنبعثة من المطبخ تثير شهيتي لمواجهة هذا اليوم الجديد بتفاؤل.. الغريب أنّ المطبخ –وعلى غير العادة– كان مرتّباً ونظيفاً وباب الشّرفة مفتوح على نسيم البحر وركوة القهوة مع فنجانين موضوعين على الطّاولة وبقربهما صحن حلو! لم تكن صباح تحبّ الحلويات بالعكس كانت تحاذر من تناولها خوفاً من أن تصاب بمرض السّكر الذي قضى على أمّها، منذ تجاوزت الثّلاثين اتّبعت حمية غذائية لم تحد عنها يوماً.. ليس صحن الحلو نفسه ما أثار استغرابي بل روائح معجنات شهية ما زالت ساخنة.. لم تنم صباح، كان واضحاً أنّها بقيت طيلة الليل تصنع فطائر وحلويات وأطعمة قد حرّمتها على نفسها حوالي ثلاثين سنة!

خرجت إلى الشّرفة لم أجدها، بحثت عنها في أرجاء البيت لم تكن هناك. فجأة فتح الباب الخارجي ودخلت صباح بصحبة عربة يدوية كانت مليئة بالمشروبات والفواكه وضعت فوقها باقة كبيرة من القرنفل والزنبق. حدّقتُ فيها بذهول.. ما رأيته كان صادماً بشكل غير عادي، لقد صبغت شعرها وقصّته كما كان في سبعينات القرن الماضي، وارتدت قميصاً أبيض بنصف كم، وتنورة ضيقة قصيرة زرقاء بلون عينيها لم تكن موضة هذه الأيام بل أيضاً من موديلات السبعينات! لم أكن بحاجة لتعليق، من الواضح أنّ صباح قد هاج بها الحنين إلى أيام علاقتها بطارق وأنا على يقين أنّها كانت ترتدي هذا الزي في آخر لقاء لهما وكانت هذه تسريحتها وقتها والكحل داخل العين واللون الأزرق فوق جفونها و...

يا إلهي ماذا يفعل الحبّ بها؟

لكن ألم تقل لي إنّها قرّرت أن تنهي علاقتها بطارق وإنّها صدمت حين رأته ولن تستمر في هذه الحماقة؟ قالت بمرح: "ألم تشربي قهوتك؟ صنعتها لك قبل أن أخرج".

صنعتها لي! وتضحك! هناك انقلاب حصل في الكون ولا شكّ.. لم تترك لي صباح مجالاً لأسألها عن شيء كانت تتحرّك في البيت بخفة، توزع الورد على أرجاء الصالة بمزهريات أخرجتها من الخزائن المغلقة، تفرش الطاولة الكبيرة بمفرش كروشيه جديد، تفتح الشّبابيك وتنقل كلّ ما صنعته من معجنات وحلويات وتدعوني لأجلس معها حول الطاولة! كدت أسألها "ألن تنتظري الضيوف". أجابت على تساؤلي قبل أن أنطق به "هذه الحفلة الصّغيرة لنا أنا وأنتِ فقط". مع أنّي لم أصدق، جاملتها في تناول الحلويات والقهوة الباردة وبعض الفطائر، ثمّ استأذنتني وخرجت ثانية!

استأذنتني! كلّ ما يحدث مثير للاستغراب والتّساؤل والفضول.. فضولي دفعني للبحث عن المقدمات علّني أفهم النتائج لكنّي ازددت حيرة وضياعاً.

حين عادت قالت لي بمرح: "كأنّي سمعتك تناديني؟". لم أستغرب هذه المرّة صار بيننا نوع من التّخاطر بمجرد أن أفكّر بها أجدها أمامي.. قلت: "نعم أحتاجك، هناك أمر غريب لا أفهمه أشعر أنّي أنسلخ من الزمان والمكان وأنّ قلبي يخفق بقوة". ضحكت وهي تقرّب كرسيها من الأريكة وقالت بنبرة جادة: "هذه أعراض الحبّ، يبدو أنّي سأبصم هذه المرّة أنّك حفيدة عاصم آغا، هذه الأعراض تصيب نساء العائلة قبل دخولهن في الغياب". قلت باستغراب: "أيّ غياب؟". قالت: "يغيّبهن الحبّ عن

الوجود فيدرن في أفلاكهن بعيداً عن الحياة خارجهن.. يعشن في هذا العالم ولكنّهن لا يحيين فيه.. ألم تخبرك وصال بذلك؟". قلت باستغراب أكبر: "أمّي! لا لم تفعل، لكن ما شأن أمّي؟ هي الوحيدة التي لم تعش قصة حبّ كما أعرف وقد تزوجت من رجل فقير كما قلتِ لي؛ لأنّها كانت بشعة ولم يتقدّم أحد لخطبتها!". قالت: "وأنت تصدقين كلّ ما يقال! ألم تلاحظي أنّي كنت في مزاج سيء وكنت أسخر من أختي وابنتها؟".

ضحكت صباح ضحكة عالية، وقالت: "صحيح، أمّك من جماعة "الحب كده". الظاهر أنّ كاتب كلمات الأغنية سرق أسماء أولاد أختي وحشرهم في مقدمة أغنيته.. لكنّ دلال ورضا اختاروا الموت واستأثرت وصال بالحياة كلّها.. ما علينا.. كنت أمزح معك، لا تفسّري ما أقوله على أنّه كراهية لأمّك وجدتك، صدقيني هذا آخر ما أفكر فيه".

نعم لاحظت ولم أشأ أن أظهر لها أنّي فهمت، يومها عرفت أنّ صباح لم تخرج من عباءة السيدة نسرين وأنّها كانت تنظر لأختها على أنّها ابنة غير شرعية شاركتها في النّسب والإرث وتفوقت عليها في الجمال والعطاء وأعمال الإبرة والفن والكتابة، ولم يشفع لها أنّ عاصم آغا منعها من إكمال دراستها، ولم يشفع لها أنّهم زوجوها غصباً من خال صباح وحرموها من الشّخص الذي أحبته وحطموا مستقبلها.. لم يشفِ غليل الست نسرين أنّ أخاها طلّق وداد وتزوج أخرى فقد كان السّبب في تمردها وحصولها على حقّها في الإرث وإن سلبها كلّ شيء فيما بعد. كلّ ذلك وبقيت محسودة على مواهبها!

أخرجتني صباح من الدّخول في متاهة المشاعر المتناقضة بقولها: "انهضي معي إلى المطبخ اشتريت سمكاً سنطبخ "صيادية".

بالتأكيد حصل شيء في ساعات الليل غير طبيعي جعل صباح تكسر نظام الحمية وترغب في تناول الأطعمة المحرّمة!

دخلنا المطبخ، أخرجت أسماك "السلطان إبراهيم" من الحقيبة البلاستيكية ووضعتها في وعاء نحاسي يلمع من انعكاس أشعة الشّمس المتسلّلة من النّافذة وفتحت عليها الماء وقالت: "نظّفها عيسى لكنّي لا أثق بالبائعين على الرغم من شهرة عيسى بنظافته في سوق السّمك". التفتت إليّ فجأة وقالت: "تعلمين لماذا سُمي هذا السّمك باسم السّلطان إبراهيم؟". في الحقيقة لم أفكّر بهذا الأمر أبداً ولم يخطر لي سابقاً فهو اسم مثل باقي أسماء الأسماك الموجودة في اللاذقية، مثل "اللقس والقريدس والبلاميدا والغبص وأم عين وسمنور ونايلون وبكلاي وتراخور وشكارمن وسردين، بنوعيه المبروم، وأم قشر وغزال وكربال وعصيفر وغيرها". حين رأت صباح استغرابي من سؤالها تابعت: "السلطان إبراهيم حكايته تحوّلت إلى أسطورة يحفظها سكّان اللاذقية والسّاحل السّوري كلّه.. فهو ابن رجل فقير يدعى أدهم من مدينة بلخ الأفغانية تزوج ابنة سلطان المدينة، لكنّ إبراهيم كان زاهداً بالسّلطنة ويحبّ السّفر بالبحر، ترك أفغانستان وجاب البحر حتّى وصل إلى جبلة وأقام فيها، تبعته أمّه محاولة إرجاعه إلى بلده ليحكم بعد أبيه لكنّه رفض، فبقيت في اللاذقية وماتت ودفنت فيها، وتركت أموالها وقفاً لقبره بعد وفاته.. أمّا لماذا سمّيت هذه السّمكة باسمه، فيقال إنّه كان جالساً على شاطئ البحر يرتق ثوبه، فوقعت

منه الإبرة بالماء.. فجأة خرجت سمكة من الماء وهي تحمل الإبرة في فمها وأعطتها للسلطان الذي انتبه أنّ عينها مفقوءة حين سألها عن الأمر قالت إنّ السّمك في البحر تشاجر من أجل الحصول على الإبرة وأنّ حوتاً لطمها على عينها، فمسح السلطان على عينها فعادت سليمة، وقال لها: اذهبي فإن لحمك عليّ حرام". وهناك رواية أخرى قد تبدو أقرب للواقع، كان السّلطان كان جالساً عند غروب الشّمس عند الشّاطئ وهو جائع جداً، فجأة قفزت سمكة من الماء وارتمت أمامه، أخذها بين يديه ونهض ليذهب إلى بيته، لكنّه وقف لدقيقة متفكراً ثمّ أعادها إلى الماء وقال: "إنّ لحمك عليّ حرام" لذا؛ تباع هذه السّمكة بأغلى الأسعار ويفضّلها أهل اللاذقية على غيرها من الأسماك.

كانت صباح قد أنهت أثناء الحديث غسل السّمك وتقطيعه ونزع عظامه وسلقها مع إضافة الملح والليمون والبصل والقرنفل وحب الهال، واحتفظت بالمرق بوعاء، وقَلَتْ قطع السّمك –على غير العادة– بالسّمنة ولم تستخدم الزّيت، وكذلك البصل الذي قطّعته جوانح حتّى احمرّ لونه، وكانت مهمتي قد انتهت أيضاً فقد قلّبت الأرز الطويل بعد غسله ونقعه مدّة نصف ساعة بالزيت والزبدة وأضفتُ إليه مرق السّمك وجزءاً من جوانح البصل ثمّ وضعت السّمك الذي حضّرته صباح.. أخذت صباح على عاتقها إكمال عملية الطبخ.. من إضافة البهارات للأرز وسكبه في صينية وتزيينه بشرائح البصل المقلي وجوانح الليمون وأعواد إكليل الجبل.

كان الغداء دسماً أتبعته بالحلويات والفواكه والقهوة ثمّ دخلت غرفتها لترتاح وقالت لي: "أيقظيني في السّادسة،

سيأتينا ضيف في الثّامنة مساء". ولم تترك لي فرصة لأسألها من يكون.

ما بين الثّانية والسّادسة غفوت قليلاً وأنا أفكّر في الشّخص الذي سيزورنا مساء، وريثما يحين موعد استيقاظها فتحت صفحتي في الفيس بوك، كان لديّ الكثير من الرسائل والإشعارات، أنهيت قراءة الرسائل وفتحت الصّفحة الرئيسة لأتابع ما نشر من أخبار في غيابي.. كاد قلبي يتوقف حين قرأت الخبر.. غاص بين ضلوعي سكين حاد مزّق كلّ ما تبقى من توازني "النّظام يعتقل الدكتور طارق السّعيد الفنان التشكيلي الذي عاد إلى الوطن أوّل أمس الجمعة قادماً من الولايات المتحدة بتهمة التجسس والعمالة للأمريكان". وتحت الخبر علّق كثيرون بأمنيات الإفراج عنه، ووضع أحدهم تعقيباً يقول: "سافر الدكتور طارق لنيل الدكتوراه في الآداب من باريس في نهاية السبعينات وعاد حاملاً الشّهادة أوائل الثمانينات ولم يجد فرصة للعمل في الجامعات السّورية فغادر إلى الولايات المتحدة، وهناك عمل نحّاتاً ورساماً ومدرّساً في جامعة كاليفورنيا.. ولا يعرف أحد السّبب الحقيقي الذي جعل الدكتور يعود إلى سوريا في هذا التّوقيت مع أنّه على علم بأنّ النّظام أصدر أمراً باعتقاله بعد سفره بأشهر!

يصعب أن أصف شعوري فقد كنت على يقين أنّه الشّخص الذي غيّر نظام الكون حول صباح فتحرّكت عقارب السّاعات ونزلت الرزنامة عن الجدار وعلّقت لوحات لطبيعة صامتة مكانها وأزيلت المفارش القديمة ووضع مكانها مفارش جديدة ونزعت أغطية الأرائك الرمادية و.. أشياء لا تحصى حدثت هذا اليوم

لأجل قدومه! كيف سأخبرها بالأمر، أو الأصح كيف سأخفيه عنها؟ ماذا لو أنّها عرفت! صارت عقارب السّاعة على الجدار تخيفني إنّها السّادسة إلاّ بضع دقائق، يجب أن أوقظها.. يجب أن..

همست وأنا أفتح الباب "صباح". كانت السّتائر السّميكة المسدلة تمنع دخول الضوء لكنّ إنارة خفيفة انعكست على وجهها من شاشة الكمبيوتر الموضوع على طاولة قرب السّرير.. لفت انتباهي مباشرة لون بشرتها ووضعية يدها.. اقتربت منها وقلبي يرتجف، كانت يدها باردة وعيناها شاخصتان، أغلقتُهما ورفعتُ الغطاء فوقها وتهالكت على الكرسي قربها. لم أستطع البكاء، تحجّر الدّمع في عينيّ، لم أعرف ماذا عليّ أن أفعل.. اتصلت بأقارب لي ليساعدوني في إعداد صباح لرحلتها الأخيرة.

تركت صباح كلّ شيء لي كما أخبرني المحامي في اليوم التالي. أورثتني بالإضافة إلى البيت والأشياء الخاصة بها كماً من الرسائل والذكريات والملفات والصور!

لم أجرؤ في البداية على اقتحام خصوصيتها، كنت أشعر بالقشعريرة تهز جسدي ويتسلّل البرد إلى قلبي كلّما فكّرت بدخول غرفتها التي أقفلتُها مباشرة بعد أن غادر جسدها إلى مثواه الأخير.

حين واجهت الباب وفتحته اكتشفت أنّ كمبيوتر صباح ما زال مفتوحاً على صفحتها الشّخصية وعرفت أنّ روحها فارقت جسدها في اللحظة التي قرأت فيها خبر اعتقال طارق!

لم تكن الأمور ستتغيّر كثيراً لو بقيت على قيد الحياة ذلك اليوم.. لو أنّ قلبها احتمل الخبر ولم يتوقف فجأة؛ لأنّ الخبر الذي

نشر بعد أيام سيقضي عليها بالتأكيد. فقد نعى كثيرون الدكتور طارق الذي مات في المعتقل تحت التّعذيب! العبارة التي صارت عنواناً رئيساً كلّ يوم لصفحات الثورة السّورية. "استشهد تحت التّعذيب".

* * *

كرّرت جدتي سؤالها الأوّل: "لم تقولي لي أين صباح؟".

لم يكن من الحكمة إخبارها، فلماذا فعلت ذلك؟ كان عليّ أن أتوقع ردّة فعلها بعد صدمتها بغياب رشدي، الحماقة الكبرى التي اقترفتها ولم أعرف كيف أداريها بكذبة أدرك جيداً أنّ جدتي لم تقتنع بها. فقد أخبرتها أنّ الضيف كان مجاهد أفندي "أبو عيطة" وأنّه غادر لأنّي تركته ينتظر مدّة في الخارج وربّما خجل من هيئته وأحرج لقدومه من دون هدية.. ما الكذبة التي يمكن أن تخفف وقع خبر موت صباح على جدتي؟

لم يكن أمامي وقتٌ كافٍ لاختراع الأكاذيب فقد تهاوت أمامي على الكرسي ثمّ فقدت الوعي..

في المستشفى أخبرني الطبيب بعد مرور يومين أنّها نجت من جلطة ثانية وأنّ الثالثة ستكون القاضية ونصحني أن آخذها إلى مكان بعيد عن البحر "يفضّل أن تذهب إلى الريف".. حين أخبرتها فرّت من عينها دمعة، وقالت: "ما رأيك أن نذهب إلى الأمودة، أشتاق لرؤيتها كثيراً، مع أنّ ذاكرتي لا تحمل لها سوى صورة باهتة من دون ملامح اختزنتها ذاكرة طفلة لم تتجاوز الرابعة من عمرها". أخبرتها أنّي لا أعرف أحداً هناك، والأفضل في مثل هذه

الظروف أن نذهب إلى "سلمى" فقد تركت لي صباح بيتاً صيفياً متواضعاً تحيط به حديقة صغيرة في أعلى الجبل. لم تعترض، لكنّها قالت بحسرة: "لا يمكن للأمنيات أن تصلح ما أفسده الدهر"..

حين وصلنا سلمى كانت مبهورة بكلّ التّفاصيل كطفلة صغيرة تكتشف الأشياء من حولها وتشرح لي موضحة الصورة كما كانت في ذاكرتها، وتؤكد على الشّكل القديم للقرية التي لم تعد كذلك.. قالت بلهفة بعد أن استرحنا قليلاً وتناولنا الطّعام:

كانت ستي رقية تقول: "الإنسان طير من دون جناح، بيركب ها البغلة للمسا بيكون صار بسلمى". وكنت أحبّ أن أركب البغلة لأصل إلى سلمى وأجرّب كيف يكون الإنسان طيراً من غير جناحين؟ لكنّ أخواتي كنّ يتبرمن من ذهابي معهن، وكانت السيدة نسرين تجعلني أحمل الأغراض دفعة واحدة والصّعود بها إلى البيت في الدّرب التّرابي الضيق، ربّما كي "أحرّم" الذهاب معهن مرّة ثانية. لكنّي في سبيل تجربة الطّيران كنت أجازف وأذهب على الرغم من تعكر الجوّ من حولي. لم أفعلها سوى مرتين وجاءت معاملة الست نسرين الفاترة والضاغطة باتجاه تحميلي أعباء التّنظيف والطّبخ وإحضار حاجيات البيت بنتيجة، مع أنّي كنت أشعر بمتعة التّجول في القرية الجميلة الصّغيرة التي تفصح عن مفاتنها بحريّة وتهب نسيمها لكلّ عليل فترد إليه صحته وعافيته. بعد كلّ رحلة كانت الست نسرين تتأفف من النّزهة قائلة لعاصم آغا: "يقطع عمر ها السّيران غبرة وعجقة وقلة واجب لو أنك اشتريت بيتاً في "صلنفة" أليس أفضل وأنظف؟ على الأقل صلنفة

مصيف الأكابر". ومصيف صلنفة لا يبعد عن سلمى سوى مسافة قليلة يقيسها العجائز بتدخين ثلاث سيجارات[1]، ويعيبون على النّاس تفضيلهم لها على سلمى فهم لا يرون الفارق "نقوطة الموي، وبصبوص الكهربا، والسكي"[2].. أمراً يستحق تفضيلها على قريتهم.

لكنّي كنت أرى سلمى مختلفة تماماً خاصة حين أتجوّل فيها بعيداً عن عيني الست نسرين، أتجوّل في المروج وبين الصخور الرمادية النظيفة، أصل إلى "شير القاق" وأعرّج على بستان وهيبة الخضراء، حين ترين بستانها تدركين معنى عبارة "يدها خضراء" فلديها كلّ شيء أخضر وهي ملكة "الحبق" بلا منازع. هناك تعرّضتُ لأوّل نظرة من شاب عابر عندما كنت أساعد الصّبايا بحمل الجرار من عين الماء، وهناك حفرت على جذع شجرة حور ضخمة اسم رشدي... هناك قرأت الصّفحات الأولى من ألف ليلة وليلة التي استعرتها من حياة، في سلمى عرفت معنى أن يخفق القلب ويطير الإنسان من غير جناح!

وفي سلمى تفتحت مخيلتي على أفق رحب من قصص الرعب التي اختلقتها حين كنت أسمع نباح الكلاب السلوقية المخيفة قادماً من خيام "القرباط" الذين كنت أخاف نظرات رجالهم الغريبة التي تسير الكلاب بأمرها. كنت أسمع صوت الطبل والربابة وأتسلّل بمخيلتي إلى حيث "الحجيات" بوجوههن المزيّنة بوشم أزرق،

---

(1) تبعد سلمى عن صلنفة 13 كيلو متر.

(2) إشارة إلى أنّ الماء تصل صلنفة في أنابيب، وفيها كهرباء، وطريف مسفلت.

والأرض ترج تحت ضربات أقدامهن، الراقصات لم يكنّ أكثر إثارة لمخيلتي من "البصّارات" وصناديقهن المكسوة بالمرايا وخواتمهن وأساورهن، جرّبت تبييض الفال مرّة في غفلة من الست نسرين، لم يصدمني ما سمعته من "البصّارة" فقد كنت أعلم أنّ حظي من الدّنيا قليل، وحظي من الحبّ لن يكون أفضل!".

في سلمى تختلف السّماء بنجومها عن اللاذقية، أشعر بها معلقة كقناديل فوق رأسي تماماً، كما أشعر باختلاف طعم الرّمان والتّفاح والتّين.. يكفيها أشجار الغار وحقول الحمّص الأخضر، حين تغيب الشّمس وتنسكب الأشعة البرتقالية فوق اللون الأخضر، وتسمع أجراس بعيدة تنبئ بعودة قطعان الغنم، وتنطفئ النّار في تنور جارتنا وتعبق رائحة الخبز الطازج، ومع الغروب تدخل الدجاجات الخن، ويخلد مجنون القرية الأليف إلى جدار دافئ من طين الأرض، يحضن رغيفه المحشو بالحلاوة الطحينية، وأحلامه التي لا يعرف أحد عنها شيئاً ويغفو.

تعلمين.. كم كنت أعشق طعامها الطازج من خضار الأرض! أذكر يوم وصولنا.. قطفنا الفاصولياء والباذنجان والفليفلة الخضراء والزعتر الأخضر والبصل والبقدونس وأوراق الدوالي، وصنعت لنا تبولة مطبوخة وقلت الباذنجان وطبخت الفاصولياء بالزيت.. كلّ شيء من الأرض مباشرة والبيت لم نحتج لشراء شيء من السّوق.. أمّا طعم التّبولة المطبوخة فأكاد أشعر به الآن في فمي". قلت: "اشتهيت عليها من حديثك يا جدتي علّميني كيف تطبخ وسأقوم بصنعها الآن". قالت وهي تتنهّد: "أهم شيء أوراق الدوالي الخضراء وهي غير موجودة الآن!". قلت: "نستعيض عنها

بورق مكبوس، سأنظفه من الملح وأسلقه جيداً لا هتمي". قالت: "حسناً ضعي قليلاً من زيت الزيتون على النّار وأضيفي البرغل، الكمية التي تريدينها وحمّصيه حتّى يصدر صوت طقطقة ويصبح لون الحبّات أبيض تقريباً ثمّ أضيفي له الماء بمقدار البرغل، وأضيفي ملعقة فلفل أسود وملعقة فليفلة حمراء حارة وملعقة نعنع يابس وحمض الليمون وملح حسب رغبتك وغطيه واتركيه على نار هادئة لينضج. وحضري البقدونس اغسليه وافرميه وافرمي معه البصل الأخضر أو اليابس إذا لم تجدي أخضر، والبندورة والخيار والخس والنعنع". قلت مازحة: "لكنّ أهل اللاذقية لا يضعون الخس والخيار للتبولة يا جدتي، يكتفون بالبقدونس والبصل الأخضر والبرغل الناعم والليمون ويزينوها بالبندورة المفرومة والخس ويأكلوها بورق الخس". ضحكت جدتي: "نعم، تلك التّبولة العادية، أمّا المطبوخة فهذه الطّريقة تعلّمتها من أم بشير الريحاوية رحمها الله، كانت تطبخها هكذا، وهي التي أدخلت هذه الأكلة إلى الحي.. وفي إحدى المرّات طبختها لنا ببرغل ناعم وفرمت البصل وفركته بالملح قبل قليه وأضافت له دبس الرمان وقالت إنّ هذه الطريقة تعلّمتها من أقارها في حلب ويسموها "إيج"[1] وتؤكل بورق العنب المسلوق.

حين تذوقتها.. قالت: "تحتاج لبعض الحمض والفليفلة يجب أن تكن حارة وحامضة جداً، لكنّها لذيذة، تسلم إيدك".

تنهّدت بعمق وكأنّها تنفض عن روحها ثقل تلك الذكريات وأضافت:

(1) ايج بتخفيف الجيم ولفظها أقرب إلى الشين.

كم كانت جميلة أيام البغال، السّيارة تُشعر الإنسان أنّه طير في قفص، لا يمكنه أن يطير إذا لم يَفتح له "الآخر" باب الحريّة!".

قلت: "يا جدتي الحريّة لا تمنح، بل تأخذ بالقوة".

طيلة السّهرة لم تتوقف جدتي عن سرد حكايات البلد وأهلها والزمن الماضي الجميل، حتّى بدأ النّعاس يغلبها...

...

فتح عينيه، حدّق بالبحر أمامه، همس لنفسه: "ماذا لو كان ذلك مجرد حكاية؟ ماذا لو كانت تلك الصبية مَن عدتُ لأجلها؟

ردّ عليه صوتٌ من أعماقه: "ذلك ممكن، لكن هناك وداد أخرى تنتظرك وهي التي يجب أن تفكّر فيها". قال بحرقة: "لكنّها تمتلك ذاكرتها وتفاصيل جسدها وروحها". قال صوته الآخر: "لكنّها لا تملك صوتها، بصمتها، حبّها لك.. لا تملك زمنها مهما تماهت به، وداد الأصل هي التي عاشت آلام بعدك، هي التي بحثت عنك، هي التي انتظرتك طيلة تلك السّنوات ورفضت أن تخرجك من قلبها، هي التي خرست؛ لأنّها لا تريد أن تكلّم سواك، هي التي انتظرتك على الشّاطئ أياماً من دون طعام ولا شراب وامتلكت اليقين أنّك ستعود، العبارة الوحيدة التي قالتها عندما أفاقت من الغيبوبة "هل جاء؟ أريد أن أراه" وبعدها دخلت عالم الصّمت الأبدي".

أراد أن ينسى الزمن، أن يبقى هنا بعيداً عن ماضيه مع وداد الصّبية إلى الأبد.. أراد أن يقول لها إنّها هي التي يمكنها أن تمنحه أمان النّهاية من دون كوابيس يظهر فيها رجل آخر يقف

بينهما حاجزاً من الأسلاك الشّائكة. لكن كيف يفعل وبينهما عمر عاشه بكلّ تفاصيله و لم تعشه بعد! عمر طويل من الحبّ والهجر والذكريات، عمر لم تكن وداد الصّبية قد أتت فيه إلى الدّنيا، وكانت جدتها تحتلّ الذاكرة والرّوح وتقيم في أشيائه حدّ تخيله أنّها موجودة في كلّ مدينة وبيت وركن يجلس فيه، رافقته في صحوه ونومه فلم يستطع أن يبقى مع امرأة غيرها سوى بضعة أشهر يشعر خلالها أنّه تورط بالجمع بين امرأتين إحداهما تملك روحه وعقله والثانية تشاركه جسده، وتتغلّب وداد دائماً على غريمتها فيجد نفسه وحيداً.. لم يكن وحيداً كان ممتلئاً بها إلى درجة صار يخشى أحلام اليقظة التي تهاجمه في كلّ وقت فيفاجأ بأنّه يتحدّث إلى نفسه حتّى أثناء وجوده بين آخرين.

حلّ المساء واكتظ المكان بالرواد.. الضجيج منعه من التركيز في أحلامه..

نهض مغادراً المقهى.. تأكد أنّ الحل الوحيد أن يرى وداد.. يجب أن يراها.. أوقف سيارة أجرة وقصد بيت صباح. كان البيت غارقاً في الظلام، دار حوله، تطلع إلى النّوافذ المغلقة.. طرق الباب مراراً.. لم يسمع صوتاً يدل على وجود أحد في الدّاخل.. اتكأ على السّور قليلاً.. تنهّد بعمق: "أين ذهبتا في مثل هذا الوقت؟".

* * *

سلمى /10 شباط /2015/

...

ليست يدها التي اقتلعتني من حلمي وجعلت جسدي ينتفض بل صوتٌ مبهم لم أستطع معرفة كنهه وأنا ما زلت غائصة ببقايـــا النعاس، أسعفتني كلماتها بمعرفة الصوت ومصدره: "قومي يا ستي قذائف الهاوون تسقط قريباً من البساتين جهة الشرق".

لماذا عليّ أن أستيقظ! لم أشأ الاعتراض فأنا أعرف أنّ ذلـــك يؤلم جدتي وتعتبره إهانة لها وقد يؤدي إلى امتناعها عـــن الكـــلام لأيام. حدث ذلك حين اعترضت على كميـــة الأغـــراض الـــتي اصطحبتها معها وخاصة صندوق عرســـها.. أو هكـــذا كنـــت أظنّه، أوضحت لي حين راضيتها واعتذرت منها أنّ هذا الصندوق هو كلّ حياتها وهو الماضي بكلّ جماله وقبحه، أحزانـــه وأفراحـــه ولحظاته الحميمة، ولا يمكنها التّخلي عنه أبداً، قالت وهي تجاهـــد لإقناعي: "هذا الصّندوق كان لسكينة خانم، صـــندوق عرســـها، أتعلمين كم عمره؟ إنّه من عمر الشّارع الذي ولدت فيـــه، مـــن عمر بيتنا، هو تاريخ الحي المصغر، وتـــاريخي الشّخصـــي.. هـــل تفهمين ماذا يعني لي؟". قلت لأنهي النّقاش فقط: "أفهم يا جـــدتي، حسناً خذي ما تريدين لن أعترض أبداً". عقّبت قائلـــة: "ثمّ لـــن تحمليه على كتفك، هناك حمّال وسيارة أليس كـــذلك؟". قلـــت باختصار: "نعم".

لم تترك يدها كتفي، هزّتني مرّة أخرى وهي تقول بالتزامن مع صوت إطلاق رصاص من أسلحة مختلفة: "في تقديرك يا ستي ماذا يحدث؟". قلت: "ليس الأمر مخيفاً يا جدتي دعيني أنام، الاشتباكات بعيدة، خارج سلمى بالتأكيد". قالت بحذر: "لكنّها آتية من جهة البساتين". قلت بضيق: "وكم تبعد البساتين عنا يا جدتي؟ لا تخافي، دعيني أنام". قالت بصوت خفيض: "أتسمحين لي بالنّوم هنا؟".

استقمت في السّرير، حدّقت فيها، لم أرَ سوى طفلة خائفة تريد اللجوء إلى حضن أمّها خوفاً من العتمة.. ابتسمت وقلت: "السّرير يتسع، نامي بجانبي إن أحببتِ".

لم تنتظر حتّى أكمل كلامي اندسّت بجانبي وأدارت لي ظهرها.. لم أستطع النّوم ليس بسبب أصوات الرصاص والقذائف التي باتت أكثف وأوضح بل بسبب أنفاسها التي شكّلت غيمة حول السّرير، وأغرقتني بحلم يقظة أشبه بكابوس، تصارعتُ فيه مع وحوش غامضة على شاطئ البحر ورأيتني وسط عاصفة شديدة أحاول جاهدة أن أحتفظ بثوبي كي لا تقتلعه الرّيح.. لا أدري إن كنت أنا تلك التي صرخت باسمه وهي تلمح شبح شخص قادم عبر العاصفة من فوق صخور الكورنيش الجنوبي.. "رشدي!". تملكنّي إحساس عميق بأنّي هي وداد جدتي التي تنام في سريري! لا أدري أيّة قوة خفية جعلتنا روحاً واحدة فرأيتني أعيش ذلك اليوم بتفاصيله...

تركتُ البيت ذلك اليوم ولم أخبر أحداً أين سأذهب، ربّما لأنّي لا أعرف يقيناً أين سأذهب! لم أستقبل المعزين مع حفيدتي، لم أبكِ، لم ألبس ثياب الحداد، كنت أحسّ أنّ ما يجري في ذلك العالم

لا يعنيني.. غادرت "الرمل الفلسطيني" ومشيت صوب الكورنيش الجنوبـــي، جلست على الصّخور القريبة من البحر، لم يكـــن في نيتي أن أبقى هنا، لكنّ شيئاً غامضاً دفعني للمبيت فوق الصّخور.. كان البحر هائجاً لكنّ وجهه غطّى المسافة المائية ما بين الصّـــخر والسّماء..

لا أعلم كم مضى عليّ وأنا هنـــا، لكنّـــي أشـــعر بـــالجوع والعطش، ولم أعد أعرف إلى أين أذهب! أكاد لا أذكر من أيـــن أتيت.. كلّ ما أذكره منظر البوارج الحربية تضرب مخيم الرمـــل الفلسطيني، كلّ ما أذكره أنّ وصال عادت إلى البيـــت والـــدّماء تغطيها.. أظنّ أنّي سمعت أحداً ما يقول إنّها استشهدت برصـــاص قناص في مظاهرة المخيّم.. يخيّل لي أحياناً أنّ وصال كانت تمـــزح معي، لا يمكن أن يكون ما رأيتـــه دمـــاءً، لا يمكـــن أن ترحـــل وتتركني.. لا شكّ أنّهم يكذبون عليّ!

ها هو قادم.. كنت على يقين أنّه سيعود.. لن يتركني وحيدة في هذا العالم.. رشدي..

حين صار قريباً اكتشفت أنّه لم يكن هو.. تأملته جيداً.. تقدّم مني وألقى التحية وسألني: "لماذا تجلسين هنا وحيدة يا وداد؟ منـــذ ثلاثة أيام وأنا أمرّ وأجدك هنا، عينـــاكِ شاخصـــتان إلى الأفـــق، وجسدك ثابت من دون حراك.. شككت حتّى أنّك ما تزالين حيّة!

قلت من دون أن ألتفت إليه: "أما زلت تكتب الشعر يا أبـــا عيطة؟" ابتسم وقال: "طلّقته من زمان، اكتشفت أنّه لا جـــدوى منه، لا جدوى من الوجود بأسره.. لماذا أنتِ هنا؟ ألن تعودي إلى البيت؟". قلت: "أيّ بيت؟ البيت بأهله والأهل راحوا..". قـــال

مستغرباً: "لكنّ وداد موجودة أنا رأيتها البارحة في السّوق".. التفتُّ إليه، حدّقت فيه طويلاً وسألته: "من وداد؟". قال: "حفيدتك؟". قلت: "حفيدتي أنا؟ منذ متى كان عندي حفيدة!". سمعته يهمس لنفسه "لا حول ولا قوة إلاّ بالله". قلت: "ما أخبار زقاق خان الحنطة؟". دهش مجاهد أفندي وقال: "ما زلتِ تذكرين! منذ متى لم أقف على مصطبة الباب الغربي للجامع الجديد خطيباً؟ منذ متى لم أتحدّث في السياسة.. لم يعد وعد بلفور ولا ثورة الجزائر ولا العدوان الثلاثي وحرب قناة السّويس أموراً يهتم أحد بسماع حديثي عنها..

كنت أريد أن أحكي عن اغتيال العقيد المالكي، عن اعتقال صلاح جديد وموته في سجن المزة عن مجازر حماة والجسر وحلب لكن من يجرؤ؟ منذ ذلك التّاريخ صمت أبو عيطة.. ونزل من فوق عرشه على مصطبة الجامع.. وصار يمشي على شاطئ البحر ببطء.. يراقب النّاس والموج والسّفن البعيدة ويحكي لنفسه تلك الحكايات المخيفة التي يخشى أن يسمعها أحد. صار يغني ومع هذا يخشى أن يسمع كلمات الأغاني أحد، كلّ شيء يخيفه فهو يرى عيونهم الذئبية في كلّ الوجوه، يقرأ الغدر والتّوحش والاستعداد الفطري للقتل فكيف لا يخاف!؟ من ترينه أمامك مجاهد أفندي الأخرس، لقد مات "أبو عيطة" داخلي وانتهى زمنه.

تركني ومشى صاعداً صوب الشّارع وهو يحوقل ويبسمل مستغرباً.. ربّما لأنّ هيئتنا المتشابهة كانت عصية على الفهم بالنّسبة له.. أنا بمعطفي الأسود من قماش الاستراكان موديل الأربعينات وشعري الأشعث المنفوش وعينيّ الغائرتين المذعورتين..

وهو بهيئته الرثة التي لم تتغير منذ عشرات السّنين، كم يوحد الخوف بين البشر!

كنت أسير خلفه على بعد خطوات، فقد هداني تفكيري إلى أنّه قد يذهب إلى مكان أستطيع تذكره أو يتذكّرني أحد ما حين يراني.. كان يغنّي تلك الأغنية اليتيمة التي لم تفارق شفتيه طيلة سنوات الخوف، تمهّل قليلاً عند السّور العالي الذي حجب البحر ووراءه تقبع البواخر والسّفن والصفقات المريبة.. وصل شارع يوسف العظمة، دخل التفريعة الرابعة.. توقف أمام بقايا سرايا عاصم آغا.. تطلّع إلى النّخلة الصّامدة؟ ضغط يديه المعقودتين خلف ظهره بعصبية.. كان يكلّم نفسه بصوت مسموع "لمن سأقول إنّ وداد هناك؟ أين تسكن حفيدتها يا ترى؟". جرّ جسده المتعب النّحيل وغادر الشّارع من دون أن يحظى ممن استوقفهم على معلومة تفيده، كان الجواب الغريب "والله لا أعرف.. أنا لا أسكن هنا". من أين جاء هؤلاء إذن ولماذا يمرون في الشّارع ما داموا ليسوا من سكّانه؟

دلفت السّرايا المهجورة، كان المكان مألوفاً بالنّسبة لي، جلست تحت النّخلة وأنا أرتعش، لم تمضِ دقائق حتّى بدأت أحس بدوار تلاشت الأشياء من حولي تدريجياً وفقدت إحساسي بالمكان..

حين أفقت كنت في المستشفى وحولي وجوه كثيرة لم أميّز منها سوى وجه مجاهد أفندي، الذي ابتسم لي من خلال دموعه وقال: "قلقت عليكِ يا صديقتي، لقد أرعبتني فكرة فقدك، فقد عدت في المساء وأنا أحمل في جيب سترتي بضع حبات من الفاكهة

وشطيرة جبنة في كيس من النايلون. هبطت في العتمة إلى الشّاطئ ولم أجدك فوق الصّخرة... صرت أسير جيئة وذهاباً، أصعد إلى الرصيف وأهبط صوب الصّخور وأناديك بأعلى صوتي.. من دون جدوى!

جلستُ فوق الصّخرة والدّموع تسيل من عيني.. أخافني خاطر سيطر عليّ لساعات، أيعقل أن تنتحري؟ خطر لي أن أعود إلى سرايا عاصم آغا، أن أطرق الأبواب المغلقة لعلّ أحداً يرد عليّ.. دخلت الحديقة المقفرة وقلبي يخفق بشدّة. اقتربت من شبّاك الغرفة القريبة من المدخل.. كانت فارغة تصفع جدرانها الرّيح وترشح منها الرطوبة ورائحة العفن الخانقة. تراجعت عن فكرة البحث واستدرت لأخرج، حينها لمحت شيئاً مكوّماً تحت النخلة! كنت تستلقين هناك وقد دخلتِ في غيبوبة لم تفلح محاولتي في إخراجك منها، ناديت الجيران.. فتحت نافذة في الطابق الثالث من البناء الذي حلّ مكان دار رقيّة، أطلت منه سيدة جميلة الوجه عرفت أنّها فاطمة. أومأت لها، فنزلت وطلبت الإسعاف، الحمد لله على سلامتك.

فجأة نهضت جدتي من السّرير وخرجت من الغرفة.. خلال دقائق عادت أنفاسي طبيعية، وغلبني النّعاس، ورحت أسقط في هوة النّوم وما زالت أصوات الرصاص تصلني من جهات مختلفة، فالاشتباكات لم تنتهِ بعد.

* * *

اللاذقية /2015/2/11/

...

في اللحظات الأولى للفجر رقّ النسيم، وأصبح بارداً، أيقظته لسعة خفيفة، حاول تدفئة نفسه بفرك ذراعيه وتحريك ساقيه، رفع ياقة القميص وتدثّر بجاكيته لكنّ ذلك لم يمنع البرد من الدخول إلى عظامه.. تدفق برد آخر من ذاكرته، بردٌ مرتبطٌ بآخر زيارة له للاذقية.. حين وصلته برقية تقول: "أمّك تريد أن تراك". العبارة التي تعني شيئاً محدداً "الموت". لم يجد أحداً حين وصوله! كان الحي غارقاً في العتمة والأبواب مغلقة على أسرارها و لم يكن لديه الجرأة ليطرق باب أحد من السكّان ليسأل، من يدري حينها ما سيكون وراءه! باب البيت المغلق يخبره كم تأخر! وهو يعرف أنّ الموت سبّاق دائماً وأنّه لن يحظى بالتفاتة أخيرة تلوّح فيها أمّه بيدها المعروقة النّحيلة وتبتسم عن أسنان لم يستطع الزمن أن يحتال على شكلها البديع وبياضها اللافت.

أدار ظهره للحي والرّيح تصفر بشدّة وتدفعه دفعاً باتّجاه الشّرق.

على زاوية الشّارع كان بائع الفول يتدثر بغطاء سميك يشبه عباءة الرعاة واللهب يتصاعد من القِدر، لم يشأ أن يقترب مع أنّ معدته تقلّصت بشدّة وهو يشمُّ رائحة الكمون بالليمون.. قبل أن يقطع المسافة إلى التّفريعة الأولى وصله صوت بائع فستق العبيد "سخن يا عبيد سخن". منذ خمسين عاماً كان يقف في هذه الزاوية

بعربته البسيطة وكيس الخيش فوق فستقه السّاخن، مد يده ليخـــرج القروش اللامعة، فلم يجد في جيبه قطع النقود المعهودة! أخرج قطعة نقدية أجنبية للحظات استغرب من أين أتت لكنّه أعطاهـــا للبـــائع العجوز مقابل "بوري" ورق مليء بالفستق السّاخن.

دس قمع الورق في جيبه واتّجه جنوباً.. توقف عند مبنى السّرايا العتيقة، نظر إلى السّاعة كانت تشير إلى الواحدة والنّصـــف.. هـــل تخدعه؟ يدرك جيداً أنّه وصل بعد ساعة من آذان المغرب! لكنّـــه لا يعرف أنّ السّاعة توقفت عن العمل منذ سنوات.. هز كتفيـــه بـــلا مبالاة وكأنّ كلّ شيء لا يعنيه هنا، ليس فقط بسبب التغييرات التي طالت السّرايا من إزالة القرميد واحتلال الألمنيوم للنوافذ بدل الخشب العتيق بل لأنّ كلّ شيء يفتقد الرائحة التي تحتلُّ ذاكرته...

رائحة الخبز السّاخن، وعرائس الزعتر، ومشمّع الياقة البـــاردة يلسع عنقه، وتفاصيل صغيرة تهجم بشراسة على قلبه فيكـــاد ينكـــر وجوده والزمن الذي مرّ به بهذه السّرعة...

الأصوات تخترق أذنيه، أصواتهم المرحة التي تحمـــل مـــؤامراتهم الصّغيرة البريئة واتفاقهم حول رحلة ما واختلافهم حـــول قضـــية.. أصواتهم وأصوات الموسيقا النحاسية تخرج مـــن هنـــا مـــن البـــاب الخشبـــي الذي يحمل أعلاه لوحة كتب عليهـــا "بيـــت الكشـــاف الأهلي"... تكاد أصواتهم تكون حقيقة، يسمعها بوضوح، يســـمع مزاح وليد السمج وهو يصيح: "علم السوري كسر البوري قال لهـــا لمرته روحي دوري".

عند بناء شركة المرفأ تشتدّ الرّيح محمّلة بحبات المطر الكبيرة، لا يعرف إن كانت الرّيح قد جعلته يسير باتّجاه اليسار صوب "الكنيسة

المُعلّقة"[1] أم حنينه إلى حي الصليبة حيث كان يجتمع مع أصدقاء الدّراسة في ساحة العيد، تصله أصواتهم يصيحون وراء صاحب الأرجوحة "يا ولاد الحارة، يويو، طعموني قطيفة، يويو، قطيفة مين؟ يويو، حج إسماعيل، يويو" ترنّم بصوت خفيض بالأغنية وهو يبحث في داخله عن السّبب الخفي لقدومه إلى حي الصليبة، أهو حكايته مع وداد التي لن تنتهي إلاّ بموته!

تهاجمه الرّوائح النفّاذة للمأكولات الخاصة التي تندفع من عمق الذاكرة والمكان.. فتختلط الرّائحة الحريفة للمقانق برائحة القطائف والعوامة والكنافة.. فيسرع الخطا لترتطم ساقاه وتتعثر خطواته، وتلف الرّوائح والرّيح جسده بفيض البرد والذكريات.

حين انعطف يساراً في الزقاق الضيّق بين "الصْلَيْبة" وحارة "الشحيدين" كانت عيناه تطيران بحثاً عن القناطر التي تعلوها النّوافذ والمشربيات وعن العيون المختبئة خلفها تراقب الشّارع، وعن الأقواس الحجرية المنفتحة على فسحة تغص جوانبها بأشجار الليمون واللوز، وفي زواياها تنكات تحولت بمهارة النّساء إلى أصص جميلة للفل والياسمين البحري[2] والفتنة؟ أين كلّ ذلك؟ لا يكاد يرى سوى زقاق ضيّق يضغط على أنفاسه فيحسّ بالاختناق وكأنّ بقايا البيوت المهدّمة التي لم تقم البلدية بإزالتها، والأبنية المتطاولة صوب السّماء صانعة هوية جديدة للمكان تتآمر عليه وتطرده خارج حدودها الموحشة.

---

(1) الكنيسة المعلّقة اسم يطلقه أهل اللاذقية على ما يعرف "بقوس النصر" أو بوابة اللاذقية.

(2) التسمية المحلية للزنبق الأبيض.

أصبح حي القلعة على يمينه، توقف قليلاً ليس له أن يختار هناك ما يدفعه للصعود صوب القلعة. كان هذه المرّة بحاجة لمساندة الـــرّيح التي خذلته وهدأت فجأة!

لم يكن من السّهل صعود درجات جامع المُغْرَبـــي فقد أوهـــن الزمن العظام.. الدرجة الأخيرة خلّصته من زفير طويل أعقبه ضربات سريعة للقلب تزامنت مع صوت المؤذن يرفع آذان العشاء.

لجأ إلى الجامع.. كانت المرّة الأولى التي يـــدخل فيهـــا جـــامع المُغربـــي لصلاة العشاء، أحسّ بروح نوريّة تحوم في المكان، كـــان على يقين أنّه سمع صوتها وهو يسجد وحين رفع كفيه بالدّعاء وهـــو مغمض العينين لمح طيفها تبتسم وكفّها المغطى بشاش أبيض يربـــت رأسه، وهمست: "لو أنّي عرفت أنّك ستخذلني هكذا وتتركني أموت وحيدة كنت ذهبت إليها بنفسي".

تنهّد وهو ينهض ويزيل الرمال العالقة بثيابه، همس بحســـرة: "ليتك فعلتِ يا أمّي، كم كانت أقدارنا ستختلف!".

* * *

سلمى

/2015/2/12

اشتداد القصف على سلمى والاشتباكات المستمرة لم تترك لنا خياراً، لم تعد جدتي تحتمل كانت تلجأ إلى الحمّام حين تسمع أصوات الرصاص، وتختبئ خلف أيّ شيء حين تقع قذيفة في مكان ما. أصرّت أن نغادر المدينة، قلت لها "لماذا لا نذهب إلى أريحا عند صديقتك حياة؟". رفضت الفكرة وقالت إنّ أريحا أيضاً تتعرّض للقصف اليومي، وهي لا تريد العيش وسط الرعب. لم نكن نستطيع العودة إلى اللاذقية فقد سيطر النّظام على جب الأحمر، وعرافيت، وجبل الكتف المطل على بلدة السرمانية في سهل الغاب. استعادة تلال جب الأحمر والشّريط الجبلي الشّرقي لجبل الأكراد المحاذي لسهل الغاب من الجهة الغربية له أهمية كبيرة في رصد مساحات واسعة من المناطق المحرّرة في السّهل، ومنع أيّ تقدم للثوار باتجاه جورين.. لم يكن ذلك وحده ما يخيفني بل قناصة النّظام أيضاً واحتمال سيطرته على قرية الكبينة والسلسلة الجبلية المؤدية إلى بلدة كنسبا مركز جبل الأكراد فذلك معناه قطع الأوتوستراد الدولي وشل حركة الثوار في كامل ريف اللاذقية.

منذ أيام فتح النّظام جبهة ثانية لتشتيت الثوار، وبدأ عملياته العسكرية من قرية "غمام" وتقدّم شرقاً إلى جبل دورين لحماية مراصده في تلا وكفرية.

حين علمت جدتي أنّ قوات النّظام أصبحت على بعد كيلـــو متر واحد منّا شهقت بقوة وخارت قواها واستبسلت في إقنـــاعي لنغادر سلمى: "الله يرضى عليكِ يا ستي، شوفي الثـــوار يأخـــذون عائلاتهم بعيداً عن المدينة ونحن ما الذي يبقينا هنا؟".

قلت في محاولة لتهدئتها: "لن نبقى طويلاً يا جدتي ســـنعود إلى اللاذقية، فقط لننتظر ريثما يتحسن الوضع قليلاً". قالـــت هازئـــة: "متى؟ عندما يسيطر النّظام على برج القصب؟". لم أكـــن أعلـــم أنّ جدتي تتابع الأخبار بهذه الدقة وتعرف كلّ صغيرة وكبيرة عن المعارك الدّائرة حول سلمى، وكان يجب أن أدرك ذلك مباشرة فهي لا تعمل شيئاً طيلة اليوم سوى رؤية قنوات التلفزيون، والاختلاء بصـــندوقها الخاص.. أعلم أنّها تختلي بصندوقها حين تغلق باب غرفتـــها.. بـــاقي الأوقات يبقى الباب مفتوحاً والشبابيك أيضاً على الرغم من الـــبرد وحين أنبّهها أنّها ستمرض، تقول لي: البيت دافئ، مـــدفأة الحطـــب تشعرني بالاختناق لا أستطيع احتمال كلّ هذه الحرارة".

أضافت بصوت خفيض: "أخشى أن يسيطروا حقّـــا علـــى البرج حينها سيكون طريق الأوتوستراد مكشوفاً لهم وسيشـــرفون على خطوط إمداد الثوار وصولاً إلى ريف إدلب".

التفت إليّ: "سنغادر إلى ريف إدلب، سنذهب إلى ســـرمدا، عندي صديقة هناك، نبقى عندها عدّة أيام ثمّ نغادر إلى تركيا".

تركيا! في البدء شعرت بالصّدمة، لكنّ الحلّ الذي اقترحتـــه جدتي أشعرني بالارتياح فالذهاب إلى تركيا يعني أن تكون بعيدة ما أمكن عن رشدي وعن الأماكن المشتعلة بالموت. على الرغم مـــن أنّها لم تذكره مرّة واحدة منذ قدومنا إلى سلمى، وأنـــا أيضـــاً لم

أخبرها أنّه كتب لي رسالة على بريدي الخاص في الفيس بوك يعاتبني فيها على سفري من دون وداع!

فوجئت بها بعد ساعات وقد أحضرت حقيبتين كبيرتين وصندوقها.. قالت: "أنا جاهزة بإمكانك أن تطلبي سيارة خاصة توصلنا". قلت بلهجة احتجاج: "يا جدتي لا نستطيع حمل كلّ هذه الأشياء، تكفي الحقائب واتركي الصندوق". أعادت على مسامعي الأسطوانة ذاتها، لم أستمع إليها، قلت: "نحن سنذهب في رحلة طويلة هذه المرة وقد لا نستطيع حمل كلّ هذه الأشياء أثناء العبور إلى تركيا، المسافات التي سنمشيها طويلة يا جدتي، ما رأيك أن تختاري من الصّندوق الأشياء المهمة وتتركي الباقي لحين عودتنا. لن نبقى طيلة عمرنا في تركيا". رفعت حاجبيها استنكاراً وقالت: "من يدري، ربّما لن نعود" ونزلت من عينها دمعة أخرستني فوافقت على حمل الأغراض كلّها إلى السّيارة!

* * *

ترددت كثيراً في الكتابة إليه، لكنّي حسمت أمري وأخبرته أنّنا سنسافر إلى تركيا وريثما نصل لن يكون بإمكاني التّواصل معه فربما لن أجد شبكة أنترنت في الأماكن التي سأتواجد فيها ريثما نستقرّ في بلد النّزوح.

الغريب أنّه كتب لي رسالة مطولة وضعتني في حيرة وأربكتني، لم أعرف لمن وجّه رسالته لي أم لها؟

(تذكرين؟ كان قلبي يرتعش وأنا أناولك حزمة الحمّص الأخضر المشوي.. وأنت تتراجعين خطوتين إلى الوراء بذعر.. يومها

مدّت سهام يدها وأخذت الحزمة، وتناولت حياة بخجل عرانيس الذرة المشوية.. وبقي قلبي معلّقاً عند خطواتك المرتبكة وأنت تتابعين سيرك على الكورنيش صوب مقهى العصافيري.. على طاولة في حضن البحر جلستن، واتّخذتُ مقعداً بعيداً يتيح لي مراقبتك.. لكنّ سهام نهضت فجأة وتبادلتما أماكن الجلوس.. رمقتني وهي تبتسم.. والتفتت عفراء نحوي في حركة توحي بأنكن تتحدّثن عني..

خرجتُ من المقهى وأنا أتعثر بظلّي، تراكِ حتّى تلك اللحظة لم تفهمي أنّ كلّ ما أفعله لأجل أن أبقى قريباً منك، ولتفهمي أنّي أحبّك أنتِ!

لماذا تهربين مني؟ لا أحد يستطيع أن يهرب من قدره، فالحبّ كالموت قُدِّر علينا ولا مفرّ منه، لماذا لم تنتظري بضع ساعات؟ هل كتب عليّ أن أصل متأخراً دائماً فلا أجدك في انتظاري!

في الماضي هربتِ مني يوم عرس سميرة، لم تتوقفي لأصل إليكِ، اليوم غادرتِ بيتك قبل وصولي.. وداد، لماذا تفعلين بي ذلك؟

أكاد أمتلك اليقين أنّ السّبب في هربك عدم رغبتك في مواجهتي بحقيقة مرّة، حقيقة الفرق بين الزمن الذي تعيشينه، والزمن الذي غادرني وتركني على حافة الموت..

أدرك أنّي لا أملك ما أعطيك إياه على الرغم من اشتعال داخلي بجمر حبّك وكأنّ العمر عاد بي إلى أوّل الشّباب، فهل أستطيع تعويضك عن وجودي بثروتي؟ ما زال العمر أمامك بينما لم يتبقَ لي الكثير. اذكريني بالخير، ووصيتي أن تشتري لي الزنبق الأبيض وتضعيه في زورق صغير وتسلميه للبحر حين يصلك خبر رحيلي.. تأكدي أنّ الزنبق سيجد طريقه إليّ أينما كنت في عالم الغيب. لا

تنسي، أريدك أن تتركي منه بضع زهرات، ضميها في قوس أسود، وضعيها على شعرك في المساء.. وابقي قرب النّافذة.. ستصلك أغنيتنا..

أتسمعينها؟ إنّها آتية من شبّاك أمّي.. أنا هناك وراء السّتارة.. أدرك أنّك تتوارين خلف نافذة سكينة خانم وتسمعينها معي..

قريب وبعيد وبقينا نقول ونعيد بعيننا،
بقى يقول لي وأنا أقول له...
وخلّصنااااا الكلام كلّه...

* * *

في سرمدا كانت الأمور مستقرة نسبياً، كلّ ما في الحي الذي تقطن فيه صديقة جدتي "كفاية" آخر عنقود بنات رفيق زادة باشا، يوحي إليك أنّك خارج التّاريخ، تاريخ الحرب السّورية المشتعلة في المدن الثائرة، وتاريخ التّغيير الذي طال معظم المدن السّورية منذ ثمانينات القرن الماضي. يقع الحي على أطراف المدينة، بيوته من طابق واحد، ملحق بمعظمها أمكنة لمبيت الحيوانات "أبقار وأغنام ودجاج". علّقت صديقة جدتي على استغرابي بقولها: "أنتِ في المدن المنسية، هذا لقب محافظة إدلب، وسرمدا أكثر هذه المدن تخلفاً". قلت لأخفّف من وقع كلماتها على نفسي: "لا أعتقد أنّ أهلها من رأيكِ". قالت ضاحكة: "بل هم يتندرون على أنفسهم كما يفعل الحماصنة ويحكون حكايات يسخرون فيها من أنفسهم أيضاً".

صديقة جدتي كانت امرأة بسيطة تشبه فلاحات المنطقة كثيراً بلباسها وحديثها وبساطة بيتها المفروش ببضع طراحات وحصير

عتيقة وسرير وضع عليه فراش بسيط من الصّوف ووسادة طويلة لم يعد أحد يستخدمها في هذه الأيام! دخلت المطبخ لتحضّر لنـــا طعام الغداء فتبعتها لأساعدها..

مطبخها يحوي على غسالة عادية ومجلى وبابور كاز، انتبهتْ إلى نظرة الدهشة في عيني وقالت إنّها تستعين به في القلي ومعظـــم الطبخ لارتفاع ثمن جرة الغاز وندرة وجودها أحياناً.. حتّى أدوات المطبخ كانت قليلة وأرضيته من الاسمنت..

رفعت الغطاء عن آنية فخارية كبيرة كانت قد صفّت فيهـــا قطع الكشك اليابس، التفتت إليّ قائلة: "لا أشـــك أنّـــك تحـــبين الكشك وإلاّ لن تكوني حفيدة وداد.. جدتك كانـــت بارعـــة في طبخه، صحيح هو أطيب باللبن الطازج، لكن طعم "دوبيركـــة[1]" خالتك كفاية لا يعلى عليه، ستذوقينه وتقولين لي مـــا أشـــهاه". أعقب كلامها ابتسامة عريضة، فقلت بتلقائية: "نســـاء اللاذقيـــة كلّهن بارعات في طبخ الكشك فهي أكلة شعبية". عاتبتني كفايـــة بنظرة عابرة ونادت جدتي قائلة: "تعالي يا وداد، يبدو أنّ حفيدتك لا تثق بقدراتك الخارقة في الطبخ". ضحكت جدتي وهي تسحب كرسياً صغيراً وتجلس عليه، وعلّقت قائلة: "حفيدتي بحكم العـــادة تأكل طعامي باستمرار ولم تتناول غيره لتتاح لها فرصـــة المقارنـــة والتّفضيل اليوم ستفعل ذلك، بعدين أنت نَفَسَك طيّب في الأكـــل مع أنّك لا تستخدمين المقادير من زمان تسكبين اللبن فوق البرغل

---

(1) يضاف الملح إلى اللبن ويحرّك على النار مدة طويلة حتّى يصبح قوامـــه كاللبنة، يحفظ بآنية زجاجية ويختم بالزيت، ويرفع ليستخدم في الشـــتاء للطبخات التي تحتاج اللبن مثل "الشيش برك".

من دون معيار ويخرج من بين يديك لذيذاً، أنا لم أطبخه يوماً من دون مكيال وأحافظ على النسب بدقة، كلّ كيلو برغل مقابله خمسة كيلو لبن هكذا علّمتني رقيّة رحمها الله". ضحكت كفاية وقالت: "سبحان الله على النّصيب منذ ثلاثة أيام اتّصل ابني وقال إنّه سيأتي من دمشق في إجازة وطلب مني أن أحضّر له الكشك وأطبخ رشتا إلى جانبها وأيضاً حلاوة "أم عبيد" فنقعت البرغل باللبن وخمّرته يوماً كاملاً، وقطّعته وجفّفته، وصار جاهزاً للاستخدام، اليوم اتّصل وقال لي إنّه لن يستطيع المجيء.. لا أحد يأكل سوى نصيبه! منذ الصّباح الباكر جهّزت العجين لعمل الرشتا، وقطّعت الخبز وقليت البصل والثّوم من أجل الكشك، وحين اتّصل كدت أختنق ماذا سأفعل بهذا الطّعام؟ وقرّرت أن أطبخه وأوزعه على الجيران". قالت جدتي: "لا بأس هاتي العجين لأرقّه وأقطّعه". ناولتْ كفاية "لجن[1]" العجين لجدتي، وأحضرت لها طاولة خشبية صغيرة وضعتها أمامها ورشّت فوقها الطحين وناولتها الشوبك.. لم أرَ جدتي بهذه الهمة والنّشاط من قبل، كانت يداها تتحرّكان فوق قرص العجين ببراعة، ترقه وتدرجه وتقطعه بالسّكين وترميه فوق قطعة الشّاش المفروشة فوق طبق القش. في مدّة قصيرة أنهت عملها وكانت كفاية أثناء ذلك قد أنهت فرم البصل وتشويحه على النّار وسلق العدس وسقّطت العجين المقطّع على شكل شرائح رفيعة وطويلة في الطنجرة ووضعت معه حبات بصل كاملة قشّرتها ونظفتها بالماء، والتفتت إليّ: "جدتك تحبّ

---

(1) لجن: طشت، تلفظ الجيم مفخمة "مصرية"، في الماضي كانت تستخدم "الغضارة" الفخار لعملية مرس البرغل.

البصل في الرشتا بهذه الطريقة، في العادة نكتفي بالبصـــل المقطـــع جوانح والمشوّح بالزيت، لكن جدتنا رقيّة رحمها الله كانت تعشق البصل تأكله نيئاً ومشوياً ومسلوقاً وتحاول وضعه في كلّ طبخـــة وقد أخذت جدتك عنها هذه العادة.

ابتسمت جدتي وتنهدت، وقالت: "تذكرين يا كفاية آخر مرّة طبخت لنا جدتي رقيّة رشتا؟ كانت قبل وفاها بأشهر، كنّا مجتمعين عندها، وكانت أم محمّد رحمها الله وأم بشـــير وأم عبـــد الله وأم عائشة، وماري، كلّ نساء الحي كنّ هناك.. يومها قالـــت إنّهـــا ستطبخ "حسنة" عن روح الأموات جميعاً.. أذكر بعد أن انتهينا من توزيع الطّعام على البيوت، ووضعنا "السّفرة"[1] وجلسنا لنأكـــل، حملت أم بشير صحنها وجلست على المصطبة تحت الرمانة وبعـــد أن أكلت لقمتين رفعت رأسها عن الصّحن وقالت: "تعلمين يا أم مصطفى؟ أهل حلب يسمون هذه الطّبخـــة "ســـيقان الميتـــة".. ضحكت بعض النّسوة وكالت لها أم محمّد شتيمة كبيرة، وهضت نوال إلى المطبخ وتقيّأت.. وقتها تركت النّساء الطّعام ونسين كلّ شيء وسيطرت عليهن فرحة لم تستمر حين خيّبت الداية نيازيـــة ظنّهن وقالت إنّ نوال ليست حاملاً كما هيّأ لهنّ.. كم كنت أتمنّى يومها لو أنّ الله منّ عليها بولد.. لكن له حكمة لا نـــدركها مـــن وراء ذلك". تنهّدت كفاية وقالت: "أي نعم.. حكمـــة ربـــك لا يدركها أحد". استدارت صوبـــي وقالت: "هاتي ما تبقـــى مـــن البصل والثّوم لنزيّن به طبق الكشك".

(1) السفرة: المائدة.

عند المساء، بدأت روائح الحيوانات تزكم أنفي قادمة من زرائب البيوت القريبة مصحوبة بأصوات النّهيق والصّياح والخوار والثّغاء.. كان واضحاً على وجهي أنّي متضايقة، لكنّي خجلت من الانسحاب إلى الدّاخل، فليس من اللائق أن أدّعي النّعاس والمساء في أوّله.

خيّمت العتمة ونحن جالسون في شرفة اسمنتية تطلّ على حديقة مليئة بأشجار الزّيتون وفيها دالية عنب وشجيرات ورد قصيرة القامة من الواضح أن أحداً لا يعتني بها.. قلت: "يبدو أنّه ليس لديك الوقت للعناية بالورد". قالت: "ليس لديّ الماء الكافي، كما ترين الكهرباء والماء تنقطعان بانتظام، لدينا ساعات محددة فقط في الليل عندما تأتي الكهرباء نقوم بكلّ أعمال المنزل، ونكتفي بالأساسيات".

لم تمكث النّسوة اللواتي جئن للسلام علينا طويلاً، حين أذّن العشاء انسحبن إلى بيوتهن ليقمن بأعمال المنزل، فقد أنارت الكهرباء الحي في تلك السّاعة... وغرقت جدتي مع صديقتها في حديث الذكريات، تنهدت الاثنتان وهما تتذكران الصّديقات والحي ونسائه وأيام زمان.. عندها رأيت "كفاية" أخرى خرجت من عباءة المرأة البسيطة التي تجلس أمامي، وشاهدت ابنة رفيق باشا التي ولدت وعاشت صباها في حي الشّيخ ضاهر في اللاذقية وتحديداً في شارع يوسف العظمة على زاوية التّفريعة الرّابعة.

في البداية لم أتدخل في الحديث ولم أنتبه لتلك التفاصيل التي تتحدّث عنها الصّديقتان، لكن حين قالت جدتي لصديقتها: "تعلمين يا كفاية، كنت أتمّنى لو نشرت كتابي عن شارعنا

وحياتنا". استنفرت حواسي كلّها وأنصتُّ جيداً.. قالت كفايـــة: "هل أنهيت كتابته؟ كنت أظنّك أقلعت عن الفكرة، حين رأيتـــك آخر مرّة في بيت جدتنا رقية قلت لي إنّك غير راضية عما كتبتـــه وإنّك لا تفكرين في إكماله". قالت جدتي: "بل أنهيته، لكن مسألة الرضا فيها وجهة نظر، وتحتاج لقارئ محايد يقول لي رأيه في العمل قبل أن أدفع به إلى دار نشر". قلت بحماس مفاجئ: "مـــا رأيـــك يا جدتي أن أكون القارئ المحايد؟".

مع عودة العتمة مرّة أخرى في منتصف الليل لا يبقى أمـــام المرء سوى النّوم بعد أن ينتهي شحن الكمبيوتر المحمـــول.. لكـــنّ النّوم استعصى عليّ، الفراش القاسي، والوســـادة القطنيـــة الـــتي عاركت الزمن وأخذت كلّ تعرجاته لم يســـمحا لي بالاســـتلقاء المريح، نهضت بحذر لص، تحسستُ طريقي بمساعدة نور خفيـــف من ضوء القمر تسرّب عبر حديد النّافـــذة، فتحـــت الصّـــندوق وأخرجت المخطوط الذي عنونته جدتي بـــ "الشارع 24 شمـــالاً/ رواية/.

ليس من السّهل القراءة على ضوء شحيح لشمعة لا تكفـــي سوى ساعتين، لكنّي كنت قلقة ومتحمسة للقراءة.. العنوان لافت فتح لي شهيتي في البداية.. وصرت أسابق الوقت كـــي لا تنـــهي الشّمعة مشوار القراءة وتتركني للظلام.

* * *

الفصل الأول

الماء اليبس

عندما تكون نازلاً صوب البحر من مدخل اللاذقية الشّرقي وبعد السّاحة، ستجد تفرعات لشارع يوسف العظمة على اليسار.. ستتجاوز التفريعات الثلاث الأولى، وتدخل في الرابعة لتصبح داخل الحكاية.. وستنتبه إلى أول بيت يقع على يسارك، بعد فسحة ترابية تشكّل مقسماً لم يضع فيه صاحبه حجر الأساس بعد.. وعلى جداره لوحة صغيرة تحمل اسم الشّارع "4 شمالاً" امتدّت يد أحد أطفال الحي لتضيف بالطباشير رقم اثنين وراء الأربعة ليصبح الرقم 24 شمالاً!

بيوت الحي على اليمين أعلى من الشارع قليلاً، بينما بيوته على اليسار أخفض من الشّارع بحكم انحدار الشّارع الرئيس صوب البحر.

وكما ينحدر الشّارع نزولاً، تتوزّع العائلات فيه بالتدرج من أوله حتّى آخره وهو أمر مثير للاستغراب مع أنّي على يقين أنّه مجرد مصادفة أن تكون العائلات الأقل شأناً في أسفله، والأرفع في أوله. على اليسار بيت نورية يليه بيت رقيّة ثمّ بيت منيفة ثمّ بيت ماري بعده بيت أم جميل الخبّازة بعده دار بشيرة.. على اليمين بيت أم محمد، ثمّ بيت أم عبد الله، فبيت عاصم آغا، ثمّ بيت أم عيشة

التركمانية، بعده القنطرة والفسحة التّرابية المخيفة حيث تربض شجرة الجميز الضّخمة.

من أوّل بيت على اليسار "بيت أم رشدي" تبدأ الحكاية.. حكاية تتشابك مع حكاية ثالث بيت على اليمين بيت "عاصم آغا". تتداخل حكايته مع حكاية البيت الثاني على اليسار بيت جدة الحي رقيّة الذي تفصله عن البيت الأوّل جنينة بيت كرّوم المزروعة بأشجار الليمون والبرتقال ويرعى فيها ماعز يملكه "أبو رشدي".

لم يعرف سكّان الحي سيدة أكبر من رقيّة، وقيل إنّها أوّل من سكن هنا أواخر القرن التاسع عشر عندما كانت اللاذقية داخل السّور وكانت السّاحة "ساحة الشّيخ ضاهر" ساحة ترابية خارج السّور تباع فيها الخيول والحيوانات الأخرى في وقت محدد من الأسبوع والجزء الآخر من السّاحة كان مقبرة لسكّان البلد.. لم يكن بيتها في ذلك الوقت من العشوائيات، فقد احتفظ بجماله حتّى الثمانينات من القرن الماضي قبل هدمه. وعلى الرغم من وجود مبانٍ أكثر جمالاً وفخامة تفرّقت في مطلع القرن العشرين خارج السّور وقبل نشوء السّاحة بقليل وأجملها منزل آل العجّان "فندق الشّرق حالياً" إلاّ أنّ بيتها كان عقدة الحي الواقع في مركز المدينة، وملتقى سيدات الحي في المساءات الدافئة والباردة على حدٍّ سواء.

عُرف الحي بكثرة البنات، الوحيدة "نورية -أم رشدي صاحبة أوّل بيت على اليسار" لم تنجب بنتاً! ما تبقى من نساء الحي معظمهن لم يرزقن بولد ذكر.

على الشّارع الرئيس وقبل أن تنعطف لتدخل حيّنا تربّع بيت شرفته على الطراز الفرنسي، بيت "رفيق زادة باشا". حين اشترى

رفيق باشا البيت القديم، لم تكن هناك حديقة خلفية جميلة بل كانت زريبة للأغنام.. وقد شاع في اللاذقية وقتها أنّ الأرض تحوي كنزاً وجده رفيق باشا أثناء الحفر ومنه صار غنياً. ولدت زوجته ثمانية بنات وهي تنتظر في كلّ مرّة الصبي الذي لم يأتِ.. أكبرهن سهيلة وأصغرهن كفاية. بالإضافة إلى بناته سكنت معه شقيقته العزباء التي ظلّت طيلة حياتها تودّع أفراد الأسرة واحداً بعد الآخر لتبقى وحيدة تحرس جدران البيت وذكريات الماضي وأنفاس من رحلوا.

في منتصف الأربعينات كنتُ وفتيات الحي ندرس في مدرسة "فاطمة الزهراء" مدرسة البنات الوحيدة في اللاذقية (ابتدائي وإعدادي وثانوي) وكلّ سنتين يفتح فيها صف لتخريج المعلمات.

تقع المدرسة في آخر شارع القوتلي الذي يتفرّع عنه شارع صغير إن اتجهنا فيه شمالاً نذهب إلى "العوينة" وإن اتجهنا جنوباً نذهب إلى "الصلْيبة". كنّا نطيل الطريق لنعبر إلى "العوينة" حيث بيت سهام.. أمّا أيام العطل -وخاصة في الربيع- نذهب إلى القلعة حيث بساتين الخس عند دوار "هارون".. ونصعد التلة إلى دار صديقتنا وسيلة التي تتربع وسط حديقة جميلة.

فتيات الابتدائي كنّ يرتدين صدرية لونها "بيج" وبنات الإعدادي والثانوي يرتدين اللون الأبيض.. صدريتنا تصل حتّى الركبة ضيقة عند الخصر واسعة قليلاً تحته ونضع كمراً نشدّه على الخصر فنبدو كأنّنا خرجنا من بيت واحد لا يميّز الفقيرة من الغنية سوى "الياقة" التي نلبسها حول أعناقنا، والتي غالباً ما تكون من البلاستك الأبيض الذي يلسع في الأيام الباردة والتي تحرص أمهاتنا

على استبدالها بواحدة من القماش الأبيض المنشّى المطرّز بدانتيل، كما يحرصن على تميّز بناتهن بنوع الحذاء والجراب الطويل تحت الصدرية.

كنّا نتقاسم الأحلام والطّعام والأسرار الصغيرة البريئة. وكانت أمهاتنا يصغن الحلم على شكلنا ويأملن أن نعيش حياة تختلف عن حياتهن.

في كلّ صباح تنتعش البيوت بحركة دؤوبة نشطة، نتراكض لتمشيط شعرنا وارتداء ملابسنا وتوضيب حقائبنا قبل الانطلاق إلى الشّارع ونحن نتقافز كفراشات ربيعية ملونة يُضيئهن الأمل بمستقبل أجمل يستطعن فيه تحقيق أحلامهن الصّغيرة والمحافظة على أسرارهن البريئة ومؤامراتهن الخاصة بعيداً عن أعين الأمهات. أنا وحياة كنّا نعشق المقالب البريئة والمؤامرات الصّغيرة.. أوّل مؤامرة اشتركت فيها مع حياة فشلت فشلاً ذريعاً!

لم توافق هاجر على أن تأخذ حياة رغيف الخبز من دون أن تدهنه لها باللبنة وتضع فيه أعواد النعنع الأخضر.. ولم تستطع هي أن تخطف رغيفاً وتخفيه بحقيبتها كما اتفقنا.

طفرت الدّموع من عينيها وهي تعبر عتبة باب الدار، نادتها هاجر بصوت عال جعلها تتجمّد مكانها، ما الخطأ الذي ارتكبته؟ هل تقرأ أمّها أفكارها؟ كانت تملك اليقين بأنّ أمّها تمتلك مقدرة على معرفة كلّ شيء يخصّها وإن حاولت إخفاءه. توقفت من دون أن تلتفت، قالت هاجر بنبرة أقل حدّة: "لماذا لم تنظفي أسنانك قبل أن تخرجي؟" خفق قلبها بقوة، كيف عرفت أمّها؟ لم يخطر ببالها أنّ الموضوع ليس سوى قوة ملاحظة من هاجر، ولا علاقة له بالمقدرة على معرفة الغيب! استدارت عائدة إلى المطبخ، أخذت قليلاً من

مسحوق فحم الزيزفون الموجود في الصحن، فركت أسنانها بقــوة، تمضمضت، وركضت بسرعة مجتازة أرض الدّار لتلحق بـــي عنــد ناصية الشّارع ووجهها يحمل الخيبة نفسها. لم أكن بحاجة لسؤالها.. لقد فهمت أنّها مثلي فلم أستطع خطف رغيف خبز أو قطعة حلوى من "نملية" المطبخ فقد استيقظت زوجة أبـــي باكراً لتعدّ قهوتها التي تشربها كلّ صباح في الفسحة الخضراء المتبقية قرب النّخلة..

لا أنا ولا حياة نستطيع الحصول على "الفرنك" أجرة مشاهدة الحكايات التي يعرض صورها حسن الهوّاش في صندوقه فقــد كـــان "الفرنك" مرتبط بالعيد فقط، ونحن نرغب بمشاهدة "فطوم المغربية"، فقد حكت لنا سهام أنّها أجمل مني بكثير، وأنّ شعرها الكثيف يغطي مساحة الصندوق وقامة صاحبه الهوّاش!

في طريق عودتنا إلى البيت كانت صديقاتنا بنات أبـــي شـــفيق ورفيق باشا قد سبقننا إلى السّاحة، وقفنا أنا وحياة بعيداً عن الكرسي الخشبـــي نراقبهنّ وهنّ يجلسن بفخر أمام "صندوق الفرجة" و"حسن الهوّاش" يمرّر شريط الصّور في الصّندوق، ويشرح للبنـــات الأربعـــة الجالسات على الكرسي يحدّقن بالدوائر الزجاجية: "نحنا هلقـــتين[1] باستنبول، أم العلالي والقصور، اللي شبابيكها مـــن بلّـــور، وهـــادا الخواجة البخيل، جارينو[2] الشْياطين، وهيدي شمـــا وزهـــر البـــان والأركيلة من كهرمان".

انتهت البنات من الفرجة ونهضن، واحتلّ الكرســـي أطفـــالٌ آخرون.. لم يفت حسن الهوّاش نظرة عينيّ وعيني حياة ونحن نراقبـــه

(1) تعني – الآن، مشتقة من هذا الوقت، والنون تابعة للهجة المنطقة.

(2) "جارينو" يجرّونه، والشياطين بتسكين الشين خاص باللهجة المحلية.

ونراقب الصّندوق بلهفة.. وعرف أنّنا لا نملك شيئاً ندفعه مقابل الفرجة، كان حسن يتغاضى عن القروش الخمسة -ما عدا أيام الأعياد- ويقبل برغيف خبز أو قطعة حلوى أو أيّ شيء يؤكل مقابل العرض.. رقّ قلبه لنا، ولمعت عيناه وهو يتأملنا من خلف صندوقه الذي لم يكن طوله يتجاوزه سوى ببضع سنتميترات لكنّها كافية مع -شدّ قامته قليلاً- ليرى الأولاد جيداً وهم يتفرجون ويزدحمون حوله.

كلٌّ ما فيه كان يوحي بالدّفء والطّيبة والتّسامح، وجهه البيضاوي النّحيل وعينيه العميقتين ولحيته البيضاء الخفيفة ويده النّحيلة المعروقة، حتّى ملابسه التي تبدو منسجمة مع لون الأرض "الشالة" الصّوفية البنية اللون والجاكيت فوق الشّروال الذي احتفظ به مع التّقدم في العمر وتغيّر الأزياء في البلد.

لكزتني حياة وشدّتني من يدي وهي تقول: "يالله نرجع، ستعاقبني أمّي، تأخرنا". انتبهت من شرودي وجررت قدميّ ببطء. في تلك اللحظة لمحتُ نظرة متواطئة في عيني عم حسن، أنا متأكدة أنّه وعدني برؤية فطوم، استحلفت حياة برأس "المُغْرَبي" وكلّ الأولياء الصالحين لتنتظر قليلاً...

لم أكن مخطئة فقد رقّ صوت عم حسن وهو يبعد الأطفال عن الكرسي ويدعونا للجلوس بعد تظاهره بأنّه أخذ منّا ثمن العرض، وجلست بجانبنا عفراء وسهام.. وبدأ العرض وصوته الدّافئ يقول: "شوفوا يا بنات ست السّتات فاطمة المغربية، كحلتها نص وقية[1]".

(1) نصف أوقية.

لكزتني عفراء: "أترين؟ حقّاً هي أجمل منكِ". ضحكت سهام: "ألم تصدقني!".

لم تكن عفراء أقلّ حسناً منّي ومن حياة وسهام، فقد كانت عيناها الزرقاوان الصافيتان وسط وجهها النحيل بحرٌ غامض وعميق لكنّه رائق معظم الوقت.. شعرها الأشقر المضفور بجدائل سميكة يمنحها مظهراً أرستقراطياً لا تخطئه العين، بالإضافة لعودها الفارع الطويل. أمّا سهام فقد كانت أقصر قامة منا، بشرتها حنطية مقمرة وخداها يتوهجان دائماً بلون أحمر يلفت الانتباه من بعيد، وعيناها البنيتان الواسعتان تنضحان ذكاءً وشيطنة بريئة. لم يكن جمال وجهها فقط ما يلفت الأنظار بل قامتها القصيرة النحيلة وحركتها الخفيفة وخطوتها السريعة. بعد رؤيتنا لفطوم المغربية صار شعرها الأسود الأجعد الطويل مثار حسد من البنات بعد أن كان مدعاة للانتقاد منهن، كانت تخشى أن تقصه كي لا ينفش ويتشابك ويصبح مشكلة حقيقية، وكانت أمّها دائماً تدهنه بالزيت وتمشطه بالماء وتشدّه بقسوة أثناء تضفيره...

سهام الضلع الرابع في مغامراتنا الصّغيرة الذي انتزع من جسدنا مبكراً وخلّف وراءه كومة رماد!

مرّت سنوات بعد ذلك وأنا وحياة نتحدّث سرّاً عن تجربتنا الفريدة في رؤية فطوم المغربية، وكلّما سمعنا بوق عم حسن يضرب ثلاث مرّات إيذاناً بوصوله وبدء العرض يرتجف قلبانا ونستعيد الذكرى الأجمل في طفولتنا.. وحتّى تاريخ هدم جامع أرسلان باشا المطرجي كنت كلّما مررت بحارة "الشحيدين" أسمع صوته آتياً من المئذنة حتّى وإن لم يكن توقيت الآذان!

كلانا أنا وحياة جرّبنا اليتم وقسوة العيش على الرغم من أنّي لم أفقد أبـــي مبكراً كما حصل معها إلاّ أنّي لم أشعر يوماً أنّ لي أبـــاً أسوة بصديقاتي بنات رفيق باشا أو "أبو شفيق أفندي" أو أيّ بنـــت أخرى في الحي. ربّما كان هذا أوّل خيط في جديلة علاقتنا المتينة التي لم تنل منها الخلافات والمكائد الصّغيرة التي مرّت في حياتنا، فلم تكن إحدانا تشعر بالغيرة من الأخرى أو تسمح لأحد مهما كانت درجة قرابته أن يدسّ أنفه في شؤوننا الخاصة ليفرّق بيننا. كانت حياة تملك وجهاً صبوحاً وملامح طيبة، بشرتها المخملية القرنفلية تنعكس علـــى لون عينيها العسليتين كشمس آيلة للغياب. كنّا أنا وهي متســـاويتين في الطول وممتلئتين قليلاً، ونحمل الابتســـامة نفســـها ونضـــحك في توقيت واحد!

لا أنكر أنّ حياة قد تعرّضت لتجربة مريرة لكنّني حين أنظـــر إلى حالي أرى أنّ كلتينا –حسب التّعبير الشعبي– نزلنا من قعر قفة واحدة. القفة التي عانينا من ضيق شبكتها حول أعناقنا حدّ الاختناق. مع هـــذا كنّا نحاول التّعويض عن يتمنا باختراع حياة ثانية نعيش تفاصيلها كمـــا لو أنّها حقيقة، ليست أحلام يقظة بل حكايات تلوّن واقعنـــا بـــالحلم. وتحوّل بيتينا المتقابلين على طرفي الشّارع إلى بيت واحد حين نتمكّن من مدّ أيدينا بعصا طويلة لتتلاقى عبره ونضحك ضحكة النّصر الكبيرة لأنّنا تحايلنا على المسافة واستطعنا إلغاءها بين بيت "عاصم آغا" الذي علـــى اليمين.. وبيت جدّة الحي "رقيّة" الذي على اليسار! تاريخهما يبدأ مـــع بداية القرن.. قبل أن أولد بثلاثين عاماً ونيف.

* * *

البيت الثاني على اليسار
بيت رقيّة أم مصطفى

...

قبل أن آتي إلى الدّنيا وفي ثلاثينات القرن الماضي زوّجت رقية ابنتها الوحيدة هاجر لشاب من مدينة أريحا كان في زيارة لقريبة له سكنت حيّنا تدعى أم بشير الريحاوية، تعرّف عليها وأعجب بها وتم الزواج، وأخذها إلى بلده. لكنّ هاجر لم تغب سوى بضعة أشهر وعادت...

حين فتحت رقيّة الباب فوجئت بهاجر تندفع مبعدة إياها عن الفرجة، تعثرت بالدرجة الوحيدة أثناء هبوطها إلى الفسحة السماوية للبيت المؤلف من غرفتين ومصطبة ومطبخ مسقوف بألواحٍ التوتياء يقبع داخله "الكابينه[1]" وتستعمل أرضيته للاستحمام شتاءً.

قالت رقية بهدوئها المعهود: "ما الذي أتى بكِ؟ أين عبد الغفور لماذا لم يأتِ معك؟". لم تكن هاجر في حال تسمح لها بالكلام، فانفجرت بالبكاء بعد ساعات طويلة من الصّمت والذّهول استغرقها الطريق من أريحا إلى اللاذقية.

كانت رقيّة سيدة نحيفة طويلة القامة تتميّز بصرامتها وقسوتها أحياناً، و لم تكن تحبّ أن يرى أحد لحظات ضعفها وهشاشتها لذا؛ كانت تتكتم على عواطفها ولا تبدي أيّ انفعال أو "تعاطف" مع ابنتها الوحيدة.

---

(1) التسمية التي يطلقها أهل اللاذقية على "المرحاض" وأصلها فرنسي.

قالت هاجر بعد أن عادت رقية من المطبخ حاملة معها فنجـــاني قهوة، وجلست بهدوء على حافة السّرير تلف سيجارتها ببطء: "أمّي عدت وحيدة، عبد الغفور طلّقني".. لم تبدِ رقيّـــة أيّ رد فعـــل، لم تتحرّك من مكانها و لم تضرب صدرها استنكاراً بل رفعت سيجارتها إلى فمها وحاولت قدح شرار "قدّاحة" عبد الرحمن التّذكار الوحيـــد الذي تركه لها قبل ذهابه إلى "السّفر بر" وغيابه الأبـــدي... لكـــنّ داخلها بدأ يغلي بشدة، أيعقل أن يتصرّف زوج ابنتها بهذا الشـــكل الأحمق وهي التي كانت تراه طيباً وبسيطاً وتوقعت أن يعوّض ابنتـــها عن زواجها الأوّل الذي انتهى بالطلاق أيضاً، كما عوّضها شخصياً عن فقد ابنها الذكر الوحيد الذي خرج يوماً إلى البحر و لم يعد!

لم تستجب القدّاحة للمحاولة الرابعة، وضعتها رقيّـــة جانبـــاً وبحثت في الدّرج الصّغير بـــين الأزرار والخيطـــان عـــن الأحجـــار الرصاصية الصّغيرة لتملأ القدّاحة فلم تجد شيئاً، حتّى عبوة البنـــزين الصّغيرة فارغة.. عادت للبحث ببطء عن علبة الكبريت التي جاءتهـــا هدية من ابنة عمها من بيروت، أخيراً وجدتها بين الملابس المطوية في الخزانة.. تنفّست الصّعداء.. وأشعلت سيجارتها من عـــود الثّقـــاب الذي تناثر شراره على ثوبها السّكري اللون والذي لا تحصى ثقوبـــه التي خلّفها شرار أعواد الثقاب فيه! لم يكن ثوب رقيّة وحيـــداً بـــل خاطت عدّة أثواب من القماش الخشن نفسه واللون ذاتـــه، أثـــواب طويلة فضفاضة لها جيوب عميقة على الطرفين وفتحة عند الصّدر

لباسها المفضّل والموحد حتّى لا تكاد نســـاء الحـــي يعـــرفن إن كانت رقيّة قد استبدلت ثوبها أم أنّها ترتدي الثّوب ذاتـــه منـــذ أسابيع بل أشهر! الوحيدة التي كانت تعرف أنّ رقية قد اســـتبدلت

الثّوب هي أم محمّد صديقتها منذ الطّفولة وجارتها في الحي وشريكتها في المصير.

الطريقة التي كانت تحدّد فيها أم محمّد الثّوب هو عدد الثّقوب فيه، كانت طريقتها تلك إحدى طرائفها التي لا تنتهي في جلسات الأمسيات الدّافئة مع النّارجيلة في فسحة الدّار تحت التّينة الضّخمة والياسمينة القابعة خلف باب الدّار الخشبي، والتي تتسلّق الجدار وتمدّ فروعها الغضة إلى الشّارع.

الشّارع الفسيح لا يكاد طوله يتجاوز مئتي متر، يبدأ من دار أم رشدي وينتهي بالقنطرة التي تؤدي إلى شارع آخر أقصر يفضي إلى فسحة ترابية فيها بيوت حديثة متفرقة يتجاوزها الذاهب إلى البحر في دقائق ليصل الشّاطئ.

قالت رقيّة بصعوبة وهي تنفث الدّخان بقوة: "هذا هراء، لن يحدث، أنا أعرف عبد الغفور أكثر منكِ، سيأتي قريباً ليأخذك، أنتِ بالتأكيد فعلتِ ما يزعجه.. نامي الآن، وسنرى في الغد ماذا سنفعل". نطقت رقيّة بأمنيتها وهي غير متأكدة من إمكانية تحقّقها، لكنّها رجت الله بصمت أن يُنزل سكينته على صهرها وأن يعود إلى ابنتها في أقرب وقت، وألاّ يشمّت أقارب زوجها فيها ثانية.. خاصة أخت المرحوم التي كثيراً ما عيّرتها بأنّ زوجها آثر البقاء في بلاد العثملي على العودة إليها؛ لأنّ وجهها لا يضحك للرغيف السّاخن.. وكانت تخبرها بتشفٍ واضح أنّ العائدين من الحرب قالوا لها إنّه تزوج جميلة عثمانية من أرض روم غنية وتملك بيتاً يرمح فيه الخيّال، وأنّه سعيد معها ولن يعود.

على الرغم من أنّ إحساس رقيّة الداخلي كان يُكذِّبُ نبأ وجود عبد الرحمن على قيد الحياة في ذلك الوقت وإمكانية ابتعاده عنها،

لكنّها كانت تشعر بالقهر كلّما سمعت كلام "صبحية" أخت زوجها التي كانت تحقد عليها؛ لأنّ شقيقها ترك بنات العائلة جميعهن واختار رقيّة التي تكبره بعشر سنوات ليتزوجها مع أنّها كانت يتيمة الأب ولا سند لها، لكنّها عُرفت باستقامتها وشخصيتها القوية وجمال تطريزها الذي لا يمكن لأحدٍ أن يقلّده أو يصنع شيئاً شبيهاً له.

رقيّة الصبية الفاتنة قاطعت الزواج واهتمت بأمّها المريضة التي توفيت عن عمر يناهز المئة قبل زواج رقية بأيام فاعتبر أهل زوجها أنّ هذا فأل سيء سيعود بالويل على ابنهم الشّاب الجميل الذي تتمنّاه فتيات اللاذقية بلا استثناء من وجهة نظر أمّه وشقيقته. لكنّ رقية كانت تملك من الحكمة والصلابة وقوة الإرادة ما يجعلها محصّنة من الكراهية ونظرات الحقد والمكائد التي كانت تحيكها لها حماتها وابنتها، وعرفت كيف تزيد تعلّق عبد الرحمن بها بعد الزواج، فلم يكن يغادر مخدعها إلاّ ساعات عمله في السّوق، وقد أقنعته بأن يشتري قطعة أرض خارج السّور ويبني لهما بيتاً، وأعطته مصاغها وكلّ ما تملك لأجل ذلك.

حين أنجبت له رئيفة كان يوم سعده، واليوم الأسود الشؤم بالنسبة لأمّه وأخته اللتان انتظرتا تسعة أشهر أن يأتي مصطفى ليحي ذكرى الراحل والد عبد الرحمن.. ثمّ جاء مصطفى وبعده ماتت رئيفة التي تحمل اسم جدتها، وجاءت هاجر! لم تحمل هاجر هذا الاسم اعتباطاً، فقد كان أبوها رجل علم يحفظ سير الأنبياء والقرآن الكريم مع تفسيره، وقد اختار لهاجر اسمها كي تكون السّيدة المضحية والحنونة كما كانت زوجة إبراهيم عليه السّلام، ورفض أن يسميها على اسم اختها المتوفاة؛ لأنّ ذلك فأل سيء كما رفض اقتراح أمّه

بتسميتها سارة؛ لأنّه لا يحبّ المتسلطات حتّى لو كنّ من أزواج الأنبياء.. تحوّل قوله هذا إلى طرفة مع الأيام كانت تتندر بها أمّه وأخته في إشارة إلى تسلط رُقيّة وسيطرتها عليه عاطفياً وفكرياً. لكنّ ذلك التندر لم يقلّل من شأن رقية في قلب عبد الرحمن، و لم يزحزح عواطفه قيد شعرة.

في الصّباح نتحت رقيّة ماء من البئر، ورشّت أرض الدّار وكنستها جيداً، سقت التّينة وأشجار الرّمان، وشطفت أرض المصطبة الحجرية بالقليل من الماء، ودخلت المطبخ لتحضّر فطوراً بسيطاً من "السوركة" الاسم الذي يطلقه أهل اللاذقية على "الشنكليش" وتصنع من القريش المتبل بالبهارات والزعتر الأخضر المجفف، تصنع على شكل أقراص توضع في الشّمس حتّى تجف، ثمّ تُخزّن بآنية من الزجاج فيتشكّل حولها العفن، يكشط العفن وتفرم مع البصل والزيت. لكنّ هاجر كانت تضيف إليها البندورة والخضروات وتشرب معها الشّاي.

حتّى تلك السّاعة كانت هاجر ما تزال نائمة.. حين قُرِع باب الدّار الخشبي وسمعت صوت نحنحة رجل. تطلّعت إلى الظّلال التي تركتها شمس الصّباح في فسحة الدّار لتعرف الوقت "إنّه لا شكّ عيسى زيزونة، من عادته أن يمرّ صباح كلّ يوم ليسألها إن كانت تريد شيئاً من السّوق يحضره في طريقه وهو ذاهب لشراء الخضار لدكانه. صاحت من مكانها أمام باب المطبخ: "فوت[1] يا عيسى الباب مفتوح". لم يتحرّك باب الدّار بل ابتعدت الخطوات قليلاً ممّا جعل قلب رقيّة يخفق بشدّة "مَن هذا الغريب الذي يطرق بابها قبل السّابعة صباحاً؟".

فوت: ادخل، يستخدمها العوام فعل أمر من فات يفوت "دخل"

فتحت الباب ببطء، واجهها الفراغ في الفسحة أمامه وقبـــل أن تغلقه سمعت نحنحة وصوتاً خافتاً يقول: "صباح الخير يـــا أمّـــي". لم يلتبس الأمر على رقيّة فهي تعرف جيداً صاحب الصوت، مع هذا لم تتمالك نفسها، و لم تستطع منع دموعها من الانسكاب على خديها لكنّها مسحتهما بسرعة وهدّأت روعها وضبطت أنفاسها وقالـــت: "لماذا تقف بعيداً؟ تعال، فوت.. حماتك تحبّك.. الفطور جاهز".

تردّد عبد الغفور –وهو ينزل إلى الفسحة السّماوية ويجلس على طرف "الخوان[1]" الذي يتصدّر الحائط تحـــت التينـــة– في المبـــادرة بالحديث، كان يدرك أنّ حماته تعرف كلّ شيء ولا سبيل لمناقشـــتها في التّفاصيل إن لم تبدأ هي بالكلام. تناول لقيمات علـــى اســـتحياء وشرب القليل من الشّاي وعيناه تحدّقان بباب الغرفة منتظراً ظهـــور هاجر التي لم تستيقظ بعد! تعمّد إصدار صوت وهو يضع الكـــوب النّحاسي في الصّينية، لفت انتباه رقيّة التي فهمت ما يريـــد ولكنّهـــا تجاهلت وقالت: "لم يعجبك طعم الشّاي؟ معك حق، لم يمرّ الســـقّا اليوم، واضطررت لغلي الشّاي من ماء الجب". لم يعقب عبد الغفور هو أصلاً كان مشغولاً عن طعم الشّاي ولونه بمراقبـــة حماتـــه الـــتي دخلت الغرفة وعادت وهي ترتدي ملاءتها وأومأت لعبد الغفور كي يرافقها.

في الطّريق إلى "الزيارة" بقيت صامتة، كانت تسبق عبد الغفور بخطوات وهو يحاول أن يحاذيها. عُرفت رقيّـــة بخطوتهـــا الواســـعة السّريعة، لم تكن تتوقف أمام المحلات أو تتلكأ أثناء المشي لتحيّة أحد

(1) الأصل خُوان، ما يوضع عليه الطعام، يطلق في العامية على مـــا يجلـــس عليه، يفرش فوقه فراش رقيق ويكون من دون مسند ملاصقاً لحائط.

أو السّؤال عن شيء فهي تمضي إلى غايتها بأقصى سرعة ممكنة وتعود إلى البيت في زمن قياسي، وهذا الأمر كان يضايق بعض جاراتها ومعارفها حين يصدفنها خارج المنزل.

الرّيح القادمة من البحر كانت تضرب "ملاءة" رقيّة وتدفع منديلها فوق عينيها، فتضطرّ لإمساكه بكفّها.. والإسراع في مشيتها.. كان العمال في ذلك الوقت من الصّباح يحضّرون خلطة الاسمنت لفرشها في أرض الجامع الذي لم ينتهِ بناؤه بعد..

تجاوزت رقية موقع العمل في جامع العَجّان، وهي تسأل عبد الغفور عن كيفية وصوله في هذا الوقت المبكر والسّيارات لا تكاد تتحرّك في الليل!

ارتبك عبد الغفور قليلاً قبل أن يجيب بأنّه ركب مع سائق شاحنة كانت في طريقها إلى اللاذقية مساءً وقضى ما تبقى من الليل في الحديقة! التفتت رقيّة إليه من دون أن تتوقف وعلامات الاستغراب على وجهها: "أيّ حديقة!". قال عبد الغفور باهتمام: "ظننتك تعرفين.. منذ متى لم تذهبي إلى المقبرة؟" توقفت رقيّة عن السّير، شعرت بأنّ شيئاً قصم خطواتها وجمّد جسدها، قالت وهي تغص بالكلمات: "لا أظنّك تقصد أنّهم أزالوا الزيارة(1) من مكانها". وطفرت دموعها بقوة لم تتركها الرّيح ليراها عبد الغفور فقد مسحها المنديل في اللحظة ذاتها وبانت وكأنّ عينها قد طُرفت. شرح لها عبد الغفور بأنّ الفرنسيين أزالوا القبور من السّاحة واحتفظوا بالأشجار الكثيفة تمهيداً لجعلها حديقة. كان من الواضح أنّ تغييرات كثيرة قد حدثت خارج سور المدينة بعد مجيء الفرنسيين منها بناء

(1) الاسم الذي يطلقه أهل اللاذقية على المقبرة.

"السكتور[1]" في الزاوية الشرقية الجنوبية من السّاحة و"الكركون"[2] في الطرف الشّمالي الغربـــي... لم يكن هيّناً على رقيـــة أن تشـــهد إزالة المقبرة وتحويلها إلى حديقة!

منذ شهرين لم تزر رقيّة قبر والديها وزوجها، و لم يخبرها أحـــد من الجيران بنية الفرنسيين إزالة القبور أو نقلها إلى جهة أخرى!

عاد المشهد حيّاً وبائساً إلى ذاكرها.. رأت نفسها وهي تركض صوب البحر حيث تجمّع النّاس قرب مقهى "العصـــافيري" ملـــتفين حول عبد الرحمن المستلقي في نومته الأبدية.

لم يكن الحدث العظيم قاصماً لظهر رقيّة فقط بل كان بدايـــة حياة مختلفة من العزلة والتّماهي مع عالم الأموات الغامض. كانـــت كلّ ليلة ترى نفسها وهي تجمع جسد عبد الرحمن بعد تغســـيله في رداء أبيض، وتحمله تحت جنح الظلام مع بضع نساء إلى المقبرة وتحفر القبر بيديها وتسجيه هناك.. وتهيل فوقه التّراب..

لم يكن هناك رجالٌ في الشّوارع.. كانت البلد الصّغيرة خاليـــة تماماً، أفرغها العثمانيون من شباها كما فعلوا في البلدان الأخرى التي تقع تحت سيطرهم و لم تفلح الحكاية التي اخترعتها والدته وتـــداولها النّاس في إجلاء الغموض عن عودة عبد الرحمن في هذا التّوقيت بعـــد أن يأس الجميع من عودته واعتبرته رقيّة ميتاً. ما تداولـــه العجـــائز المجتمعون في المقهى، أنّ زورقاً مخر عباب العاصفة وكانت الأمـــواج تتقاذفه بشدة ورمته عند أقدام المقهى فتدافع الرجال ليجـــدوا عبـــد الرحمن داخله شاحباً ومنهكاً ولا يقوى على الوقوف، أسندوه حتّى

(1) التسمية تطلق على مبنى مركز القيادة العسكرية الفرنسية.
(2) مخفر الشرطة.

استقرّ على اليابسة، وسألوه من أين أتى وكيف عاد من الغياب؟ وعلّق أحدهم "الحمد لله على سلامتك كُتب لك عمر جديد، لا يوجد بحار يستطيع الوصول إلى الشّاطئ في مثل هذا الجوّ!". حين ألح الرجال بالسّؤال، فتح عبد الرحمن فمه وقال: "كنّا هناك.. والتفت بوجهه صوب البحر وأشار بيده إلى عمق العاصفة ثمّ شهق وهوى إلى الأرض. في تلك اللحظة وصلت رقيّة، أسبلت جفونه وحملته مع بعض الرجال إلى البيت ورفضت أن يدخل أحد معها إلى الغرفة.. أغلقت الباب جيداً وجلست قرب السّرير كما كانت تفعل عندما كان حياً.. سألته بعتب "لماذا تأخرت؟" سمعته يقول: لا يؤخرني عنكِ سوى الموت"!

حين عادت رقيّة إلى البيت وهي ذاهلة عما حولها حدّ نسيانها أنّ عبد الغفور برفقتها كانت هاجر قد استيقظت وجلست تتناول فطورها في الغرفة الصّغيرة الخاصة بعمل رقية، والتي تحوي ماكينة الخياطة وأدوات التّطريز وخزانة من خشب الصّنوبر رتّبت فيها رقيّة الأقمشة وعلّقت الأثواب التي شارفت على الانتهاء من العمل بها. وفرشت أرضيتها بسجادة كبيرة غطّت مساحة الأرض يتصدّرها "جاردينير" رتبت رقيّة فوقه الملابس التي لم تنتهِ من خياطتها وأدوات الخياطة.

على كرسي من دون مسند جلست هاجر وأمامها طاولة صغيرة وضعت فوقها صينية الطّعام النّحاسية.

توقفت هاجر عن مضغ اللقمة عندما رأت أمّها تعبر أرض الدّار صوب المطبخ ووراءها عبد الغفور الذي جلس على "الخوان" تحت التينة.. لم تتخيّل أن يلحق بها بهذه السّرعة!

دقائق وعادت رقيّة تحمل فناجين القهوة الميلامين والركوة النّحاسية ذات اليد الرفيعة هدية ابنة خالتها التّركية، وضعتها على الكرسي الخشبي أمام صهرها، وقالت وكأنّها تحدّث نفسها: "لا شيء يستحق الحزن لأجله". لم يعلّق عبد الغفور كان يخشى أن يقول شيئاً غير مناسب يعكّر مزاج حماته ويفسد مسعاه باصطحاب هاجر معه... انتبهت رقيّة لحاله، نادت ابنتها والتفتت إليه "ستبقى اليوم عندنا، سأطبخ كبيبات؟". حاول عبد الغفور أن يعتذر ويتملّص من الدّعوة بحجة أنّ لديه عملاً في البلد ويجب أن يسافر، لكنّ نظرة رقيّة الصّارمة والصّريحة لم تترك له مجالاً لينبس بكلمة.

لم تتأخر رقيّة في المطبخ فقد حضّرت عجينة "الكبيبات" قبل أن تخرج من البيت، أحضرت المنخل، ورشت عليه الطحين وقطّعت العجينة المكونة من البرغل الناعم والطحين إلى قطع صغيرة ورمتها في المنخل ثمّ راحت تحرّكه بطريقة جعلت القطع الصغيرة تصبح كروية الشّكل وكان الماء في طنجرة النّحاس يغلي على النّار في تلك الأثناء، سقّطت الكرات في الماء ووضعت فوقها الغطاء وخفّفت النّار تحتها.. وبينما كانت تحضّر الصلصة الخاصة بالكبيبات المؤلفة من الفليفلة اليابسة الحارّة المنقوعة بزيت الزيتون والمضاف إليها كأس صغير من دبس الرمان وفصوص الثّوم المسحوقة بالهاون النّحاسي.. كانت تراقب وتحرّك الكبيبات في الماء المغلي.. حين نضجت، أخرجتها ووضعتها في الصلصة. لم يكن عبد الغفور يحبّ تلك الأكلات الشّعبية التي تميّزت حماته بطبخها، ولكنّه لم يجرؤ يوماً على الإفصاح عن شعوره أمامها!

* * *

وصلا أريحا مع المغرب، كانت النّسمات اللطيفة تملأ الجوّ بعبق زهر "المحلب، والمشمش والكرز".. قطعا الدّرب التّرابـي الطّويـل على أطراف المقبرة الغربية، انعطفا يميناً في زقاق ضيّق، سارا حـوالي مئتي متر في العتمة قبل أن يتوقف عبد الغفور فجـأة أمـام بـاب خشبـي، ويمد يده بالمفتاح. لم يتسنَ لهاجر أن تسأل فقد همس عبد الغفور لها وهو يتنحى عن الباب: "بيتك، تفضلي". كانـت تلـك طريقته في مراضاتها بعد أن تشاجرا وتركت بيت أهله بعد خـلاف حاد مع أمّه وأخته.

مرّت سنة كاملة لم تتعرّف هاجر علـى أحـد مـن سـكّان "السقيّق"[1] ولم تخرج من البيت إلا بصحبته إلى دار أهله أو إحـدى أخواته.

في المساء تسكن الحركة في الزقاق الضيّق، ويخرج عبد الغفـور ليسهر مع أصدقائه حتّى السّاعات الأولى من الفجر، وتبقى هـاجر وحدها. في البداية احتجّت على تصرفاته، هدّدته بترك البيت لكـنّ عدم مبالاته بتهديدها ومجابهته لها بالصمت وعـدم قبولـه للنقـاش جعلاها تتراجع وتحاول التأقلم مع الحياة الجديدة، وكانـت تعـزي نفسها بأنّ الأمر لن يطول وسيتغيّر حين تنجب له ولداً!

فاجأها الطلق بعد خروجه في أمسية عاصفة من ليـالي نيسـان 1934، دارت حول نفسها وهي تصرخ من الألم، تمسّكت بـالأبواب والنّوافذ، حاولت أن تستنجد بالجيران لكنّها لم تكن تعرف من يسكن بجانبها! وخافت أن تخرج في الليل لتطلب العون من أهـل زوجهـا.. الطّريق بعيد والأزقة معتمة وتزيدها القناطر التي تصل البيـوت علـى

(1) السقيّق، تصغير كلمة سقاق، أي زقاق.

طرفي الزقاق عتمة. خرجت إلى أرض الدّار، تمسكت بأغصان شجرة المشمش وهي تشعر بالدّوار والماء يتدفق بين ساقيها.. سيطر عليها الرّعب وهي تحاول أن تفهم ما يجري، هل ستلد؟

كانت مرتمية قرب عتبة الغرفة وقد أغمي عليها حين أدار عبد الغفور المفتاح بالقفل وتنحنح قائلاً: "يا ساتر".

بعدها لم تعرف مَن تلك التي كانت تصرخ بها: "ساعدي طفلك"، ولم تعرف وجوه النّساء حولها، وكان صوت عبد الغفور يصلها من بعيد يقرأ سوراً من القرآن. ثمّ همد كلّ شيء بعد صرخة ألم فظيعة شعرت أنّها مزّقت أحشاءها. همسات غريبة تلامس أذنها، وصوت بكاء طفل، وشيء حار يستند على صدرها وأنفاس تدغدغها ببطء.

حين فتحت عينيها على صورة بهية لطفلة كقطعة شاش بيضاء وشعر أسود فاحم لم ترَ عبد الغفور، كان قد غادر البيت منذ زمن!

اعتاد عبد الغفور بعد ذلك على الغياب عن بيته طويلاً، لكنّ هاجر لم تستطع تقبّل الأمر أو التلاؤم معه. ليست أسطح المنازل المتلاصقة التي تشكّل كتلة حميمية تمكّن أيّ جار من تخطي الجدار الفاصل بينها إلى سطح جيرانه لينزل عبر السلّم الخشبي إلى أرض الدّيار؛ هي السّبب الوحيد الذي زرع الخوف في قلب هاجر وجعلها تقفل باب غرفتها على نفسها بحلول المساء محاصرة نفسها وسط جدران صماء ترجع صدى خوفها؛ وترسم ظلالاً غريبة لأجساد خرافية تتحرّك وسط الغرفة من خلال نور السّراج الخفيف. كان الوهم أيضاً والشكّ في تغيّر مشاعر عبد الغفور نحوها يضاعف خوفها وقلقها من مستقبل بائس ينتظرها، ربّما كان لفشل تجربتها

الأولى في الزواج أثر كبير في تضخم إحساسها بالقهر من عزلتها التي فرضها عليها عبد الغفور حين منعها من التّواصل مع الجيران ومن فتح الباب في غيابه لأحد.

خبرتها القليلة جعلتها تقف عاجزة عن فعل شيء وهي ترى ابنتها تهذي من الحمى، ارتدت ملاءتها على عجل وحملت ابنتها وخرجت إلى الزقاق، كان السّكون المخيف والعتمة الشّديدة يلقيان ظلّاً ثقيلاً على قلبها لكنّ خوفها على ابنتها كان أكبر... التصقت بالحائط لثوانٍ شعرت بها ساعات طويلة وهي ترتجف من الخوف حين وصل سمعها أصوات رجال سكارى قادمون من نهاية الزقاق المفتوح على الجبّانة الغربية. أنصتت للحظات قبل أن تسعفها فطرتها بحل لم يكن منطقياً لكنّه الأسرع حضوراً، مدّت يدها وأمسكت اليد الحديدية لأقرب الأبواب إليها، وطرقته بعد تردد، الدقيقة التي انتظرتها قبل أن تسمع صوت أقدام تقترب من الباب كانت كافية ليقضي عليها الرعب من وصول الرجال إليها، أنقذها من تلك المشاعر المختلطة صوتٌ نسائي همس بلكنة غريبة على مسمعها "مَن بالباب؟". ردّت بتوتر "أنا جارتك، افتحي أرجوك".

فُتح الباب بشكل كامل، وتنحت المرأة قليلاً وأفسحت لها الطّريق لتدخل. وسط دهشتها قامت المرأة بعمل كمادات للطفلة وسقتها منقوع أعشاب، وربتت كتف هاجر وهي تقول: "تابعي وضع الكمادات ريثما أرسل أحداً يحضر زوجك".

لم يهدأ غضب عبد الغفور على هاجر بسبب خروجها من البيت ليلاً على الرغم من أنّ حرارة صفاء لم تنزل وكانت الطّفلة على أعتاب الموت.

في الصّباح بعد خروجه إلى العمل سمعت طرقات على البـــاب، فتحته من دون أن تسأل فقد كان غضبها هي الأخرى في أوجه وقد قرّرت أن تجمع أغراضها وتسافر إلى اللاذقية.

حين خلعت "بدرية" ملاءتها، فتحت هاجر فمها ذهولاً.. فقد رأت في ضوء النّهار ما حجبه الليل وارتباكها. ضـــحكت بدريـــة وناولت هاجر صحناً من الفخّار مغطى بورق لم تكتشف ما فيه إلاّ حين قالت بدرية وهي تبتسم بغنج: "أحببت أن يكون بيننـــا خبـــز وملح -كما يقولون- وبما أنّي أحبّ صناعة الحلو فقد أتيتك بصحن تين بعجين طازج عملته هذا الصّباح، تذوقيه، ستحبينه بالتأكيـــد". خجلت هاجر من ضيفتها وتناولت قطعة مـــن الصّـــحن وأكلتـــها وأبدت استحسانها وكي تؤكد عليه سألت ضيفتها كيف تصنع هذه الحلوى؟ أجابت بدرية بجدية: "بسيطة جداً، انزعي عقـــب حبّـــات التين ونظفيها بيدك، وحضّري عجينة رايقة، اغمسي التين بـــالعجين واقليه بالزيت، ثمّ اصنعي قطراً من دبس العنب واغمســـيه فيـــه، إن كنت لا تحبين الحلو الزائد يكفي حلاوة التين، تستطيعين أكله مـــن دون دبس، أهل أريحا يحبونه بالدبس ليس لحبهم الدبس فقط لكـــن؛ لأنّه أرخص من السّكر بكثير لذا؛ تجدينهم يستخدمونه في صـــناعة كلّ أطباق الحلو.

كانت بدرية امرأة بيضاء ممتلئة تميل إلى القصر، شعرها الأسود يحيط بوجهها كإطار جميل على شكل ضفائر ملفوفة حول رأســـها، وتدلّى من أذنيها قرطان من الألماس يلمعان بشـــدّة تحـــت أشـــعة الشّمس، وقد ارتدت ثوباً قصيراً يكشف عن ركبتيها ينتهي بطبقتين من الكشاكش الملونة، وكشفت ياقته المدورة عن مســـاحة الصّـــدر

كاملة مع جزء من النّهدين. احمرّ وجه هاجر التي لم ترَ من قبل مثل هذه الإثارة في العينين والفم الذي يلوك "مسكة" ويفرقعها بصخب.. ولا تلك الخلاخيل التي ترن مع كلِّ حركة تقوم بها، ولا الأساور التي تصل إلى الكوع.. عبّرت عن ذهولها بنظرات فاحصة حيناً وخجلة حيناً آخر.

أعجبت بدرية بالأثر الذي تركته في نفس هاجر وبارتباكها الظاهر حين فوجئت بها تجلس على الكرسي الوحيد في الغرفة وتضع ساقاً على ساق كاشفة عن فخذيها وهي تسألها: "ألا يوجد عندك بن؟ ردّت هاجر: "لا والله، هل أعمل لكِ شراب الورد؟".

ضحكت بدرية وقالت: "لا، شكراً، لن أمكث طويلاً جئت أطمئن على الطفلة وأرى بيت عبد الغفور من الدّاخل".. وأضافت: "وأراكِ". وشدّدت على مخارج الحروف بما يوحي بدلالات عديدة لم تخفَ على هاجر على الرغم من طيبتها وتلقائيتها في التّعامل مع الناس.

بحس الأنثى الذي لا يخطئ التقطت هاجر تلك الإشارات الخفية التي أطلقتها عينا بدرية وجسدها، لم يكن من الضروري أن تفصح عن علاقتها بعبد الغفور لتدرك هاجر سر مجيئها للزيارة.. أيقنت هاجر أنّ حياتها الزوجية في خطر، ولم تصدّق فيما بعد كلّ الأيمان الّتي حلفها عبد الغفور نافياً وجود أيّ علاقة مريبة بينه وبين بدرية وأنّ معرفته بها لم تتعدَّ كونه زبوناً مثل غيره يخيط عندها سراويله وقنابيزه! لكنّ الفطرة التي غلبت المنطق دفعت بها لترك البيت والسّفر إلى اللاذقية مُخيّرة إياه بين الحياة معها أو البقاء حيث بدرية!

* * *

لم تكن شمس وهاجر صديقتين حميمتين ولكنّ الظروف جمعتهما في طريق السّفر أكثر من مرة، كما جمعهما انتماؤهما للشارع الذي نشأتا فيه.

هذا الصّباح وقفتا معاً تحملان بقجتين كبيرتين من الملابس وكيسين من الأمتعة. كانت هاجر تحاول هدهدة صفاء كي تنام قليلاً وتريحها من صوت بكائها المربك. أخذت شمس عنها بقجة الملابس، وكيس الخيش الكبير واتكأت على جدار سور المخفر بانتظار مرور سيارة قادمة من حلب.

لم يطل انتظارهما، انحشرتا في المقعد الخلفي بجانب سيدتين ضخمتين كانت إحداهما تعاني من ضيق التّنفس وتركت النّافذة مفتوحة طيلة الطّريق. وعلى الرغم من أنّ رائحة الزهر تنعش الأعصاب إلاّ أنّ النّسيم البارد جعل هاجر تتذمر وتلف صفاء جيداً بشالٍ من الكروشيه نسجته بنفسها خصيصاً للمولود الذي كانت تأمل أن يأتي ذكراً فاختارت له اللون الأزرق لتحميه من العين!

مع آذان العصر نزلت الاثنتان في "كراج زكريا" في ساحة الشّيخ ضاهر وأومأت هاجر لجارها حامد الأخرس ليحمل معها البقجة لكنّ شمس حلفت مئة يمين لن يحمل الحاجيات أحدٌ غيرها.

قبل أن تنعطفا في التّفريعة الرابعة لحتهما منيفة وكانت قادمة من بيتها فحملت صفاء عن هاجر والتفتت إلى أختها شمس وقالت: "مريم في البيت أنا سأذهب لزيارة رقية وسأعود بعد قليل". تابعت شمس طريقها إلى التّفريعة الخامسة من دون أن تعلّق على كلام أختها. سألت منيفة هاجر باهتمام: "ما بها شمس؟ لماذا جاءت؟ لعلّها لم تتطلّق هذه المرة أيضاً!".

حين عادت منيفة إلى البيت كانت شمس تجلس تحت الدّالية والدّموع ما زالت ترسم خطين مستقيمين على خدها. للحظات كادت منيفة تنفجر في وجهها لائمة إياها على تساهلها مع زوجها، لكنّها ضبطت أعصابها وسألتها بهدوء: "هل ترك لكِ شيئاً أم جئتِ بملابسك فقط؟".

قالت شمس وهي تنكّس رأسها محاولة ألا تنظر في عيني أختها: "لم يترك لي شيئاً، أخذ المصاغ، والبيت، وطلّقني".

صرخت منيفة في وجهها: "تستأهلين طول عمرك غبية ولا تسمعين مشورة أحد.. لكن ماذا أقول إنّها حماقة أبي رحمه الله!"

سكّان الحي كلّهم يعرفون ماضي الأغا "النسونجي" الذي لم يكن يغادر الملاهي والخمارات. عاشر الكثيرات من بنات الهوى، وركض وراء المغنيات، ووقع في غرام الكثيرات لكنّه لم يتورط بالزواج من إحداهن حتّى تعرّف على جميلة.

كانت جميلة امرأة قصيرة واسعة العينين تكحلهما بطريقة ملفتة للنظر، تجلس في المساء على كرسي قش أمام دكّان "الحجة بدرة" تمازح المارة وتستوقفهم لتبدأ أحاديث لا تنتهي. لم يكن سكّان الحي يتضايقون منها فالكلّ يتقبّل مزاحها حتّى وإن أسرفت فيه، خاصة الرجال، لكنّ بعض النّساء في التّفريعة/1 شمالاً/ كنّ يتجنبنها ويخشين منها على رجالهن حتّى شاعت قصتها مع "سيف الدين آغا" حينها فككن الحصار عن رجالهن، وبقيت أم منيفة سجينة بيتها لا تغادره، فقد آلمها أن يتزوج الأغا من جميلة التي لم يكن فيها ما يلفت النّظر سوى عينيها الواسعتين الخضراوين وكحلتهما التي يراها المرء "من سفر سنة" كما كانت تقول رقية.

بعد أن أنجبت جميلة شمس بسنتين هاجمها مـــرض غريـــب لم يستطع أحد أن يعرف ما هو.. أخذها ســيف الــدين إلى حلــب وعرضها على الأطباء، ولم يترك شيخاً ولا مزاراً لكنّ ذلك كلّــه لم يفدها في شيء. فارقت جميلة الحياة وهي أشبه بهيكل عظمي لم يكن هناك ما يوحي بأنها حية سوى عينيها اللتين حافظتا على جمالهما.

ربّت أم منيفة شمس وكأنّها ابنتها، وأحبتها أختاها منيفــة ومــريم كما لو كانت أختاً شقيقة. وحين فارق والدهما الحياة وكانت في الثالثة عشرة من عمرها تزوجت صياداً فقيراً ابتلعه البحــر في ليلــة عاصــفة وأصبحت أرملة وهي في الخامسة عشرة من عمرها. أم بشير الريحاويــة والتي لُقّبت بالخاطبة في ذلك الوقت أتتها بعريس من أريحا يعمل أجــيراً في "الحمّام الوسطانية". قبلت شمس ووافقت زوجة أبيها بسرعة كــي تتخلّص منها وتبعدها عن طريق ابنتيها علّ نصيبهما يأتي!

زوج شمس كان كبيراً في السّن وخلال سنتين أقعــده المــرض وطلب منها أن تعمل في "الحمّام". في البداية تحمّست شمس للعمــل فقد كان متنفساً لها للخروج من البيت والتعرّف على النّاس وخلال سنة صارت تعرف معنى أن تكون سيدة البيت وسيدة نفسها، لكــنّ زوجها بدأ يتذمر ويرهقها بالطلبات ويحاسبها إن تــأخرت، وبــدأ يشكّ فيها وتطوّر الأمر إلى الضرب وحبسها في البيــت ولم يعــد يسمح لها بالعمل، وتركها جائعة مدّة أسبوع كي يربيها! خضــعت شمس لأوامره وعادت للعمل، لكنّ العمل هذه المرّة لم يعد مرتبطــاً بالحريّة والسّيادة، صارت تشعر بأنّها مربوطة إلى السّــاقية كحمــار تعمل ساعات طويلة حتّى يهدّها التّعب من دون أن يصل قــرش إلى يدها. وقرّرت ترك العمل بنفسها.. فطلّقها زوجها!

وهي في طريقها إلى الحمّام لأخذ أغراضها صادفت "أبو محيو" كان خارجاً من "القميم[1]" يسوقه حماره. توقف لحظة وسلّم عليها. استغربت كيف يستطيع "أبو محيو" الأعمى أن يتعرّف عليها وهو لا يراها! و لم تكن تصدّق أنّه يعرف النّاس من الرّائحة خاصة وأنّ عمله في جمع "زبل" الحيوانات ونقله إلى "قميم" الحمّام كفيل بأن يجعل الرّوائح تلتبس عليه. لكن ما لم تدركه شمس أنّ "أبو محيو" كان يميّز رائحتها على الرغم من كومة الزبل التي يحملها حماره، وقد كانت حواسه كلّها تستنفر حين تلامس رائحتها أنفه فتفصل ما عداها من روائح حتّى رائحة الحرائق في القميم! فهم "أبو محيو" خلاصة حديث شمس التي أخبرته التّفاصيل المرعبة لحياتها الماضية و لم تعرف السّبب الذي جعلها خلال زمن قصير تبوح بكلّ ما في نفسها مصحوباً بالبكاء والتّنهد والتّحسر على شبابها الضّائع. لم يفوّت الفرصة الذّهبية التي جاءت تسعى إليه، أخبرها أنّ ألف رجل يتمنوها وأنّ "الحمار" محمد ديب هو الخاسر لأنّه طلّقها وأنّه – وهذا الأهم– مستعد للزواج منها وتعويضها عن كلّ ما فاتها. وافقت شمس ومن دون تردد، مع أنّ الرّائحة التي زكمت أنفها وهي تتحدّث إلى "أبو محيو" لا تطاق لكنّها كانت قد عقدت العزم على الانتقام من زوجها السّابق حتّى أنّها أجّلت سفرها، وانتظرت حتّى انتهت أشهر العدّة، وتزوجت "أبو محيو" وسافرت لقضاء شهر العسل في اللاذقية!

ذهبت إلى بيت أخيها –من أمّها– "أبو العبد". فرشت زوجة "أبو العبد" لشمس وزوجها فراشاً على السّطح بحجة أنّ البيت ضيّق

---

(1) القميم: الغرفة التي يوضع فيها الوقود للحمّام.

ولا يوجد لديها مكان لهما، بالإضافة إلى الحرارة ورطوبة الجوّ.. في الليلة الثانية نهض "أبو محيو" ليلاً ليشرب ويقضي حاجته، وكانت "الششمة[1]" وراء المنزل من الطرف الغربي، فأخطأ تقدير المسافة بين الفراش والدّرج ووقع من السّطوح إلى الشّارع ومات على الفور.

لم يستطع "أبو العبد" أن يوفق بين أخته وزوجته التي أسمعتها كلاماً قاسياً جعلها تترك البيت وتخرج قاصدة بيت أبيها. استقبلتها منيفة ومريم بالتّرحاب، لم يكن بيدهما حيلة.. كانتا مجبرتين على التّعامل مع الأمر بحكمة للمحافظة على سمعتهما فعرضتا على أختهما أن تبقى في اللاذقية وتسكن معهما وتكفيانها شر العمل في "حمّام السّوق" وشر الرجال الذين يتزوجونها ليأخذوا تعبها ثمّ يطلّقونها أو يتركونها أرملة. واتفقتا معها على أن تعطياها حصتها من الميراث إن أرادت تشتري بها داراً وتمنحانها مصروفاً إن لم تشأ أن تعمل على أن تنسى مسألة الزواج الفاشلة. وافقت شمس، لم تكن تحلم أن تكون أختاها كريمتين معها إلى هذا الحد، وأن يعوّضها الله عن خسائرها السّابقة بهذه السرعة. وبحجة أنّها لا تريد أن تثقل عليهنّ بمصروفها ووجودها أخذت حصتها وعادت إلى أريحا، اشترت بيتاً على طريق الجبّانة القبلية، واشترت مصاغاً بالباقي، وعادت لتعمل بالحمّام!

صار الحمّام بالنسبة لشمس عالماً خاصاً لا تستطيع الاستغناء عنه.. تحضّر الحنّاء، وتحشيها في رؤوس النّساء وهي تستمع لثرثرة الصّبايا وأخبار البلد.. كانت ماهرة في تحضير حمّام العرائس، مفتونة

---

(1) المرحاض.

بكلمات الإطراء التي تسمعها من أمّهاڤن، يداها اللتـــان لا تغـــرب عنهما شمس الحنّاء أبداً كانتا مصدر سعادة لأجساد هدّها التّعب، لم تكن النّسوة يعرفن أسرار "المسّاج" الذي تقوم به شمـــس فيجعلـــهن يعدن إلى بيوڤن مشتعلات الخيال بحكاياڤا عن أسرار المتعة الجسدية وعلاقة النّظافة واللون بتلك المتعة! ويبدو أنّ النساء لم يكتفين بذلك الشّعور والاستفادة من خبرة شمس بل ثرثرن أمام أزواجهن عمّا تفعله يداها بأجسادهن وعن الإحساس الفريد بمتعة تناول "الكبـــة النيـــة" وحب الرمان والبرتقال عندما تنقطع المياه عن الأجـــران ويتكـــاثف البخار حتّى يمنع الرؤية، وتستلقي كلّ واحدة على الـــبلاط الحـــار بانتظار اليدين العجيبتين اللتين تجوسان بمهارة في الأجساد المسترخية فتبعث فيها نشاطاً غريباً مصحوباً برغبة في الطيران!

تلك الثرثرة جعلت صاحب الحمّام يترصد شمس حتّى انفرد بها في الشّارع الضيق خلف الحمّام بعد انتهاء عملها ليلـــة الخمـــيس، وهمس لها أنّه يريدها. هربت شمس وقلبها يخفق بشدّة، وحين حاول ثانية كانت جاهزة لتلقي الطلب بل والموافقة عليه لكنّها اشـــترطت الزواج فهي لن تعيش معه بالحرام. وافق ديبو آغا علـــى طلبـــها و لم يمضِ شهران على زواجهما حتّى وجدت شمس نفسها في الشّـــارع، استطاع ديبو آغا أن يجعلها توقع على أوراق بيع البيت له وقد أوحى لها بعد أن أقنعها بأن تعطيه مصاغها مقابل أن يكتب لها حصـــة في "الحمّام" أنّ هذه الأوراق هي عقد ملكية نصف الحمّام لها!

* * *

بضعة أيام قضتها هاجر قلقة ومتوترة قبل أن تجد عبد الغفور أمامها واقفاً بالباب ومعه حقيبة ملابسه.

العمل في سوق "الداية" لم يمنح عبد الغفور الراحة النّفسية، تدريجياً صار يشعر بالورطة الخانقة التي وضع نفسه فيها حين قبل أن يعمل عند نقّاش على النّحاس، أصوات الحفر والرنين جعلت أذنيه في حالة صمم جزئي لا يلبث أن يزول بمجرد وصوله إلى الدّار وجلوسه تحت التّينة قرب هاجر وصفاء.. الأيام تمضي وهو يفكّر أنّه ضيّع الحلم الذي رافقه منذ طفولته.

هل يموت الحلم ويصبح مجرد سراب؟

سكّان "السقيّق" كانوا يعرفون جمال الصوت الذي أنعم به الله على عبد الغفور، فسمعوه يرتّل القرآن صغيراً في احتفالات عيد المولد النبوي في الجامع الكبير وفي مناسبات خاصة..

أوّل مرّة تجرّأ فيها عبد الغفور وغنّى دور "أنا هويت وانتهيت" كان في عرس صديق له.. حين وصل الخبر لكبير العائلة الشّيخ عبد الحي انتفض غضباً، ومرّ على بيت أخته التي لم يزرها منذ زواجها، لم يطأ داخل العتبة بل وقف بالباب وصاح: "يا أهل الدار". خرجت فتحية مضطربة وهي تتعثر بخطواتها وحلفت برأس كلِّ الأولياء كي يدخل، لكنّه رفض وقال: "اسمعي يا فتحية، تزوجتِ شخصاً ليس من مقامنا وسكت، أمّا أن يغني ابنك في الأعراس فهذا فسق والله، لا أريد أن أراه في البلد إن فعلها ثانية، وأنتِ تعلمين أنّي أستطيع إبعادك وإبعاده من هنا". واستدار عابراً الفسحة صوب الحمّام الوسطانية غير آبهٍ بنداء أخته، ولم ينتظر ليسمع جوابها.

عصر كلّ يوم كانت تلك الصّورة الأخيرة لأريحا تشغل بـــال عبد الغفور وتجعله مكتئباً وغير قادر على التّأقلم مـــع الأصـــوات في دكان النّقاشة.. كان صوت الغناء المنبعث من روحه أقـــوى، يخـــيّم فوق رأسه وينخر في عظامه ويبعده عن إتقان صنعته ويعرّضه لغضب معلّم الحرفة..

لكنّ عبد الغفور بطبعه لم يكن على استعداد لعمل شيء يخرجه من حالة الاستسلام التامة لقدره، فهو مؤمن أنّ نصيبه مـــن الـــدّنيا سيأتيه وإن لم يسعَ إليه.. إلاّ أنّ حدثاً هاماً انتزعه فجأة مـــن حالـــة الخمول وأعاد إليه الرغبة بتحقيق حلمه في السّفر إلى حلب ليـــتعلّم أصول الموسيقى على يدي الشّيخ عثمان الموصلي[1]. التقـــى عبـــد الغفور بالملا عثمان مرّة واحدة عندما كان طفلاً بصحبة خاله الذي كان يحترم الشّيخ عثمان لمكانته لدى السّلطان عبد الحميد، ولكونـــه كان مقرئاً مشهوراً، وموكلاً من السّلطان بخطبة الحج.

حين وصل عبد الغفور إلى الشّاطئ، كان مقهى "شناتا" مُنـــاراً بأضواء الكازينو الذي لا يبعد عنه سوى خطـــوات، بالإضـــافة إلى أضواء المسرح، وقد ألقت أشجار الزنزلخت الكثيفة بظلالهـــا علـــى الرواد الذين ينتظرون على الدّرب التّرابـــي المزدحم منذ العصر.

عندما وصلت سيارة "البونتياك" التي تقلّ "السّـــت" ووراءهـــا "البوسطة" التي يستقلها أعضاء فرقتها الموسيقية قادمة من بيروت إلى

---

(1) للموصلي موشحات وأغاني أخذها عنه سيد درويش ونسبت إليه، منها زوروني كل سنة مرة وأصلها موشح "زر قبر الحبيـــب مـــرّة" وأغنيـــة "طلعت يا محلى نورها"، وغنى من ألحانه ناظم الغزالي يـــا أم العيـــون السود، وصباح فخري "فوق النا خل" وآه يا حلو يا مسليني.

ساحة الشّيخ ضاهر كانت العربات بانتظارهم لنقلهم إلى المسرح.

وقف عبد الغفور بعيداً تحت شجرة زنزلخت يتأمل العربات ويتفحص وجوه القادمين إلى الحفل.. جاءت "نورية" في عربة أجرة مع زوجها، نزلت وهي تجرّ قدميها بصعوبة وتتأرجح تحت ثقل بطنها، قبلها بدقائق وصلت عربة "سكينة خانم" بصحبة سائق خاص ومعها ابنتها وزوجها عاصم آغا.

توهج الحلم أمام ناظريه عند وصول سيارة السّت، لم يهرع كباقي النّاس لاستقبالها، كان يرنو إليها من بعيد ويتخيّل لقاءً خاصاً يجمعه بها وهي تنصت إلى صوته بإعجاب..

في تلك اللحظات الاستثنائية لم يفكّر عبد الغفور بردّة فعل هاجر حين ستعلم أنّه أنفق أجرة شهر كامل للحصول على بطاقة لحضور الحفل بل لم يأبه لشيء بعد سماعه لعزف القصبجي الرائع على العود قبل أن تبدأ أم كلثوم الغناء، وحين صدح صوتها بأغنية "يا آسي الحي[1]" كان عبد الغفور قد حلّق في سماوات بعيدة مع اللحن وخامره شعور بالنّشوة جعل الأحلام تناوشه ثانية وتخيّل أنّه سيغني يوماً في القاهرة ويقف على المسرح في حفل تغني فيه أم كلثوم.. لم يكن ذلك شيئاً مستحيلاً بالنّسبة له بل نتيجة طبيعية يجب أن يصل إليها؛ لأنّه يمتلك أهم المقومات باعتقاده، "الصوت الجميل، والحلم.

لم ينتبه أحد وسط الحماس الشّديد للغناء والتّصفيق والتّهليل إلى وجه "نورية" الذي تلوّن واحتقن وجحظت عيناها.. ومع أول مقطع غنّته أم كلثوم من أغنيتها الثّانية "كم بعثنا مع النسيم سلاماً" صرخت نورية مرتبكة، لم ينتبه زوجها إلاّ على يدها التي تشدّ ذراعه

(1) ألحان أبو العلا محمد، على مقام الرست، شعر إسماعيل باشا صبري.

بقوة، حينها فهم أنّها تلد! ساعدها على الخروج من الصّالة بصعوبة ولم يطل الأمر بهما فقد كانت العربات في الخارج تنتظر السّاهرين لترجعهم إلى بيوتهم.. ركب معها الحنطور وسط صراخها ودهشة السّائق الذي التفت إليه قائلاً: "أتريد أن أمر على الداية "نيازية؟". قالت نورية: "لا، أريد أولجا".. ابتسم السّائق باستغراب ونفّذ طلبها.. تمتم زوجها: "حزين وواعي، تريد أولجا، مزمار الحي لا يطرب!".

لم تلحق أولجا نورية فقد نزل الطّفل قبل وصولها إلى السّرير، وكان على أولجا أن تقطع حبل السّر وتعتني بنورية التي كانت تترنم بمقطع من أغنية أم كلثوم "نحن قوم مخلدون وإن كنّا خلقنا لكي نموت غراماً"

وجاء رشدي مبتسماً!

وفي صباح اليوم التالي صدرت الصحف المحلية "صدى اللاذقية، والرغائب" تحمل تفاصيل الحفل الذي أقامته أم كلثوم.. التي وجدت طريقها إلى القلوب من خلال الأسطوانات وما تكتبه الصّحف والمجلات عنها. صدرت الصّحف صباح التّاسع عشر من أيلول 1931 تتحدّث عن حفل أم كلثوم وما قاله "منح هارون" حين قاطعها وهي تغني "إن كنت أسامح". وتصدرت الصّحف قصيدة كتبها محمد سلامة صوفي يقول في مطلعها:

هي ليلة القدر ذي أم ليلة الطرب... فيها تجلت لنا فنانة العرب

* * *

البيت الثّاني على اليمين

بيت أم عبد الله

كان بيت أم عبد الله ملاصقاً لبيت عاصم آغا، فسحته السّماوية تحوي شجرة خروب كبيرة يمتدّ فيؤها على مساحة المصطبة التي تعلو قليلاً عن أرض الدّيار، يتصدّر المصطبة خُوان خشبي من دون مسند ومن دون وسائد تجلس عليه حسناء شقيقة "أم عبد الله" معظم النّهار تتأمل الوجود السّاكن حولها وجبينها مقطب طيلة الوقت وشفتاها مطبقتان لا تنفرجان إلاّ وقت الطّعام!

كانت خاصية التّأمل لدى حسناء نتيجة طبيعية لما تعانيه من ظلم القدر الذي لم تستطع أن تفهم لماذا اختارها من دون نساء الحي ليبلوها بتلك المصيبة التي شاركها فيها شقيقها التوأم لكنّه تميّز عنها بقدرته على التّأقلم مع مَنْ حوله وعندما صار في سن الصّبا دفعه والده لتعلّم صنعة النّجارة مع شقيقه لكنّه فشل في التعلّم وفضّل أن يعمل في كرّاج زكريا يصنع الشّاي والقهوة وينظّف السّيارات. عملٌ خفيف يتناسب ومقدراته المحدودة ويجنّبه الوقوع في أخطاء قد تؤذيه جسدياً ونفسياً.

لم يعلم حامد عن طريق الرابط العاطفي الخفي الذي يمتلكه التوائم بما حلّ بشقيقته حسناء بعد أن قرّر الزواج من رمزة ابنة أم محمّد اليتيمة. كان العرس نهاية الحياة بالنّسبة لحسناء فقد سلخ منها الشّخص الوحيد الذي كانت تشعر أنّ بإمكانها التّفاهم معه وأنّه لن يتخلّى عنها أبداً. تقلّصت وجبات طعامها، وهجرت جلستها في فسحة الدّار واعتزلت في غرفة داخلية صغيرة لا نوافذ لها.. كانت تخاف الضوء وتكره رؤية النّاس العاديين الذين يتمتعون بحواسهم ويعرفون كلّ شيء في الوجود. كانت تحسد تلك الكائنات الصّغيرة

التي تمتلك أجنحة وتنام داخل شجرة الخروب عند المساء. لماذا لم تخلق مثلها تستطيع أن ترى الكون من مكان مرتفع؟ الكون بالنسبة لحسناء لم يتجاوز يوماً حدود الشّارع ووجوه أولاد الجيران وطعامها. المرّة الوحيدة التي اتّسع فيها الكون يوم اصطحبتها أم عبد الله إلى "الزيارة"؛ ولأنّها لم تفهم لماذا يضعون النّاس في هذه الحفر امتلكت فضولاً استثنائياً لتجربة الأمر فقد أسعدها النّسيم الرائق وكمية الورد والآس المزروع قرب اللوحات الحجرية التي لم تعرف الهدف منها. يمكن للفضول في حالة حسناء أن يكون قاتلاً فقد كانت تتحين الفرصة للخروج من البيت بعد أن أعيتها الحيلة لإقناع شقيقتها بأخذها إلى ذلك المكان مرّة أخرى. جاءتها الفرصة في عصر يوم كانت أم عبد الله في الاجتماع الدوري لسيدات الحي في بيت رقيّة وكان الجوّ بارداً وأبواب الدور مغلقة، انسحبت حسناء بهدوء من البيت واكتشفت وهي تسير وحدها في الشّارع كم هو رائع أن يملك المرء حريته.. لم تجد صعوبة في الوصول إلى الزيارة فقد كان الطريق إليها سهلاً واكتشفت أنّها تملك ذاكرة جيدة فقد عرفت القبر الذي جلست شقيقتها قربه ولم تفهم حينها لماذا بكت وبمَ كانت تتمتم طيلة الوقت. حين حلت العتمة بدأ الخوف يرعش قلبها وصار جسدها يرتجف من البرد.. لازت بحجارة القبر، سالت دموعها بغزارة، حاولت أن تصرخ مستنجدة بأختها لكنّ صوتها لم يخرج.. كيف يستطيع البشر أن يعبّروا بالكلام وهي لا تستطيع؟ لماذا كتب عليها أن تعيش وسط هذا السّكون المخيف؟ خرجت من المقبرة وركضت بكلّ قوتها، لم تعد تميّز الطريق جيداً، لم تكن الشّوارع منارة في ذلك الوقت وفجأة وجدت نفسها عند الشّاطئ..

كمية الماء الكبيرة والممتدة بلا نهاية كانت مخيفة، المطر الذي هطل فجأة والعاصفة التي هبّت جعلتها تجلس أرضاً وتغمض عينيها منسحبة من المشهد المرعب حولها. لم تكن تسمع الهدير، لم تكن تسمع صوت الرّيح لكنّها أحسّت بها تقتلعها من مكانها، أحسّت بغضب البحر الذي يرمي رذاذ مائه على الشّاطئ بقوة.. منذ وعت على العالم من حولها وهي طفلة وفهمت أنّها مختلفة عن كلّ البشر؛ لأنّها ترى وتتحسس الأشياء بأصابعها لكنّها لا تستطيع سماع أصوات الكون ولا تستطيع أن تعبّر عمّا في داخلها، انسحبت بهدوء وتقوقعت داخل صدفتها العظمية الهشة، كانت تفهم أنّ البشر حولها ينقسمون إلى قسمين قسم ينظر إليها بشفقة وآخر بحذر وريبة. لم تفهم لماذا غضبت شقيقتها منها عندما تعثرت وأوقعت جرّة الماء وكسرتها! لم تفهم بعد ذلك سبب المعاملة الفظة التي تتلقّاها كلّما وقع شيء وانكسر في البيت نتيجة عدم انتباهها.. لهذا اختارت أن تعاقب نفسها بدل أن يوقع الآخرون العقاب عليها. صارت تجلس النّهار بطوله على خوان الخشب لا تتحرّك حتّى جاء اليوم الذي رأت فيه وداد تحيك الصوف بمخرز صغير، حدّقت فيها طويلاً واكتشفت أنّ بإمكانها تعلّم تلك الحركات بسهولة!

أحضرت لها شقيقتها ما يلزمها وصارت تتقن ذلك العمل وتخترع غرزاً جديدة و لم تعد تهتم بأن ترفع رأسها لرؤية العصافير الصّغيرة التي تمتلك أجنحة تساعدها على الذهاب بعيداً والعودة كلّ مساء لتنام في شجرة الخروب.. صارت تنسج أشكالاً تشبه تلك الطيور بمخرزها الصّغير، وتصنع منها دمى تحشوها بالصّوف فتصبح طيوراً لكنّها تشعر بالخيبة فهي لا تطير!

لم يطل بها الحال فقد ملّت من تلك الأشياء التي لا روح فيها ولا يمكنها أن تتحرّك فامتنعت عن نسجها وصارت تنسج أثواباً صغيرة لأطفال في عمر السنة. حاولت شقيقتها أن تقنعها بنسج أشياء للكبار تبيعها لسيدات الحي فرفضت.. امتنعت حينها أم عبد الله عن شراء الصّوف لها، وكان ذلك العقاب أقسى عقاب يقع عليها طيلة حياتها.. فصارت تنقض ما نسجته وتعيد نسجه من جديد، حينها لجأت شقيقتها للتخلّص من تلك الأثواب ببيعها لأحد التّجار كي لا يذهب ثمن الصّوف هدراً. عندما لم تجد حسناء الأثواب في بقجتها مزّقت ثوبها ونكشت شعرها وأضربت عن الطّعام لأيام.. ثمّ انصاعت لأختها ثانية وعادت لتجلس على الخُوان في فسحة أرض الدّار تراقب العصافير فوق شجرة الخروب وأصابعها تتحرّك بالمخرز الصّغير وكأنّها تنسج أشكالاً لتلك الطّيور، لكنّها كانت طيور من الوهم أجنحتها من الهواء!

صفرت الرّيح بشدّة، أحسّت أنّ شيئاً غامضاً يلطم أذنيها، كانت الأرض تنقل إلى جسدها ذبذبات غريبة لكنّها لم تفتح عينيها، كانت تخشى أن ترى ما يجري حولها.. بقيت ساكنة ورأسها مخفي بين ساقيها، شعرت بيد تمسك ذراعها، ارتجفت بقوة، فتحت عينيها بذعر، كان وجهه يقطر ماءً وفمه يتحرّك بكلمات مبهمة، أشعرتها قوة أصابعه على ذراعها بشيء من الحماية، نهضت ببطء وظلّت تراقب وجهه.. ملامحه ليست غريبة، له لحية قصيرة بيضاء، وعينين عميقتين وعلى رأسه قلنسوة صغيرة.. صمت قليلاً منتظراً منها أن ترد على أسئلته لكنّها لم تفعل، عاد يحرّك فمه ويشير بيديه. نفرت من عينيها الدّموع، وأشارت إلى فمها وأذنيها.. ابتسم

وسحبها من يدها وسار بعيداً عن مركبه المربوط إلى صخرة قـــرب الشّاطئ.

بعد هذه الحادثة لم تغادر الغرفة المعتمـــة، لم تـــرَ الضـــوء، لم تعرف ماذا يجري خارج حدود العالم الذي رأته في رحلتها الغريبـــة والذي شكّل مخيلتها للسنوات الخمس الأخيرة من عمرها حين أفاق الحي على صراخ أم عبد الله عندما دخلت غرفتها ورأتها قد فارقـــت الحياة.

كان الرحيل عن الحي والبلد موازياً عند النّساء للرحيل الأبدي فكلّ شخص يغادر الحي مهما كانت جهته وطريقته يتـــرك جرحـــاً وغصة وراءه ومادة للحديث المسائي الذي ترتق به النّسوة جراحهن بخيوط الأماني والأوهام. هكذا كان رحيل "حسناء" بالنّسبة لهنّ.

أهل الحي كانوا يخافون بعد موت حسناء من الأثر السّلبـــــي الذي سيتركه موتها على شقيقها التّوأم حامد الذي قابـــل رحيلـــها بإضراب عن العمل والطّعام لم يدم سوى أسبوع استطاع مجيء ابنـــه الوحيد إلى الدنيا أن ينتزعه من عزلته وألمه.. خاصة وأنّ الولد لم يكن أخرس.

العاهة التي بقيت غصة في قلب زوجته "رَمْزَة" طيلـــة عمرهـــا كانت حلماً عند فتاة أخرى في الحي تمنّت لو أنّ الله يرزقها عريســـاً وليكن صاحب عاهة، على مبدأ ظلّ رجل...

* * *

البيت الرابع على اليسار
بْشِيرة وعبد المعطي أفندي

...

البيت الرابع الذي ينزل إليه بدرجات يختلف قليلاً عن بيت ماري فدرجاته تؤدي إلى ممر معتم على جانبيه غرفتين تطلّ نوافذهما على الشّارع، ثمّ تأتي الفسحة التّرابية المرصوفة ببحص أسود صغير والمزروعة بأشجار الليمون والرمان. البيوت عموماً على الطرف الأيسر أخفض من الشّارع قليلاً بينما تميّزت البيوت على اليمين بأنها أعلى من الشّارع قليلاً، معظمها يصعد إليه بدرجة أو اثنتين بدءاً من بيت أم محمّد وانتهاءً ببيت أم عيشة التركمانية الذي تليه الفسحة المخيفة ذات السّور الحجري القصير والذي تتصدّره جميزة ضخمة لبيت القدسي، بعد المنعطف على اليسار بيت لعائلة هارون، يليه بيت سكنته نجلا جديد مع شقيقها صلاح جديد. فقط سرايا عاصم آغا حديقتها تقريباً مساوية للشارع أمّا الغرف الداخلية فهي أعلى قليلاً من الحديقة.

البيت الخامس عند المنعطف على اليسار ينزل إليه بثلاث درجات لأم جميل الخبّازة التي لم يعرف أهل الحي لماذا سُميت أم جميل و لم يرَ أحدٌ ولدها وزوجها!

كانت تكشف الغيب "بحبات الفول" في الغربال! وتفتح بالفنجان وتقرأ الكف.. و لم يختلف مظهرها عن مظهر جنيات الحكايات بشعرها الأبيض المشاكس والمتمرد دائماً وملامحها بعينيها الواسعتين الجاحظتين والتّجاعيد حول فمها وجبينها الواسع

وثيابها الملونة وزينتها وأساورها وكثرة الأشياء التي لا يعرف زائرها لماذا تضعها في غرفتها المعتمة ذات النّافذة المحاطة بشبك الحديد والمغلقة على روائح غريبة في الدّاخل.. كلّ ذلك يلقي حولها ظلّاً من الغموض ويبعد عنها صغار الحي ويشيع حولها الأقاويل التي تتبادلها نساء الحي في أمسياتهن، فيسردن ما يعرفنه وما يتخيلنه من قصصها التي لم يعرف أحد إن كانت قد حدثت بالفعل.

سطح دار أم جميل كان مساوياً لسطح القنطرة التي تربّع فوقها بيت الموظف عبد المعطي أفندي. لم ترَ إحدى النّساء في الحي يوماً عبد المعطي أفندي يسير مرفوع الرأس إلاّ بعد أن يعبر الحي إلى الشّارع الرئيس عندها يتنحنح ويرفع رأسه ويتابع طريقه. ولم يتحدث يوماً إلى أحد الصبية أو أطفال الحي بصوت هامس.. ولم تقصده امرأة في الحي لأجل كتابة عريضة أو مكتوب أو قضاء حاجة في مؤسسة أو محكمة إلاّ ولبّى الطلب بسرعة وبطيب خاطر. وعلى الرغم من كلّ خصاله الحميدة والمديح الذي غمره به سكّان الحي ومحبتهم له، إلاّ أنّ عبد المعطي أفندي لم يستطع البقاء أكثر من سنة في بيته الكائن فوق القنطرة، وبعد رحيله عرف سكّان الحي السّبب. وكانت نوافذ بيته الشّاهد الحي على ما حدث! لقد تعرّض عبد المعطي أفندي للأذى من جيرانه فكان بيته كلّ ليلة يُرمى بالحجارة.. كُسرت النّوافذ واضطر إلى لصق جرائد على ما تبقى من الزجاج المكسور لكنّ الرجم صار أعنف وزاد عما قبل. تحمّل عبد المعطي أفندي ما يحصل بصمت، لكنّ حجراً اخترقت الورق ذات ليلة وأصابته وهو واقف وسط غرفته وشجّت رأسه. حينها لم يعد عبد

المعطي أفندي يحتمل فترك البيت ورحل عن الحي.. واشترى البيت الذي كان مؤجراً لعبد المعطي أفندي عبد القادر الصاري ومن يومها توقفت الحجارة عن الانهمار عليه!

عبد المعطي أفندي لم يتهم أحداً و لم يقدم شكوى في "الكركون" لكنّ أصابع الاتّهام اتّجهت كلّها إلى أم جميل الخبّازة التي قالت الإشاعات إنّ عبد المعطي أفندي -الذي لم يكن يؤمن بالسّحر ويصفها في جلسات الرجال في المقاهي بأنّها مشعوذة ويدحض بالبرهان والحجج كلّ ما تقوم به مستعيناً بآيات من القرآن الكريم- قد تسبب في قطع رزقها فنقص عدد زبائنها إلى درجة أنّ أياماً تمرّ من دون أن يطرق باب بيتها زبون واحد.

لكنّ الحقيقة لم يعرفها أحد حتّى باحت بها شقيقة "بْشِيرة" إثر شجار بينهما جعل صوتيهما يعلوان ويصلان أسماع أهل الحي حين هدّدت أختها بفضحها.

ظهرت براءة أم جميل واستعادت نشاطها السّابق وزبائنها لكنّ أهل الحي عجزوا عن تفسير تصرف بْشِيرَة وبقي السّؤال معلّقاً "لماذا كانت ترمي الحجارة على بيت عبد المعطي أفندي؟".

كانت بْشِيرَةْ في ذلك الوقت قد تجاوزت الثلاثين من عمرها و لم تتزوج مع أنّها ابنة عائلة معروفة وغنية لكنّ شيئاً غامضاً كان يحدث حين تأتي الخاطبة أو أم العريس لرؤيتها، تشعر مباشرة بالنّفور وتخرج من البيت بسرعة ولا تعود، أمّا الجيران في الحي فلم يكن هناك أحد من جيل بْشِيرَة -وإن وجد- لن تغامر أمّه بجعلها كنتها فجميعهن يعتقدن أنّ بْشيرَة فيها شيء غير مريح على الرغم من كونها جميلة وست بيت ممتازة.

العجائز المؤمنات كنّ يرجعن ذلك للقسمة والنّصيب فليست الوحيدة في الحي التي بقيت عزباء طيلة عمرها، أمّا زبائن أم جميل اللواتي يقصدنها لشرب القهوة وفتح الفنجان فقد أقسمن أنّ أم جميل هي السّبب فقد كتبت حجاباً لبْشيرة بالبغض لـذا؛ ينفضّ عنها الخطّاب.. وضاعت الحقيقة وسط الهمسات والشّائعات وكانت أبسط بكثير من تلك الأقاويل. لقد أحبت بْشيرة عبد المعطي أفندي لأخلاقه العالية وشخصيته المميزة، فكانت تصعد ليلاً إلى السّطح وتقفز منه إلى سطح دار أم جميل، وتشرف على نافذة غرفة نوم عبد المعطي أفندي، تراقبه وتتأمله وخطر لها يوماً أن تهديه صحن جميز وكان ضوء القمر يضيء السّماء، تسلّقت الجميزة الواقعة تحت القنطرة في أرض بيت القدسي، وقطفت له أطيب الحبات، وغطّتها بأوراق خضر، وصعدت السّطح ونقرت نافذته.. حين رآها جفل، وأغلق النّافذة في وجهها بقوة.

لم تُقدّر بْشيرة المطعونة في كرامتها أنّ ذلك ردّ فعل طبيعي لرجل يخشى على سمعته وسمعتها أيضاً خاصة وأنّه غريب عن الحي ووحيد، بالإضافة إلى أنّ أخلاقه لا تسمح له باستغلال جارته.. كان كلّ ما رأته أنّ عبد المعطي أفندي قد جرح مشاعرها وكسر قلبها ورفضها كأنثى فقرّرت أن تنتقم منه وتجعله يغادر الحي..

* * *

البيت الثّالث على اليمين

بيت عاصم آغا

...

في بداية الأربعينات تزوج "عاصم آغا" من "نسرين ابنة سـعيد حورية" صاحب أكبر محلات بيع الذهب في سـوق الصـاغة.. لم يعرف أحد بالضبط ما الذي حصل وكيف، فجأة أمر عاصم آغـا زوجته سعدى بنقل حاجياتها إلى الغرفة الصّغيرة في الطّابق العلـوي، وأفرغ المطبخ والصالة من الأثاث، وخلال أيام رأى أهل الحي منظراً غريباً، فقد جاء عاصم آغا برفقة "معلم بلاط" لبناني يتكلّم بلهجـة غريبة ويلثغ مخرجاً الأحرف من بين أسنانه، فهو لا يكاد يفتح فمـه أثناء الكلام، ولم تكن طريقة كلامه فقط هي الغريبة بـل ملابسـه أيضاً، فقد كان يلبس بنطلوناً ضيقاً وقميصاً ملوناً بأزرار مغلقة وياقة عالية تشبه قمصان نابليون! وينتعل حذاء لامعاً، على عكس ما كان يلبسه معلمو الصنعة أبناء البلد والذين أتوا مـن حلـب للعمـل في اللاذقية بشراويلهم السّوداء الواسعة حتّى الركبة الضيقة من الأسفل، وأحذيتهم المكسورة عند الكعب. طلبت الست نسرين مـن المعلـم "جرجي" أن يكون البلاط من خشب الباركيه الطبيعي، وحـدّدت رغبتها بأن تفرش غرفة النّوم ببلاط من خشب الزان الأحمر، وغرفـة الضيوف بخشب الجوز، والصّالة من خشب السّـنديان الأمريكـي! وطلبت أن يفرش المطبخ بالرّخام..

أشار عاصم آغا هامساً لنسرين أنّ بلاط الباركيه لا يناسبه جوّ اللاذقية الرطب بالإضافة إلى صعوبة العناية بـه، لكنّهـا حـردت

وأصرّت، فأرسل إلى دمشق ليحضر لها طلبها، وخلال أسابيع كانت الورشة القائمة في البيت تبذل أقصى جهدها في تنفيذ أوامر السّيدة، وجيء بالأثاث الفاخر من بيروت، وتحدّثت اللاذقية لأشهر طويلة عن العرس الأسطوري الذي أقامه الأغا لزوجته الثالثة. ومنذ ذلك اليوم لم تطأ قدماه سلّم الطابق الثاني، و لم يرَ إحدى زوجتيه.. كانت نسرين قد منعت سكينة وسعدى وابنتيهما من النزول إلى بيتها أو الدخول إلى مطبخها، وحين يرسل عاصم آغا حاجيات الطبخ والمؤونة، كانت تأخذ ما يلزمها، وتضع لضرتيها في سلة الخيزران ما يتبقى وتسحبه سعدى بالحبل!

...

لم يكن ذلك اليوم الذي جاءت فيه سعدى إلى سرايا عاصم آغا بعيداً و لم تهنأ في عيشها، فقد كان شعورها بالعزلة يتفاقم يوماً بعد الآخر فالأغا لم ينظر إليها نظرته إلى زوجة على الرغم من معاشرته المنتظمة لها، وبحسها الفطري فهمت سعدى مكانتها عنده، وعرفت أنّ الأغا على الرغم من عدم تمسكه بالشعائر الدينية إلاّ أنّ لديه خوفاً كبيراً من الله يجعل ذمته المالية نظيفة دائماً فهو يدفع الزكاة ويزيد عليها ويلزم الجامع في رمضان، والأهم من كلّ ذلك أنّه تزوجها وعلّمها أن تصلي وصارت تدريجياً تشعر أنّها جزء من كيان البيت لا غنى لها عنه و لم تعد تسافر لرؤية أهلها في القرية حتّى يطلب منها الأغا السّفر، وارتضت بأن تخدم ضرتها متحملة كلّ ما يصدر عنها من فظاظة في المعاملة، وكانت تذكّر نفسها دائماً بأنّ ضرتها هي سيدة البيت ولن ترقى هي أبداً لتكون منافسة لها.

لم يغب ذلك اليوم بتفاصيله الصّغيرة عن ذاكرة سكينة أبداً..

كانت "سكينة" تصفّ صحون المهلبية في صينية النّحاس الكبيرة وذهنها مشوش حين سمعت صوت نحنحة زوجها وهو يعبر الفسحة الخضراء ويصعد الدّرج بخطوته الثقيلة التي تهزّ الأرض بقوة.. غافلتها دمعة وهي المعروفة بشح دمعها وصلابتها، استدارت لتحمل الصينية وتضعها على الطاولة قرب الشبّاك المفتوح على الغرب فخذلتها يداها وانزلقت الصّحون الخزفية الرقيقة على الأرض، وتحطمت ناثرة الزجاج الممزوج بالمهلبية في أرجاء المطبخ. تماسكت قليلاً وهي تسمع صوت ضحكة مكتومة ترافقها قهقهة عالية تأتي من النّافذة المفتوحة في غرفة النّوم الجديدة في الطّابق الثاني. همست لنفسها "ليلة وتمرّ ولن تكون سوى خادمة". أراحها إحساسها بأنّها ما زالت تملك القوة والسّطوة التي تجعل زوجها يصدع لأمرها كما كان قبل عشرين عاماً من تاريخ زواجهما لكنّها ما زالت تحمل في نفسها بعض الشكّ من إمكانية تغيّر الأغا حين ستلد له "سعدى" الصّبي الذي عجزت هي عن إنجابه.

كانت "سامية" تلعب تحت النخلة الضخمة بانتظار المهلبية حين سمعت صوت تحطم الصّحون، ركضت إلى المطبخ ووقفت عند العتبة تراقب وجه أمّها المحتقن بالغضب، ولم تجرؤ على التّقدم خطوة إلى الدّاخل، كانت نظرة أمّها الحازمة كافية لتبتعد وتجلس تحت النخلة بصمت.. أعادت المشهد الذي لم تفهمه، والدها الذي وعدها منذ أيام بأن يجلب لها عروساً حين طلبت منه "لعبة" يأتي مصطحباً صبية ترتدي ثياباً ملونة وتلف شعرها بمنديل أحمر بلون البلح الزغلولي المتدلي من النّخلة.. وأمّها التي وعدتها بصحن المهلبية تحطم الصحون في حادثة لم يسبق لها مثيل في البيت، فلم تعرف أحداً يحرص على

الأواني ويرتّبها مثل أمّها.. وها هي وحيدة منبوذة تحت النخلة لم تحصل على لعبة بثوب العرس ولا على صحن مهلبية!

مرَّ زمنٌ طويل قبل أن تستعيد سكينة وعيها، ورأت نفسها على السّرير ذي الأعمدة الحديدية المنتهية بتاج نحاسي، وقد أرخيت "الناموسية" فوقها.. لا تعرف ما حدث بالضبط، كلُّ ما تذكره أنّها كانت واقفة قرب شبّاك المطبخ تتأمل الفسحة والزّهور والنّخلة وتتحسر على ابنتها الوحيدة الحزينة ثمّ تشوشت الرؤية دفعة واحدة وانزلق جسدها في هاوية.

لم تكن وحدها في الغرفة فقد وقفت فتاة ريفية جميلة قرب السّرير تراقبها باهتمام مصحوب بابتسامة.. حدّقت فيها متسائلة، ارتبكت الفتاة و لم تنبس بكلمة، أسرعت إلى "القنصلية" صبت لها كأس ماء وناولتها حبة دواء. أدارت سكينة رأسها صوب الجدار فقد عرفت أنّ "الخادمة" الواقفة بين يديها هي ضرّتها سعدى التي خطفت زوجها وتسببت في كسر طقم الخزف هدية والدها الأغا الغالية يوم عرسها والتي لم يكن أحد في اللاذقية في ذلك الوقت يملك مثله.. فقد كانت حتّى الأسر الغنية تستخدم الأواني النّحاسية.

تجاوزت سكينة الأربعين حين تزوجها عاصم آغا بعد وفاة والدها تحت ضغط من أبيه بسبب تمركز ثروة العائلة بيد عمه المرحوم والذي لم يكن له وريثٌ ذكر! وقد كانت في ذلك الوقت أرملة لم تخلع الحداد على زوجها الذي لم تنجب منه والذي شاع أنّها أحبته بجنون لكنّ سكينة أبدت وداً ومحبة لابن عمها لم يتوقعهما أحد وتغاضى الجميع -حتى زوجها- عن رغبتها في إدارتها "للضيعة" و"الأوتيل" ومحل "المال فاتورة" لسنوات قبل أن تنجب "سامية"

حينها تنازلت لعاصم عن كلّ شيء و لم تندم، فقد كان ابن عمهـــا حريصاً على أن تراجع الحسابات وتعرف كلَّ صغيرة و كـــبيرة عـــن أملاكهما.. وفي غمرة انشغالها بتربية ابنتها وانتظار المولود الثـــاني – الذي لم يأتِ– تركت سكينة كلّ شيء بيد زوجها و لم تعـــد تهـــتم لإيرادات الأرض والدكّان والأوتيل..

و لم يكن عاصم آغا يفكّر بالزواج من امرأة غير ســـكينة، و لم يكن يفكّر بالوريث الذي أقلق منام سكينة وجعلها عصبية ومتـــوترة طيلة الوقت، كان همه الوحيد توسيع تجارته و"تضخيم" ثروته وجاء زواجه من سعدى استيفاء دين لا أكثر ولا أقل!

تعوّد الأغا أن يأخذ مواسم الفلاحين لقاء ما يشترونه بالـــدين من دكّانه طيلة العام.. وعاماً بعد آخر تراكمت الديون على أهـــل سعدى و لم يستطيعوا الدفع. كان الأغا في زيارة لضيعته "الأمـــودة" يجمع ديونه حين لمحها تجمع زهوراً من البستان المحيط ببيتـــه الريفـــي فسأل عنها وعرف من تكون.. وحين جاء أبوهـــا يعتـــذر للأغـــا كالعادة عن سداد الدين لضيق ذات اليد بسبب خراب الموسم للسنة الرابعة على التوالي، قال الأغا بجدية كاملة: "بل لديك ما تسدّ بـــه الدين" لم يطل ذهول والد سعدى، تنفّس الصّعداء حين فهم قصـــد الأغا وسرعان ما أحضر ابنته لتقدم الطاعة للآغا الذي اتّخذها زوجة وسط استغراب وذهول أهل "الضيعة" الذين تعودوا على بيع بنـــاتهم أو إرسالهن ليعملن خادمات في بيوت أغنياء اللاذقية..

بقيت سعدى طيلة أسبوع تخدم السّيدة سكينة بعد إفاقتـــها مـــن غيبوبة السّكر التي جعلت عاصم آغا يحرّم دخول كلّ الأطعمة المضـــرة بصحتها إلى البيت، التزمت العائلة كلّها بالحمية إكراماً للسيدة سكينة!

وعلى الرغم من تلك العناية التي أولاها لها زوجها إلاّ أنّهـــا لم تستطع احتمال وجود ضرتها بجانبها طوال الوقت على الـــرغم مـــن تعمّق إحساسها يوماً بعد يوم بأنّ الأغا لا يهتم بها وأنّها لن تكـــون فعلاً أكثر من خادمة بصفة شرعية.

كبر إحساس سكينة بالغيرة من سعدى حين بدأ بطنها يكـــبر وظلال الصبـــي الذي يمكن أن تنجبه ترخي بثقلها على قلبها المتعب فبالغت بنبش أعمال لا لزوم لها كي لا ترتاح ضرّتها أبداً وتصل آخر النهار إلى الفراش الممدود في الغرفة الصّغيرة وهي لا تكاد تســـتطيع الوقوف على قدميها... عُرفت السيدة سكينة بوسواسها في النّظافـــة الذي تضخم بشكلٍ مزعج في وجود سعدى و لم تقلّل منه حتّى بعد أن وضعت سعدى "بنتاً" وزال خطر وجود الصّبـــي الذي توهمـــت أنّ زوجها سيبعدها من قلبه وحياته لأجله!

حين صارت وداد في الخامسة من عمرها كانت أختها ســـامية قد أصبحت صبية قامتها القصيرة الممتلئة يتوجها وجه بيضاوي بعينين عسليتين واسعتين وشعر كستنائي كانت تصر على قصه دائماً مرسلة على جبينها غرّة كثيفة تجعل وجهها مدوراً كما كانت تحبّ. وبـــدأ الخطّاب يتوافدون على سرايا الأغا.. سامية التي أخذت القسم الأكبر من حب أبيها ورعايته، كانت المدلّلة التي لا يرفض لهـــا طلـــب، لم يعجبها أيّ ثوب في محلات حلب ولا دمشق وبقيت أشهر طويلـــة تبحث مع أمّها وعريسها على ما يناسبها من دون جـــدوى، فقـــرّر عزيز أن يحضر لها ثوب الزفاف من باريس وكان وقتها يقضي عـــام دراسته الأخير للحقوق هناك.. الثّوب الأبيض ذو الذيل الطّويل الذي يشبه أثواب ملكات القرون الوسطى بقماشه المطرز والألماس الـــذي

يزيّنه، والتاج الذي وضعته على رأسها كانا موضع حسد من بنات أثرياء اللاذقية لكن مع ذلك لم يعجب الثوب سامية، وجلست تبكي قبل عرسها وهي تقيسه وتتحدّث عن عيوبه.. في تلك اللحظة التفتت أعناق النساء الموجودات كلّهن إلى الطّفلة الصّغيرة التي لم تتجاوز السّادسة من عمرها الواقفة عند العتبة والتي همست بصوت خفيض "خذيه لستي رقيّة ترفع لك الخصر قليلاً، وتوسع بنسات الصدر".

حين نظرت رقية للثوب قالت: "صحيح مثلما قالت وداد". وناولته لابنتها هاجر لتجري عليه التّعديلات. نادت رقيّة وداد وقالت: "تعالي كلّ يوم لأعلمك كيف تقصين القماش وكيف تطرزينه". همست وداد بخجل: "يا ستي لم أجرؤ أن أقول لها إنّ الموديل الذي أحضره العريس لا يليق عليها؛ لأنّ جسدها ممتلئ وأنّ الوردة التي تزيّن خصر الثوب كبيرة ولا تناسبها فهي لا خصر لها، لو قلت لها ذلك لقتلتني". ضحكت رقية لأوّل مرّة منذ سنوات وربتت رأس وداد التي اعتبرتها كنزاً فنياً فهي في هذه السّن تستطيع معرفة الخطأ وتقدّر المسافة جيداً وهذا يساعدها على تعلّم الخياطة بسرعة.

حين رتبت سامية صندوق ملابسها أعطت كلّ ما كان عندها قبل خطبتها لسعدى التي أخذت الملابس بصمت ودخلت غرفتها تبكي، حين رأتها ابنتها على تلك الحال احتضنتها وقالت: "لماذا تبكين؟ بالعكس سامية عملت خيراً". جمعت وداد الملابس في صرة وخبّأتها في صندوقها.

كان عرس سامية عرساً فخماً بكلّ المقاييس لم تعرف اللاذقية بذخاً مثل بذخ عاصم آغا في عرس ابنته وقد تكفّل بكلّ تكاليف

العرس من حجز صالة مقهى شناتا إلى عشاء العرس الذي لم يتـــرك نوعاً من الطّعام والحلويات إلا وجد فيه إلى باقات الورد التي غطّـــت المسرح حيث جلس العروسان، وحضره كلٌّ أغنياء البلـــد والتّجـــار وأصحاب النّفوذ.. وقد أصرّت سامية على الذهاب بثوب عرسها إلى استديو "الشيني" لتأخذ صورة مع عريسها، والشيني لقـــب أطلقـــه سكّان اللاذقية على المصور هوان الذي كان يطلق على نفسه لقـــب "الأندو شيني" وكان يتكلّم العربية مكسرة ويفهمها جيداً. المصـــور "هوان"[1] حضر بنفسه لالتقاط صور للعروسين والمدعوين وبقيـــت سامية لسنوات تفخر بصورها المعلّقة في غرفة النّوم والجلوس تحيط بها إطارات خشبية مذهبة حفرت بطريقة فنية مدهشة.. عملتـــها عنـــد أشهر نجار موبيليا في حارة الموارنة.

وكانت سامية تروي دائماً أنّ والدها دفع للمصور بسخاء عن كلِّ صورة عشرين قرشاً، بينما لم توافق أم كلثوم على دفع خمســـة عشر قرشاً لـــ "هوان" مقابل كلِّ صورة يلتقطها في حفلتها الغنائيـــة وعرضت عليه عشرة قروش فرفض أن يصورها!

صحيح أنّ سامية كانت تنتقد أم كلثوم وتصفها بالبخل وبأنّها ضيّعت على جمهورها أجمل صور كان من الممكن أن يأخـــذها لهـــا "هوان" لو وافقت على السّعر، لكنّها في الوقت نفسه كانت تحـــتفظ بغصة في حلقها لأنّها كانت تحلم أن تغني بعرسها مطربة بـــوزن أم كلثوم لذا؛ سعى والدها جهده لإحضار أجمل صوت في تلك الفترة

---

(1) هوان فان تيان، مصور فيتنامي جاء مع الجيش الفرنسي، أول مصور في اللاذقية وثّق معالم اللاذقية بين عامي 1922 /1929/ تزوج من اللاذقيـــة ثمّ سافر إلى بيروت، توفي فيها 1957.

ليغني في عرسها و لم يكن أجمل من صوت زكية حمدان التي لُقبت بأم كلثوم الشّام فيما بعد!

* * *

البيت الأول على اليسار

بيت نورية "أم رشدي"

نورية الوحيدة في الحي التي لم يرزقها الله بنتاً، لكنّ بيتها وعلى عكس المعروف عن البيوت الخالية من البنات كان مرتّباً ونظيفاً ولا يسمع منه أصوات شجار أو لعب أو ضجيج.. حتّى أنّ رقية كانت تسألها دائماً: "ماذا تفعلين للأولاد؟ هل تكممين أفواههم؟ لا أكاد أسمع صوتاً من بيتك في أيّ وقت من أوقات النّهار!".

الأحداث المهمة في بيت نوريّة كانت محاطة بالكتمان فهي بطبعها لا تميل إلى الثرثرة ولا تحبّ أن يعرف أحد ماذا يدور داخل عتبة بيتها، وربّما كانت الوحيدة من نساء الحي التي لا تتحدّث في المساءات السريّة المغلقة في بيت رقيّة عن علاقتها بزوجها أو حماها ولا يعرف أحد ماذا طبخت أو أين ذهبت في العطلة، وقد احترمت نساء الحي طبعها فلم يكنّ يلححن في معرفة أخبارها، الاستثناء الوحيد كان يوم ولادة رشدي ويوم طهوره..

حفلان مفتوحان أقامتهما نوريّة للنساء استمرّ الأوّل سبعة أيام والثاني ثلاثة أيام. ذلك اليوم العجيب بتفاصيله المتناقضة الغريبة بقي في ذاكرة بنات الحي جميعهن وخاصة وداد مع أنّ عمرها في ذلك اليوم لم يتجاوز السّنوات الخمس.

راقبت البنات من أمام أبواب البيوت جسد "أبو سجيع" الضخم وهو يحمل محفظته الجلدية الكبيرة ويعدّل وضع طربوشه ويتنحنح قبل أن يفسح له "أبو رشدي" الطريق ليدخل إلى المنزل.. وفجأة سمع الجميع أصوات صراخ رشدي وهو يمرق من بين الرجال المتجمعين أمام البيت ويركض على طول الشّارع الرئيس وهو يشتم أبا سجيع وأباه وجده وكلّ الرجال الذين اجتمعوا يومها!

عاد رشدي مقبوضاً عليه ومخفوراً برجلين ضخمين كانا يضحكان ويغمزان لأبيه كي يستلمه.. دخل رشدي البيت وساد الحي الصّمت والقلق.. النّساء كن ينتظرن بلهفة والبنات كن ينظرن بخوف والرجال أمام البيت يضحكون!

لم تفهم وداد في ذلك الوقت لماذا قبض على رشدي بتلك الطريقة الوحشية ولماذا يضحك الرجال وهو يصرخ ويشتم، وكيف ينسجم ذلك كلّه مع مظاهر الفرح التي عمّت الحي وزغاريد النّساء والطّعام الذي وزّعته نوريّة على بيوت الحي والحلو.. ارتبط المشهد في مخيلتها بصورة الحقيبة التي يحملها "أبو سجيع" فقد كمن السرّ هناك، سرّ الألم والصّراخ واختفاء رشدي من الشّارع لأيام طويلة!

تعوّد رشدي وعبد الله ووليد على نظام نورية الصّارم والدّقيق في المنزل، ساعات النّوم والاستيقاظ والطّعام وتنظيف البيت وترتيب الأسرّة والملابس حتّى أنّها فرضت دوراً عليهم في تنظيف المطبخ وجلي الأواني منذ أصبح رشدي في السّابعة من عمره.. كان يستيقظ باكراً ويحضّر الحليب لشقيقه الصّغير، ويوقظ والدته قبل ذهابه إلى المدرسة. وكانت سيدات الحي يتندرن بخجله وقلة كلامه ويشبّهنه بالبنات ويقلن لنورية إنّ الله لم يحرمها خلفة البنات فأولادها لا حس لهم ولا مشاكل.

بالقدر الذي شعرت به نورية بأنّ جاراتها يحسدنها على أولادها وخشيتها من العين، كانت الراحة تغمرها لشبه أولادها بتصـــرفاتهم وأخلاقهم بالبنات.. لكنّها لم تدرك أنّ تربيتـــها الصّـــارمة كانـــت السّبب في ذلك كما كانت السّبب في أوّل تمرد لرشدي بعيداً عـــن البيت حين بدأ يجاري رفاقه في الهرب من المدرسة بـــاعتلاء السّـــور والقفز خارجاً، والذهاب إلى المسابح وتمضية الوقت في التّسكع ريثما يحين موعد العودة إلى البيت.

لم تلاحظ نورية أيّ تبدل على سلوك رشـــدي الـــذي شـــب بسرعة وطالت قامته وصار يلفت النّظر كأنّه شاب في العشرين مـــع أنّه لم يتجاوز الرابعة عشرة، وقد كان وسيماً إلى درجة أنّه أصـــبح حلم فتيات الحي والأحياء المجاورة، ولم يكـــن ينقصـــه أن يلفـــت أصدقاؤه في المدرسة نظره للفتيات اللواتي يختلسن النظر إليه في شارع القوتلي وهنّ في طريقهن إلى المدرسة فقد امتلك حساســـية مفرطـــة تؤهله للشعور بذلك الإعجاب الذي يحيط به من كلّ جانب لكنّ ما تربّى عليه يمنعه من رفع رأسه لتأمل أيّ فتاة بالإضافة إلى قلبه الـــذي بدأ منذ سنوات يخفق لفتاة واحدة كانت بالنسبة إليه الكون بأسره.

لم يكن ارتياد رشدي لقاعة المطالعة في دار الكتب الوطنية[1] في البداية بهدف القراءة أو حبّ الاطلاع بل مغامرة صغيرة لا يـــدري كيف اقترفها حين رأى وداد بصحبة صديقاتها مع مُدرّســـة اللغـــة الفرنسية مدموزيل زهيرة يتجهن إلى هناك.. وعلى الرغم من أنّ قاعة المطالعة للسيدات منفصلة عن قاعة الرجال وعن قاعة الأطفـــال، إلا

(1) دار الكتب الوطنية أنشئت عام 1944 في عهد محافظ اللاذقيـــة الأمـــير مصطفى الشهابـــي.

أنّه شعر برفقة وداد كما لو كانت تجلس بجانبه وتقرأ معه الكتاب نفسه. لأوّل مرّة غرق رشدي في قراءة "تحت ظلال الزيزفون" ووجد نفسه متورطاً في عشق القراءة وارتياد المكتبة و لم يعد يرافق أصدقاءه في غزواتهم وتسكعهم ورحلاتهم حتّى في الصيف!

غرق رشدي في القراءة أضاف إلى عزلته عمقاً جعله يشعر بثقل السّنوات والخبرة العميقة بأحوال الدّنيا، وكلّ ذلك كان له أثره في ميله إلى العلم على الرغم من محاولاته الخجولة في الكتابة التي بدأت برسائل لوداد لم يرسلها إليها أبداً ثمّ تطورت لكتابة قصص كانت وداد بطلتها دائماً. تلك القصص التي نشر بعضها باسم مستعار في صحف اللاذقية التي كانت تصدر في ذلك الوقت تحت عنوان لا يتغيّر "شارع الحبّ الرابع"!

* * *

البيت الثاني على اليسار
بيت رقيّة أم مصطفى

...

في عشرينات القرن الماضي وقع حدث غيّر الكثير من حياة النّاس وعاداتهم، فقد وصلت الماء إلى البيوت بأنابيب! خرج الأولاد إلى الشّوارع يغنون

نادوا الصبايا واجمعوا الصبيان... والمي جريت بكلّ الطرقان"

والنّساء تجمعن عند الأبواب غير مصدقات ما يقال، هرعت أم محمد إلى بيت رقيّة لتخبرها بما يجري. قالت: "سمعتِ الخبر؟ يقولون إنّ مياه عين "ديفة" ستصل البيوت عبر أنابيب! والله لم أفهم كيف سيكون ذلك".

ردت رقيّة باستغراب: "معقول؟ كيف تصل الماء من دون قُرب وسقّا؟" في تلك اللحظة لم يغب عن عين أم محمد كيف تضرّج وجه رقيّة بلون خمري نادراً ما تراه وفهمت معنى أن تصل الماء من دون سقّا، لكن ما حصل أنّ ماء "عين ديفة" وصلت إلى السّاحات أولاً، وصار السقّا حسن يملأ "قُربه" الجلدية بالماء العذب من حنفية السّاحة ويوصله إلى بيت رقية كالعادة.

لم يدم ذلك طويلاً، فقد جرت المياه إلى البيوت عبر أنابيب، واستغنت معظمها عن خدمات السقّا، لكنّ حسن على الرغم من تقدمه في السّن واظب على المجيء إلى الحي قاصداً بيت رقية بطنبره

الجديد، ومن دون أن يقرع الباب يعلن حصانه عن حضوره.. فتظهر رقيّة في فسحة أرض الدّار، يسألها حسن:

- ألا تريدين ماءً عذباً يا ست الكل؟

تبتسم رقيّة وتقول: "كسرنا الجرة من زمان يا حسن". تكفي هذه العبارة ليفهم حسن أنّ رقيّة ما زالت مخلصة لذكرى عبد الرحمن ولا تريد رجلاً بديلاً عنه، مع هذا لم يفقد الأمل وبقي حتّى التّسعين من عمره يسند ظهره المستقيم إلى مقعد العربة، وطنبره يرشق الماء حوله حين يجبر حصانه العجوز على التوقف أمام باب رقيّة في كلّ صباح ليملأ لها الجرة بالماء العذب وإن لم تطلب!

بعد وصول الحنفيات إلى البيوت احتفظت رقيّة "بالخابية" الفخارية الكبيرة "خزان البيت من المياه العذبة" سدت بغطائها الخشبي فوهة الجب، وملأتها تراباً وزرعت فيها شجرة فتنة. كانت تتأمل الشّجرة في المساءات الدافئة وترشها بالماء فتغتسل وتحتفظ بندى القطرات على سطحها الرطب فتبتسم رقيّة وكأنّها تسمع صوت حسن يسألها للمرّة المليون: "ألن تغيري رأيك يا ست الكل". فتهزُّ رأسها بأسف وتتمتم "لم يبقَ في الكرم سوى الحطب يا حسن". لكنّ صوته يصلها متلهفاً محتجاً "ولو بلغتِ المئة تبقين شابة في نظري يا رقيّة".

* * *

رقيّة لم تعد شابة وإن بقي ظهرها مستقيماً ووجهها البيضاوي محتفظاً بلون وردي قابل للاشتعال بالأحمر لأيّ سبب، لم تعد شابة وإن بدت روحها أصلب من سنديانة في قمة جبل. فقد رحل عن

الدّنيا من هم أصغر منها سناً، وجرّبت الفقد بأبشع صوره، لم يكن فقد مصطفى وحيدها أشدّ ألماً بالنسبة لها من فقد عبد الغفور، فقد عوّدت نفسها على أنّ الله عوّضها خيراً بوجوده في المنزل، وانشغلت بتربية ابنتي هاجر الصغيرتين وعادت الحياة إلى طبيعتها، يباغتها الشّوق إليه في لحظات تأملها ووحدتها قبل أن تضع رأسها على الوسادة وتغفو كلّ ليلة، فتدعو له مع صلاة الفجر وتطوي السّجادة وتمسح وجهها وتبدأ النّهار بعيداً عن وخزات القلب المتعبة.

لم يكن مصطفى رغم التّربية الصّارمة لرقيّة وحرصها الشّديد على تعليمه صنعة تعينه على الحياة يحبّ العمل، تنقّل بين محلات السّوق كلّها، عمل في صناعة الأحذية والزّجاج والنّحاس ولم يجد نفسه في أيّ عمل.. كانت روحه تهوى البحر وكثيراً ما سبح وسط الموج الهائج في أيام الربيع حين تأتي النوة ويخشى البحارة الخوض في الماء.

كانت جنية البحر تناديه، هكذا كان يهمس لأصدقائه، وهو لا يملك نفسه أمام النّداء، كثيراً ما كان يحكي لهم قصصاً خرافية كانوا يعتبرونها مجرد حكايات للتسلية في ليالي الشّتاء الباردة حين يرتفع المد ويجلس الصيادون في المقاهي ينتظرون انحساره للبحث عن رزقهم. ونادراً ما اهتموا بالحكاية على أنّها نبوءة تشي بمصير مصطفى.

قضت رقيّة شهوراً تلازم الشّاطئ بانتظار عودته من رحلاته المجنونة، اضطرت للتوسل إلى صديقه محمود كي لا يعيره "الشختورة" وفرّت الدّموع من عينيها رغماً عنها وهي تقول: "لا أريد أن أفقده كما فقدت أبيه". لكنّ رقيّة لم تكن تعرف أنّ الفقد سيلازمها طيلة حياتها وأنّ البحر ليس وحده من يخطف أحبابها. ولم تفارقها صورة

حورية البحر التي فرّ منها عبد الرحمن وحين وصل اليابسة وأيقنت أنّها لن تستطيع إعادته إليها أصابته بلعنتها فمات قبل أن يروي قصته معها!

سافر مصطفى إلى بيروت من دون أن يخبر أحداً حتّى أمّه، وتركها تقيم عند الشاطئ بانتظار عودته، ثمّ تعتزل في غرفتها أسابيع طويلة قبل أن تعتبره ميتاً وترتدي ثوب الحداد الذي لم تخلعه طيلة حياتها، حدادها العجيب ذو اللون الشمعي المائل للصفرة!

في بيروت لم يكن الوضع أفضل، فلم يجد مصطفى عملاً في المرفأ يجعله يرافق إحدى السّفن المسافرة إلى بلاد بعيدة، عمل حمّالاً وحاول مرّات عديدة أن يختبئ في قاع إحدى البواخر المسافرة ولم يفلح، وحين هدّه التّعب ترك العمل في المرفأ واختار العمل في أحد أفران الخبز.

ربما يكون قدره السّبب في عرضه على معلمه أن يوصل الخبز إلى بيته حين غاب الصبي الموكل بهذه المهمة.

فتحت له نيرمين الباب.. كانت فتاة في الخامسة عشرة، ممتلئة وقصيرة القامة، وتميل إلى السّمرة، وكان وجهها مليئاً بالبثور، لكنّ لمعة خفية في عينيها جعلت مصطفى يقف مبهوراً أمام الباب، أمّا هي فلم تنتبه ليده التي تحمل الخبز كانت تنظر في عينيه الواسعتين كحقول قمح، تغطيها أهدابه الطويلة التي ورثها عن أمّه رقيّة، وارتجف صوتها وهي تقول "هل هبطت من السّماء؟ لا شبيه لكَ سوى لوحات المسيح على جدار الكنيسة". تخضب وجهه وهو يناولها الخبز ويقول مرتبكاً: "معلمي يسأل، هل تحتاجون شيئاً آخر؟".

الشيء الوحيد الذي أرادته نيرمين وبقوة في تلك اللحظة أن يبقى هذا الشّاب الطويل المهيب ذو الوجه النوراني الأبيض واقفاً أمام باب البيت إلى الأبد.

ومن دون تردد قالت: "نعم، أريـــد رؤيتـــك مســـاءً عنـــد الشاطئ".. وأغلقت الباب. بقي مصطفى واقفاً للحظـــات وســـط ذهوله وارتباكه، وأمضى بقية اليوم مشوش الذهن لا يعرف كيـــف يعمل حدّ أنّه حرق العديد من الأرغفة، مما اضطر معلمـــه لتوبيخـــه وتهديده بالطّرد.

لم يوافق المعلم أنطوان على طلب مصطفى فألحت زوجته على قبول الأمر قبل أن تضطر البنت لتصرف يجلب له العار خاصة وأنّها لا تساوي -على رأي أمّها- في سوق النّساء شيئاً و لم يتقـــدّم لهـــا قريب أو بعيد.. نبر المعلم "لكنّه مسلم!". أصرّت زوجته "خير مـــن ابن أخيك الذي تزوج أجنبية و لم تعجبه ابنتك".

لم تستمر الحياة بين مصطفى ونرمين طويلاً، بعد ثلاث سنوات من حياة الفقر لم تعد تحتمل ابنة الفرّان الثـــري العـــيش في بيـــت خشبـــي مؤلف من غرفتين وصالة وحديقة مهجورة لا يعـــتني بهـــا أحد، وأثاث بسيط، فعادت إلى بيت أهلها.. لم يكن مصطفى يملك شيئاً سوى كدح يديه وهو بالكاد يطعمه ويكفيه أجرة البيت الذي يقيم فيه.. فأزاح الهم عن كاهله بطلاق نرمين وعاد للعمل في المرفـــأ حالماً بحورية البحر والسّفر إلى بلاد بعيدة!

حتّى هذا الوقت لم تكن رقيّة قد سمعت شـــيئاً مـــن أخبـــار مصطفى واعتبره أهل الحي ميتاً وكانوا يحترمون صمتها ويتجنبـــون الحديث أو السّؤال عنه. وجاءت فجيعتها بعبد الغفور لتفتح الجراح حتّى آخرها..

عاد عبد الغفور من السّوق في عصر يوم قائظ وقال لهاجر إنّه لم يعد يحتمل العمل بسبب آلام حادة في مفاصله وبطنه، وكان طيلـــة

الأسبوع الماضي قد فقد شهيته للطّعام ونحل جسمه بشكلٍ ملفت للنظر. سألته هاجر إن كان يريد أيّ نوع من الحلويات لتصنعه له كي يستعيد عافيته، فقال إنّه لا يشتهي الطّعام، لكنّه يرى أمّه في الحلم تطعمه "بعيبيقة" كلّ يوم.. قالت هاجر: لا أعرف كيف أصنعها ومن المستحيل الحصول على "كسيب" في هذا الوقت.. ما رأيك أن أصنع لك "حلاوة معصّرة"؟ هزّ عبد الغفور رأسه موافقاً..

حمّصت هاجر السميد بالسّمنة حتّى احمرّ لونه وأضافت إليه دبس العنب وحرّكته بقوة وسرعة، وضعت حبّات اللوز ووزعتها بالتّحريك السّريع، ثمّ أطفأت البابور وأنزلت الطنجرة إلى الأرض وراحت تقبض بكفها كمية من الحلاوة وتضغطها بقوة وترصفها في الصينية. لم تنتبه إلى الحروق التي خلّفتها الحلاوة في يديها كانت دموعها تنسكب وتمنعها من رؤية ما تفعله، فقدت إحساسها بكلّ ما حولها، كانت تعرف أنّ عبد الغفور يحبّ الحلاوة بالطحين لكنّها لم تجد طحيناً في المطبخ، ويفضّلها كما تصنعها أمّه بقلوب المشمش المر الذي تحليه بالماء وتجفّفه وتستخدمه في الحلاوة أو تحمّصه بالملح ليوضع مع البزر والبرغل المحمّص كتسلية في ليالي الشتاء. حين جاءته بصحن الحلاوة كان عبد الغفور نائماً و لم يستجب لندائها...

تجاوزت حرارته الأربعين خلال يومين، ودخل في غيبوبة لم يخرج منها. كان التيفوئيد وقتها قد اجتاح البلد ومات كثيرون بسببه. ودفنته رقيّة بجانب زوجها عبد الرحمن. وكانت تأمل ألا يكون هناك متسع بجانبهما سوى لقبرها!

تقول جدتي رقيّة إنّ عزرائيل إن حلّ بحي لا يتركه، وقد أعجبته الإقامة في حيّنا ففي أواخر سنة 1948 ماتت زوجة أبي سكينة..

وعلّقت جدتي رقيّة "إنّ الأوراق تتساقط"، ففي نهايــة كــلّ عــام بالاعتقاد الشّعبــي ينشط عزرائيل في حصد الأرواح التي كتب لهــا أن تموت أثناء هذا العام!

لم يشغل موت خالتي سكينة أحداً في السّرايا بقدر مــا شــغل أمّي، لقد فقدت أحد أسباب وجودها برحيل ضرتها على الرغم من أنّها لم تشعر يوماً بمحبتها سوى في لحظاتها الأخيرة عندما أورثــتني "ماكينة السنجر" وصندوق ملابسها وقرطين من الــذهب الخــالص وخاتماً من الفضة.. وأعطت ملابسها لأمّي.. وفرّت من عينها دمعة وأسلمت الرّوح!

الرابط الخفي بين أمّي وضرتها لم يكن بسبب وجــود زوجــة أبــي الثالثة فقط بل بالعزل الذي فرضه عاصم آغا عليهمــا منــذ دخلت الست نسرين المنزل فأصبحتا في كفّة ميزان واحــدة علــى الرغم من أنّ دور أمّي كخادمة لضرتها لم يتغيّر وبقيت تطبخ وتكنس وتغسل وترتب وتعتني بسكينة، تناولها الدّواء في مواعيده وتغيّر لهــا أغطية السّرير وتطعمها وتدخلها الحمّام، باختصار كانــت تعامــل سكينة كطفل مدلّل! لكنّ سكينة لم تظهر الامتنان لأمّي يوماً وكأنّها تقوم بواجبها لا أكثر.

ما بعد موت سكينة لم يكن كما قبله أبداً بالنّسبة لسعدى، لم يعد لديها عمل تقوم به تقريباً فكانت تمضي وقتها قــرب النّافــذة تتفرّج على الشّارع وتستمع لأحاديث الجارات محاولة قدر الإمكان أن لا تراها ضرتها، كانت تدرك الخطر الذي ينتظرها إن هي أثارت حفيظة الست فقد تجرّأت يوماً ونزلت الدّرجات ووقفت بباب الدّار الخارجي لتتحدّث مع هاجر التي كانت واقفة بانتظار العربجي "أبــو

حسان"، كانت نسرين تقف في المطبخ تشاهد وتسمع.. حين رجع عاصم آغا في المساء أرسل تهديداً صريحاً لأمّي بالطّلاق إن هي نزلت من عليتها مرّة أخرى، وكان قد حظر عليها دخول غرفة سكينة بعد وفاتها وأغلقها بالقفل!

كنت قد أنهيت المرحلة الابتدائية، وظهرت كعروس في ملابس الإعدادية البيضاء، ألاحظ خفية نظرات الشّباب المختلسة وأنا في طريقي إلى المدرسة وحين عودتي فكنت أحتمي بذراع حياة تلقائياً وكأنّ نظراتهم ستخطفني بعيداً... كان يوماً ربيعياً مشرقاً حين اعتذرت حياة عن الذهاب برفقتي إلى المدرسة بسبب وعكة صحية. شعرت بالحرج حين سرت وحدي في الطّريق وقد سبقتني باقي البنات.. أحسست بخطوات تتبعني، ارتفعت نسبة الادرينالين في جسدي وزادت خفقات قلبي، هل أمرّ على سهام لأصحبها كالمعتاد؟ شعرت بالحيرة، لكنّي فجأة وجدت نفسي قرب بوابة هود ومن دون تفكير ولجت زقاق "الشعرة بعرة" وعلى الرغم من أنّ طول الزقاق لا يتجاوز المئة متر إلاّ أنّ العتمة جعلته بلا نهاية وأحسست بخطواتي تتعثر بأشياء لا أعرف ماهيتها.. ضربات قلبي تعلو في أذنيّ ورأسي يضج بأصوات غريبة.. لا أستطيع أن أتيقن من الشّعور الذي فاجأني في لحظة مروره بجانبي واندفاع موجة العطر في جسدي وملامسته لي بطريقة غير مقصودة، فلم يكن عرض الزقاق سوى متر واحد لا يسمح لشخصين بالسير جنباً إلى جنب مع ترك مسافة كافية لعدم الاحتكاك ببعضهما.. بقيت مضطربة طيلة الدوام و لم أستطع البوح لأحد بما حدث لي. كاد الخوف يشل تفكيري، خشيت أن يكون والدي قد رآني أو أحد العاملين معه في

الدّكان، فقد كانت دكانه في شارع القوتلي قبل أن ينعطف الطريق باتجاه الصليبة على طرف الشارع مقابل مدرستي.

حين عدت إلى البيت لمحتني زوجة أبـــي من نافذتها وبحدســـها أحسّت بشيء غير طبيعي في مظهري الخجول عمّق إحساسها بالغيرة ودفع بها كيد النّساء إلى التّفكير الجدي بإبعادي عن طريـــق ابنتيهـــا فمنذ أربع سنوات حين رأتني بجانب زهيرة خانم معلمة اللغة الفرنسية التي اختارتني لتقديم باقة الورد لشكري بيك القوتلي(1) رئيس الدولة السّورية في زيارته الأولى للاذقية وهي تشعر بالغيظ لاستبعاد ابنتـــها من وفد التلميذات اللواتي استقبلن الرئيس.

أسرّت نسرين لعاصم آغا بوجوب منعـــي مـــن الـــذهاب إلى المدرسة بحجة الخوف عليّ وقد أصبحتُ صبية ألفت الأنظار، كـــان ذلك بعد الاستقلال بثلاث سنوات!

يومها مررت على بائع الأسطوانات واشـــتريت أســـطوانة لأم كلثوم وكان رشدي واقفاً قرب الباب يختلس النظـــر إليّ ويتشـــاغل بالفرجة على واجهة المحل أحياناً والنّظر إلى أوّل الشّارع موحياً أنّـــه ينتظر أحد أصدقائه. خرجت من المحل وأنا أتعثر بخطواتي، وهربـــت بسرعة من نظراته التي شعرت أنّها سياطٌ تلسع ظهري.

تلك الليلة سهرت إلى ساعة متأخرة حتّى لمحته عائداً إلى البيت، وضعت الأسطوانة وواربت النّافذة.. ووقف رشدي أمام باب بيتهم من دون حراك يسمع ويتنهّد وأم كلثوم تردد.. "حبيـــب قلبـــــي وافاني بمعاده ونوّل بعد ما طول بعاده...

---

(1) زار شكري بيك اللاذقية يوم الأحد 19 آذار 1944 حين انتخب رئيساً للمرة الأولى. وبقي حتى يوم الخميس 23 آذار.

بقى يقول لي وأنا أقول له، وخلّصنا الكلام كله!".

في أمسية يوم صيفي من عام 1950 همست نسرين في أذن الآغا بأني قد أصبحت في سن الزواج! لم يكن الأغا قبل ذلك الحديث قد انتبه إلى أنّي كبرت وأصبحت صبية جميلة تلفت الأنظار إليها فلم أتجاوز الرابعة عشر من عمري بعد! وبحسرة واضحة لاحظ الآغا أنّي أجمل بكثير من ابنتي زوجته نسرين، وصرّح أنّه يتمنّى من أعماقه أن يتخلّص من همي بتزويجي لأيّ عريس يأتي طالباً يدي، وكانت نسرين تنتظر تلك الكلمة فقالت: "العريس موجود، لن تجد لها أفضل من أخي". دهش الآغا لكنّه لم يبدِ أيّ اعتراض مع أنّه كان يكره شقيق نسرين الذي تجاوز الخامسة والثلاثين من عمره ولم يجد عملاً يناسبه بالإضافة إلى تمضية معظم وقته بالمقاهي والحانات.

كما حصل عندما قرّر الأغا أن أكف عن الذهاب إلى المدرسة حصل حين أخبرنا بخطبتي لشقيق زوجته، لم ننبس أنا وسعدى بكلمة، تقبلت الأمر على أنّه قدر لا يناقش وليس من حقي الاعتراض عليه.

فتحت الصّندوق الذي أهدتني إياه زوجة أبي سكينة والذي وضعت فيه الملابس التي رمتها أختي سامية يوم زواجها، فككت خياطة الأثواب وأعدت غسل القماش وكبسته بمكواة البخار ثمّ أعدت تفصيله وخياطته بما يتناسب مع قوامي وذوقي ووضعت لمستي الخاصة على القماش فغدا جديداً وأنيقاً إلى درجة لم تُصدّق صديقاتي أنّي لم أشترهِ من أرقى بيوتات الأزياء في باريس.

الشيء الذي لم أكن أستطيع تدويره وصناعة تفاصيل جديدة له هو عواطف الآغا نحوي ولون عينيّ اللتين كثيراً ما تمنيت لو أنّهما

بلون عيني أمّي السّاحرتين اللتين تختصران شمساً آيلة للمغيب بالرغم من جمال عينيّ السّوداوين اللتين تحسدني عليهما الكثيرات.

لم يكن ثوب زفاف أختي الذي أعدت تفصيله وحده ما أثار حزني وضيقي، فقد كانت سامية تحصل دائماً على كلّ ما تتمنّاه مهما كان سعره مرتفعاً قبل أن تنجب نسرين ابنتيها وتخرج سامية من المنافسة نهائياً! ما أحزنني أعمق بكثير، كنت أشعر أنّي أسير إلى حتفي و لم أكن أطيق أن أرى وجه العريس أو سماع سيرته!

خلال أشهر قليلة وقبل زواج "سميرة ابنة العجيل" كنت قد أنهيت خياطة جهازي من الألبسة المستعملة وقد ساعدتني نجاح ابنة شقيق رقيّة لأنجز الجهاز بسرعة.

جاءت الفرصة تسعى على قدميها لأخرج من البيت للمرّة الأخيرة قبل زواجي، ارتديت أجمل ملابسي لحضور حفل زفاف سميرة الذي لم يشهد حي الشيخ ضاهر مثله في ذلك الوقت.. وكنت أخطط يومها لرؤية رشدي على انفراد بل ذهب خيالي لأبعد من ذلك بكثير! و لم يأتِ ما خططت له من فراغ، فقد شجعتني نجاح حين رأت نفوري من خطيبي وعلمت ما بقلبي على رفض الزواج إن أيقنت أنّ رشدي يريدني زوجة، وقالت بأنّها ستفتح دكانها حتّى ساعة متأخرة بانتظار أن أمرّ عليها لوحدي أو برفقة رشدي لتسهّل لنا أمر زواجنا.

عُرفت نجاح بأناقة خياطتها وسرعتها في إنجاز الثوب مهما كانت غرفتها مزدحمة بالأثواب التي تنتظر الإنجاز. وقد استأجرت بعد زواجها دكّاناً في سوق "الصفن" وهو عبارة عن غرفة صغيرة بعيدة قليلاً عن الشّارع الرئيس للسوق. وضعت في الدكان ماكينة

سنجر للخياطة وماكينة حبكة وكان عندها بنات يتعلّمن الخياطة. كلّ ذلك قد يبدو عادياً بالنسبة لأصحاب الدكاكين في السّوق، لكنّ نجاح ذات الشّخصية القوية والتي عرفت بأنها تساوي دزينة رجال لم تكتفِ بالخياطة للنساء بل كانت تصلح الألبسة الرجالية "ترقيع وتدوير وحبكة وما شابه" ولم تكن تهتم بأن يتقوّل عليها أحد ففي تلك الأيام كان من الطبيعي أن تقوم امرأة مثلها بهذا العمل ولم يكن أحد يستنكره، وكانت نجاح قد صنعت لنفسها اسماً ومكانة بين تجار السّوق الذين يرسلون إليها الزبائن، ويأتون بأنفسهم لتصلح لهم ملابسهم بحيث تخفي عيوبها وتظهر جديدة. كانت نجاح نسخة في الشّكل والشّخصية عن جدتها والدة رقيّة التي توفيت قبل أن ترى نجاح النّور.

ماتت أمّ رقيّة في صباح يوم جمعة وكان البيت خالياً من الرجال ورقيّة منكفئة على ماكينة السنجر تطرّز مفرش سرير لعروس من الحي.. لم تسمع نداء والدتها تطلب الماء.. لم تفهم رقيّة ما حدث حتّى بعد توقفها عن العمل وسماعها صوت الجارات في فسحة البيت. لم تكن تريد أن تفهم.. بقيت أيام العزاء صامتة لا تتحرّك من مكانها وسط الخوان حتّى بعد رحيل المعزين وانحسار الظلّ من أرض الدّار وهجوم شمس الظّهيرة الحادّة وارتفاع الرطوبة بشكل خانق. تجاوزت رقيّة أزمتها بعد أشهر من موت أمّها لكنّها بقيت تشعر بسكين تحز حنجرتها كلّما شربت ماءً بعد عطش، حتّى أنّها كانت تمتنع أحياناً عن شرب الماء الحلو الذي يجلبه السقّا وتشرب الماء البيس[1] من الجب مع فنجان القهوة!

---

(1) الماء المالح.

لم تسمع رقيّة نداء أمّها.. لكنّها رأت الكأس الفخاري المحطـــم بجانب سريرها حين دخلت الغرفة مع النّساء.. كان الكأس فارغـــاً والمشربية قابعة في شباك الغرفة المطل على فسحة الدّار مليئة بالمـــاء العذب حتّى حافتها!

* * *

سرمدا /13 شباط/2015/

ليس من السّهل عليّ أن أقتنع أنّ جدتي وداد كانت تكتب رواية كما أشارت في الصّفحة الأولى لمذكراتها، لم يكن استخدامها لضمير المتكلم في السّرد السّبب في عدم اقتناعي بل الأحداث التي أكاد أعرف معظمها من أمّي وأهل الحي وإن فاجأتني بعض التّفاصيل الصّغيرة التي لم أسمع بها من قبل. حتّى تلك التّفاصيل كانت في اعتقادي من أسرار جدتي التي لم تبح بها لأحد فلم تنتشر كما انتشرت باقي الحكايات. وبالرغم من تأكيدها أنّها دمجت الشّخصي بالعام وحاولت اختراع شخصيات تغني بها الأحداث إلاّ أنّي لم أستطع القبض على تلك الشّخصيات المتخيلة في مذكراتها.. بالتّأكيد إنّها مجرد مذكرات! لكن لماذا غابت سهام -الضلع الرابع كما وصفتها جدتي- عن تلك المذكرات؟ وماهي القصة المؤلمة التي عاشتها سهام ولم أجد تفاصيلها في المخطوط حتّى الآن؟ أشعر أنّ جدتي تهرب من تلك الذكرى إلى سرد تفاصيل أخرى للشخصيات التي عايشتها وهي أقل إثارة بالنسبة لي!

لم تترك الشّمعة لي فرصة لقراءة المزيد فقد انطفأت وسادت العتمة وتسلّل نور القمر من خلال شبك النّافذة الحديدي ناحلاً خجولاً.

* * *

في الصّباح الباكر جهّزت الحقائب وودّعنا كفاية التي أصرت أن نفطر قبل مغادرتنا منزلها وكانت تنتظر عودة ابنــها بالحليــب الطازج لتصنع سحلباً ادّعــت أن أحــداً في ســوريا لا يصــنعه بطريقتها، وأنّه من ضروريات الصّباحات الباردة بجانب الكعــك الليّن! كنت أعرف أنّها بارعة في الطّبخ فقد جرّبــت طعامهــا في اليوم السّابق لكنّني كنت قلقة بشأن السّفر وكان مــن طبعــي أن أسافر في وقت مبكر دائماً، مع هذا اضطررت لمســايرة كفايــة والانتظار فقد كانت رغبة جدتي أيضاً!

وصلنا المعبر حوالي السّاعة الحادية عشرة وكــان الازدحــام شديداً، ولم تستطع جدتي أن تزاحم النّاس للوصــول إلى البوابــة الحديدية، وآثرت أن تضع حقائبها جانباً وتجلس فوقها قليلاً ريثما يخف الازدحام.. تركتها جالسة وتقدّمت باتّجاه البوابة، قالت لي إحدى السّيدات الواقفات أمامي إنّها موجودة هنا منذ الصّــباح الباكر ولم يصلها الدور بعد.. شيء ما وخزني في قلبــي.. لــيس مجرد حدس بأنّ كارثة ستقع بل نوبة تشاؤم غالباً مــا تصــيبني في الأوقات الصّعبة.. وقد ورثتها عن جدتي أيضاً! كــان علــيّ ألا أنسحب من موقعي لأحافظ على الدور إلاّ أنّ حدثاً غريباً اقتلعني من مكاني وجعلني أركض صوب جدتي، فقد ارتفع صوت رجــل يقول أسرعوا ما أمكنكم المعبر سيغلق في السّاعة الثانية عشــرة.. وصلت حيث تجلس جدتي وجررت الحقائب، نهضــت بصــعوبة ولحقت بــي.. كنا نمشي ونتمايل هي تحت ثقل السّنين وأنا تحت ثقل الحقائب التي أصرّت أن تضع داخلــها الصّــندوق الأثــري صندوق الدّنيا!

كنت أرى وقع كلمات الرجل على البشر الذين تراكضوا وتدافعوا كأنّه يوم الحشر.. كنت أقترب من البوابة الحديدية وأزاحم النّاس وأصرخ كي يساعد أحد ما جدتي لتصل إليّ حين لمحت "الجندرمة التّركية" تنسحب من المعبر ويحل مكانها عناصر من الجيش التركي.. العلم الأحمر يرفرف، البوابة الحديدية أُغلقت في اللحظة التي لامست يدي حديدها البارد، وكانت جدتي على بعد خطوات مني! رأيتها تكلّم رجلاً كان واضحاً أنّه من سماسرة المعبر، حاول إقناعي حين وصلت أن آخذ تاكسي مباشرة وأذهب إلى معبر باب السلامة فهو لم يغلق بعد. لكنّي شعرت أنّي أتعرّض لعملية نصب فرفضت العرض رغم اقتناع جدتي به وإلحاحها بقبولي له.

* * *

غزاني إحساس غريب أنّ كفاية لم تكن سعيدة بعودتنا إلى بيتها، واضطررت مباشرة لترجمة ذلك الإحساس برواية ما حدث والاعتذار عن عدم تمكننا من السّفر وتوضيح أنّنا سنبقى فقط حتّى صباح الغد ونعود إلى سلمى. قالت كفاية بحماس موجهة كلامها إلى جدتي: "إن كنت مصرّة على الذهاب إلى تركيا عليكِ الذهاب إلى "عزمارين" هناك طرق كثيرة للتهريب" كاد قلبي يتوقف حين رأيت حماس جدتي للفكرة واقتناعها بها بسرعة، فلم يخطر ببالي أن ألجأ إلى طريق التّهريب حتّى وإن أغلقت الحدود نهائياً وهذا ما أكدته كفاية بأنّ الحدود ستغلق إلى أجل غير مسمى ولن يكون ممكناً الدّخول إلاّ عن طريق التّهريب. أسقط في يدي،

جدتي مصرة على الذهاب إلى أقاربها في مرسين.. أقاربها الــذين لا أعرفهم ولم أسمع عنهم في حياتي.. ومرّة أخرى رضخت لرغبتــها، وقضيت الليل وأنا جالسة وجسدي ملفوف بالبطانية وأكاد أتجمد من البرد.. لكن عينيّ لم تتوقفا عن متابعة قراءة المخطــوط علــى الضّوء الشّحيح للشمعة. كنت أقرأ بسرعة علّي أصل إلى قصــة سهام.

* * *

الفصل الثاني

ضوء القمر يا جميز

البيت الثاني على اليسار
بيت رقيّة أم مصطفى

اندفعت رقيّة داخلة وهي تجرُّ طفلة صغيرة بيدها ودموعها تغسل وجهها، لم تكن ترى أحداً أمامها، توجهت إلى الغرفة الصّغيرة ونادت الحمّال ليدخل لها حاجياتها وعمتها رقيّة واقفة في فسحة أرض الدّار مع ابنتها هاجر مذهولتين!

عندما غادرت رقيّة الثّانية اللاذقية مع زوجها منذ ثمانية عشر عاماً كانت تحمل صرّة ملابسها وتجرُّ طفلة تشبه هذه، العمر نفسه تقريباً والملامح ذاتها. انتظرت عمتها رقيّة ريثما غادر الحمّال البيت وقالت بهدوء: "لن أسألكِ أين كنتِ ولماذا جئتِ ومن هذه الطفلة، ما يهمني الآن ماذا تفعلين هنا؟" كانت رقيّة في تلك اللحظة تفرغ حاجياتها من الحقائب وتبعد أغراض هاجر من الخزانة لتضع ثيابها وحاجياتها مكانها. لم ترد على عمتها، اكتفت بتنهيدة عميقة زفرت أنفاسها طويلاً وجلست على حافة السّرير، وقالت باختصار: "عدت إلى بيتي!" قالت الجدة رقيّة بهدوء: "هذه الغرفة لهاجر، اجمعي حاجياتك واذهبي لبيت أخوتك هم أولى بكِ". لم تتمالك رقيّة

نفسها وصرخت بعمتها: "أتطردينني؟" ردّت عمتها باللهجة الهادئة نفسها: "لا، أقول لكِ لا يوجد مكان لكِ عندي، هاجر تشغل الغرفة مع ابنتيها". نبرت رقيّة بغضب: "وماذا يجري إذا أقامت هاجر معك في الغرفة الواسعة؟ لكنّك تكرهينني من دون سبب، ليتني لم أحمل وزر اسمك، لماذا سميتموني رقيّة؟ اللعنة على عمري وحظي من أوّل يوم ولدت فيه حتّى الآن".

لم تغضب عمتها بل مدت يدها تساعدها في إعادة الحاجيات إلى الحقائب وهي تقول بهدوء: "رحمة الله على أخي أخطأ حين ظنّ أنّك تشبهينني فأطلق عليكِ اسمي".

خرجت رقيّة وهي تشتم وتلعن وأبعدت بيديها الفتيات اللواتي تجمهرن قرب الباب وقد دفعهن الفضول ليسمعن ما يدور في الداخل.. كنت أنا وحياة أمام الجميع فوقعت يد رقية على كتفي ووجه حياة التي انفجرت بالبكاء مباشرة مما جعل هاجر تخرج وراء رقية وتشتمها و لم تتوقف رقية لكنّ صوتها كان يصلنا وهي ترد على هاجر بشتائم لم نسمعها من قبل!

كان يوماً أسودَ... هكذا كان مولد رقيّة، ولسبب خفي تدركه نساء الحي بحدسهن وافقت عائشة على اقتراح زوجها بتسمية مولودتها على اسم عمتها. وكان الاسم ذريعة لتفش عائشة غلّها برقيّة كلّما انزعجت من حماتها فتدعو عليها بقصف عمرها وتقول بتشفٍ: "لمين رح تطلعي؟ خدو البنات من صدور العمات، الله يرحم أهل الأمثال لم يتركوا لنا شيئاً!"

لم يخفَ على رقيّة أنّ زوجة أخيها تعيّرها بأنّها تجاوزت سن الزواج و لم يطرق باب بيتهم أحد فابتسمت بهدوء وقالت: "لا تخافي

عليها، لكلّ قمحة مسوسة كيّال أعور". وربّما كان تعـــيير عائشـــة لرقية أحد الأسباب التي جعلتها تقتنع بالزواج من عبد الرحمن بعـــد أشهر قليلة.

كان على رقيّة أن ترعى أولاد أخيها الذين كانوا بحكم الأيتـــام بعد ذهاب شقيقها إلى السّفر بر مع من ذهبوا.. وجد الذكور أعمالاً وخرجوا من بيت العائلة ليكوّنوا عائلاتهم وبقيت "رقيّة الثانية" الفتاة الوحيدة بعد ثلاثة ذكور في رعاية عمتها.. كانت رقيّة تتحلّى بصبر تُشبِّهه نساء الحي بصبر أيوب لاحتمالها شراسة ابنة أخيها وطباعهـــا الصّعبة، وكانت تتمنّى أن يرزقها الله بابن الحلال كي تتخلّص مـــن المسؤولية المرهقة الملقاة على عاتقها. لكنّ الأيام كانت تمـــرّ ورقيـــة تجاوزت الرابعة عشرة ولم يأتها عريس! من الصّعب بل من المستحيل أن يتقدّم إليها شاب من الحي فكلُّ النّساء يعرفنها جيـــداً ويتجـــنبن التّورط في خطبتها مع أنّها كانت تتمتع بحسن لافت للنظر بالإضافة إلى طولها وبياض بشرتها، وكثافة شعر يصل طوله إلى كعبيها. أخيراً جاء الفرج على يد إحدى قريبات أمّها.

عادت "صفية المُهر" من تركيا بعد غياب عشر سنوات لتـــزور أمّها المريضة ومرّت بطريقها لتسلّم على قريبتها عائشـــة. فوجئـــت صفية بصبية فاتنة تفتح لها الباب وحين سألتها عن عائشة فرّت مـــن أمامها والدّموع تملأ عينيها.. من دون مقدمات سألت صفية رقيّة إن كانت الصبية مخطوبة، وحين نفت رقيّة، طلبت صفية يدها لشـــقيق زوجها.. قالت صفية: "شقيق زوجي يحبّ الشّعر الطّويل، سيصعقه أن يكون شعرها بهذا الطول، أنا واثقة أنّها مثلك شـــاطرة وســـت بيت، ما رأيك يا رقيّة؟" لم تستعجل رقيّة الردّ، أخفت فرحتها وراء

ابتسامة مهذبة وقالت: "اسأليها، الرأي رأيها أولاً وأخيراً". كانت رقيّة في أعماقها تتمنّى أن يتم الأمر لتتخلّص من مسؤولية ابنة أخيها، وقد أرهقها أمر العناية بفتاة مشاكسة لا يرضيها شيء.

تمّت خطبة رقيّة وزواجها بسرعة لم تكن تتوقعها عمتها، وتخفّفت من الحمل الثّقيل حين سافرت مع زوجها إلى مرسين. لكنّ راحة البال أبت أن تقيم طويلاً في بيت رقيّة الهادئ. عادت ابنة أخيها لتكتسح البيت برفقة زوجها الذي جاء ليعمل في اللاذقية، و لم يكن لديها مكان تقيم فيه سوى بيت عمتها الذي تعتبره بيتها وقد ادّعت أنّ لها حقّاً شرعياً فيه! لكنّها فوجئت أنّ دعواها فشلت فقد كان لدى عمتها حجة البيت مسجلة باسم ابنها مصطفى!



مآلات الغياب

حين وصلت رقيّة بيت أخيها "الصهيوني" كانت زوجته تكنس أمام الباب وترش الفسحة التّرابية بالماء. توقفت عن العمل وخــرس لسانها، لم يكن صباحاً طيباً ذاك الذي حمل لها ريح رقيّة، فلم تكــن المرأتان يوماً على وفاق أبداً بل كانتا تتشاجران لأتفه الأسباب خاصة وأنّ رقيّة ذات الطبع الصّعب تتفوق على زوجة أخيها بطول اللسان وبالجمال والقوة الجسدية مما يجعل الأخرى مغلوبــة علــى أمرهــا وخاسرة في أيّ شجار يدور بينهما. تمالكت هدى نفسها وجفّفــت يدها بطرف تنورها ومدّتها لرقيّة وعلى وجهها ابتسامة باهتة.

لم يتأخر محمد سعيد هذا اليوم عن الحضور إلى البيــت، فقــد أرسلت زوجته أحد الأولاد ليخبره بقدوم شقيقته. سلّم عليها بفتور وقال بفظاظة: "مثل ما ترين يا رقيّة البيت ضيّق، يعــني إذا كنــت تفكرين بالإقامة معنا انزعي الفكرة من رأسك.. الأفضــل تروحــي لعند عمتك". اختضّ جسد رقيّة بقوة وتحفزت للرد لكنّها ســكتت فجأة وأكملت مضغ طعامها من دون تعليق على كلام شقيقها الذي أراد أن يوضّح الصّورة أكثر لرقيّة في اللحظة التي قرع بهــا البــاب وجاء الحمّال بأغراض رقيّة!

لم تكن هدى على استعداد لقبول وجود رقيّة في بيتها على أنّه أمر واقع وإن اضطرت لمغادرة البيت ريثما يجد زوجها حلاً.. ووجد محمد سعيد الحل في اليوم نفسه، التقى بقريبه أحمد وطلب منه أن يؤجر لأخته غرفة في بيته الواسع، وسعى لنقل أغراضها وهي تنظر بغيظ والشّتائم تتدفق من فمها بلا توقف. قالت رقيّة وهي تغادر بيته: "كل عمرك رح تبقى دلدول عند مرتك، وما رح تنزل عن كتافك يا صهيوني ليوم الدين".

في المساء زار محمد سعيد رقيّة في غرفتها التي استأجرها لها في بيت قريبه أحمد أنوس، وحاول مصالحتها لكنّها أصرّت على جرحه وتوبيخه وأطلقت لسانها حتّى أفرغت كلّ ما بداخلها وحين هدأت قالت له: "على كلّ حال لي رب يتكفل بي وبأمل وأنت ستبقى طوال عمرك تابعاً لهدى، وخادماً تحت قدميها، وما خاب من أطلق عليك اللقب صار الآن مناسباً لك".

شعر محمد سعيد بغصة في حلقه وعلى الرغم من أن رقيّة شقيقته الصغرى إلاّ أنّه لم يكن يجرؤ على استفزازها أو الردّ على شتائمها.. كان يوماً مشؤوما ذلك اليوم الذي أصرّت فيه أمّه على مرافقة أهلها إلى قرية "صهيون" القريبة من اللاذقية ليفاجئها الطلق هناك وتضع حملها، ولينسى الأقارب بعد ذلك اسمه الذي أطلقه عليه أبوه وينادونه "بالصهيوني" الذي أصبح لقبه ورافقه طيلة حياته.

علم محمد سعيد من رقيّة أنّها رأت ابن خالها مصطفى في ميناء بيروت، وأنّه تحاشى أن يلتقيا.. وروت له قصة ابن خالها الذي سافر وتزوج بيروتية بشعة وطلّقته بعد ثلاث سنوات؛ لأنّه عقيم! لم يجد

محمد سعيد في نفسه الجرأة ليقول ما بنفسه فعلّق قائلاً: "الحمد لله أنّك لم تتزوجيه". وأراد بجملته تعزية أخته التي لم تفكر عمتها بخطبتها لابنها مع أنّها لاحظت تعلّق رقية به منذ الصّغر.. أحسّت رقيّة بالارتياح؛ لأنّ الله انتقم لها من مصطفى ومن عمتها التي ما زالت تظنّ أنّ ابنها قد مات في البحر وأكله السّمك!

لكنّ محمد سعيد لم ينتظر حتّى الصّباح، ذهب إلى بيت عمته ليلاً، طرق الباب، فتحت هاجر ملهوفة وهي تسأله: "ما الذي أتى بكَ في هذا الوقت يا صهيوني؟".

حين استوعبت عمته الخبر أغمي عليها.. وعلا الصّراخ في البيت، وحضرت الجارات على وجه السّرعة.. لم تكن أم محمد – أوّل الواصلات– تعرف إن كان عليها أن تزغرد أم تبكي؟ انشغل الكلّ في إعادة رقيّة إلى وعيها.. وانسحب محمد سعيد من المشهد بهدوء.

...

عادت رقيّة إلى سابق عهدها وكأنّ العمر رجع بها إلى أواخر العشرينات عندما تزوجت هاجر من عبد الغفور وسافرت معه، وبقيت وحدها مع مصطفى الذي رفض أن يتزوج فقد كان يحلم بتلك البلاد الغامضة التي يتحدّث عنها البحارة بشغف ويصفون نساءها بأنّهنّ حوريات من الجنّة. كانت تهمس لنفسها دائماً "الولد سرّ أبيه، ورث اللعنة نفسها".

لم يكن قرار رقيّة بالسّفر إلى بيروت للبحث عن مصطفى قراراً حكيماً لكنّها اتّخذته باندفاع ولهفة.. وقصدت بيت ابنة عمها المتزوجة هناك.

استقبلتها "سنية" أم محي الدين استقبالاً استثنائياً، كانتا صديقتين حميمتين وقد أصرّت رقيّة على تطريز جهاز "سنية" بنفسها و لم تأخذ منها "بارة" واحدة. البيت الصغير المفروش على الطراز الحـــديث في أرقى شوارع بيروت لم يدخل الطمأنينة إلى قلب رقيّة التي شـــعرت أنّها جاءت تبحث عن إبرة في كومة قش.. لكنّ زوج سنية طمأنهـــا إلى أنّه سيسأل عنه في المرفأ ويستدل على بيته ويوصلها بنفســـه إلى هناك.

لقاء رقيّة مع مصطفى كان مشحوناً بالتّوتر والدّموع والرّجـــاء من طرفها وبالبرود واللامبالاة من طرفه، كان ردّه حاسماً لن يعـــود إلى اللاذقية؛ لأنّه لا يشعر بأيّ انتماء لها.. لن يتزوج ثانية فقد علّمته التّجربة أنّ المرأة كائن سفيه وأخرق.

عادت رقيّة إلى اللاذقية بعد أسبوع تجرّ خيبتها وتبلع غصتها.. عادت للعمل على ماكينة التّطريز والعناية بابنتي عبد الغفور وهـــاجر اليتيمتين.

كانت الدّموع تغافلها بغتة وتتساقط على القماش بين يـــديها وتتحسّر على مصيرها ومصير ابنتها التي لم ينصفها القدر في زواجها الأوّل فطلّقها زوجها بعد أشهر، والقدر نفسه لم يشأ أن يترك لهـــا زوجها الثاني فاختاره الموت بعد خمس سنوات من زواجهما ليخلّفها أرملة وأماً لطفلتين كبراهما في الرابعة من عمرها.

* * *

البيت الثالث على اليمين

بيت عاصم آغا

...

بعد زواجي صارت أيام المدرسة الحلم الذي لا يفارقني، أجترّ ذكرياتها وألوّن لحظاتها فتصبح أشد حضوراً وجمالاً، ذلك التّكرار ساعدني في رؤية ما جرى بصورة أوضح لكنّها معرفة تجلب الكآبة واليأس فأنا أدرك أنّي مهما غرقت في أحلام اليقظة سأفتح عينيّ على واقع أمر من العلقم. أكثر الأحلام التي تمنّيت لو أعيشها ثانية حلم المنديل!

كنّا نسير بخطىً حثيثة صوب المدرسة حين لمحته يركض نحونا بخفة غزال في برية شاسعة.. توقف الزمن في اللحظة التي صار على مقربة مني وكنت أسير على طرف الرصيف أتأبط ذراع حياة وبجانبها سهام وعفراء، كانت سهام أوّل واحدة توقفت عن السّير تجاوزتها عفراء بخطوات ثمّ عادت أدراجها مندهشة من استجابتنا أنا وحياة وتوقفنا أيضاً.. ضغطت حياة ذراعي بقوة وشعرت برعشة يدها فوق كفي.. كان قلبي في تلك اللحظة يعاني فراغاً هائلاً تسرّب إلى رأسي ولم أعد أشعر بالموجودات ولم أعد أسمع من أصوات الكون إلاّ صوته المرتجف ونبرته المرتبكة وهو يمدّ يده بمنديل مطرّز ويقول: "وقع من إحداكن". تبادلنا نظرات تراوحت بين التّساؤل والاستغراب.. مدّت عفراء يدها إلى حقيبتها وأخرجت

منديلها وقالت بهدوء مصحوب بابتسامة واثقة: "لـــيس منـــديلي". كانت سهام أسرعنا استجابة، مدّت يدها وأخذت المنديل ونظـــرت في عينيه نظرتها السّاهمة التي تربك أعتى الرجال وهمست: "هـــو لي.. شكراً لأنّك أحضرته". لم يعلّق بكلمة.. مضى في طريقـــه وتابعنـــا السّير إلى المدرسة وقلوبنا في حناجرنا.. حـــدث شـــيء غريـــب لم أتوقعه، التفتت حياة ناحية سهام وقالت لها: "لماذا ادّعيتِ أنّ المنديل لك؟ أنا أعرف جيداً أنّه ليس لكِ، أحفظ شكل مناديلك جيـــداً". ضحكت سهام ضحكتها السّاخرة وقالت بمكـــر: "المنـــديل لـــيس لإحدانا، ألم تفهمن؟ هو جعله سبباً ليتحدّث إلينا، بل هو قصـــد أن يعطيه لإحدانا.. وانتظر أن تفهم المقصودة من تلقاء نفســـها، وأنـــا فهمت لذا؛ فالمنديل لي!

مرّت الأيام بعدها وأنا أنتظر أن يخرج من البيـــت في الوقـــت الذي أخرج فيه علّه يقول لي شيئاً بخصوص المنديل أو أستطيع معرفة إن كان قد تعمد فعلاً أن يعطيه لسهام.. كان يكفيني نظرة واحـــدة لأتأكد أنّي كنت المقصودة وليست سهام.. ومع يقيني أنّه يحبني أنـــا وإن لم يبح لي بذلك إلاّ أنّ الغيرة من غمز سهام وتلميحاتها ونظراتها الفاضحة نحوه في طريقنا إلى المدرسة كانت توغر صدري وتشـــعرني أحياناً أنّ بإمكان هذه القصة أن تنهي صداقتنا!

لكن يد القدر تدخلت و لم أحظَ منه بلقاء، واحتفظت ســـهام بمنديله.

بعد موت سكينة زوجة أبـــي الأولى، عمّقت العزلة المفروضة على سعدى شعورها بالألم ودفعتها يوماً بعد يوم إلى كراهية لم تلبث أن تحوّلت إلى التّفكير الجدي بالانتقام من ضرّتها نسرين التي كانـــت

السّبب في زواجي الكارثي الذي تمخض عن ابنة معاقة ماتت وعمرها أربع سنوات، جاء بعدها ثلاثة ذكور ماتوا قبل أن يولدوا!

ثمّ جاءت "وصال" التي كانت نسخة عن أبيها في الوجه وقصر القامة ولون البشرة المائل إلى السواد!

و لم تكتفِ نسرين بذلك بل أوحت لعاصم آغا أنّها لم تعد قادرة على القيام بأعمال المنزل بعد أن أصبح لديها أربعة أولاد وأنّ سعدى لا تعمل شيئاً طيلة الوقت "تكش الذباب". نفّذ عاصم آغا رغبة نسرين غير المعلنة بأن أمر سعدى بالنزول يومياً لتنظيف بيت ضرها والقيام بما تأمرها به والصّعود إلى غرفتها قبل عودته إلى البيت!

وجاءت الفرصة التي انتظرها سعدى حين أصبحت ابنة نسرين البكر "ألما" في المرحلة الاعدادية واحتاجت لمدرس يساعدها في فهم المواد الصّعبة فأشارت على ضرها بمدرّس "شاطر" قريبها من قرية "الأمودة" كان يسكن في اللاذقية بعد تعيينه مدرّساً في التّجهيز الأولى، وكان على استعداد لتدريس ألما[1] بأجر بسيط ومستعد للمجيء إلى السّرايا في أيّ وقت.

لم تتوقع نسرين أنّ ابنتها المراهقة ستقع في حبّ أستاذها وحين ارتابت في الأمر صارت تتنصت على المدرّس فاكتشفت الفاجعة.. كان الدّرس في العشق والغرام وكانت ابنتها منساقة وغارقة حتّى أذنيها. دفعت نسرين باب الغرفة بعنف و لم تتمالك نفسها من صفع الأستاذ وهي تطرده.. ثمّ صبّت نقمتها على سعدى، وصفتها بأبشع الصّفات و لم تتوانَ عن رميها بفردة حذائها وهي تأمرها ألا تريها وجهها بعد الآن. انسحبت سعدى بهدوء ومن دون أن ترد بكلمة

(1) أصل الاسم تركي معناه تفاحة.

على ضرتها.. اكتفت بالفضيحة التي لن تستطيع نسرين تداركها ولا لملمتها بعد أن وقف الجيران أمام الأبواب يستمعون إلى صراخها وشتائمها. لكن ما حدث بعد ذلك لم تتوقعه أبداً، فقد استيقظ أهل البيت على صراخ نسرين في اليوم التّالي حين لم تجد ألما في غرفتها.

غابت ألما ما يقارب الشّهرين قبل أن يستطيع عاصم آغا معرفة مكانها وإعادتها إلى البيت. لم يكن صعباً على الأغا أن يجبر المدرّس "الجربان" على تطليق ابنته بل ذهب أبعد من ذلك فقد نفاه إلى قرية بعيدة بعد وساطات كثيرة كي لا يحرمه من وظيفته، وحبس ألما في غرفتها ريثما يجد لها عريساً مناسباً.

* * *

هذه الشخصيات التي تحدّثت عنها جدتي وداد يعرفها سكّان اللاذقية كما يعرفون أنفسهم، ربّما لم يلتقِ بعضهم بجوان الجوني الذي كان يعمل مسحّراً في رمضان بالإضافة لبيع الجميز، وربّما لم يركب البعض مع العربجي "أبو حسان"، لكن من المؤكد أنّ الجميع قد سمعوا بأسمائهم وعرفوا نتفاً من تفاصيل حياتهم لذا؛ أؤكد على أنّ ما جاء في أوراق جدتي لم يكن أكثر من مذكرات!

...

الحلم الثاني الذي أكّد لي أنّ رشدي لم يكن يقصد سهام بالمنديل، هو امتداد علاقتنا إلى الطّفولة البعيدة وارتباطها بالجميز.. كنت عالقة بين أغصان الجميزة الضّخمة أحاول أن أتخلّص من خوفي لأقفز إلى الأرض ولا أستطيع.. سمعت همسه: "لماذا لم تقولي لي لأقطف لكِ الجميز؟" جعل من ظهره جسراً لأضع قدميّ عليه وأنزلق

إلى الأرض.. منذ ذلك اليوم لم أجرؤ على صعود الجميزة مرّة أخرى! وصار وجهي يحتقن ويشتعل خجلاً كلّما ضبطته يحدّق فيّ وأنا ألعب مع البنات، أو ذاهبة برفقتهن إلى المدرسة.

صرت صبية و لم يعد من المناسب أن أقف مع الأولاد بانتظار اكتمال القمر لأقطف من جميزة الحي، و لم يعد يصعد الشّجرة الضّخمة ليقطف لي أحلى الثّمرات ويضعها في منديل يتركه قرب باب البيت، فأنزل خفية عن عينيّ زوجة أبي نسرين وآخذ الحبات وأصعد الدرجات بسرعة وقلبي يرتجف.

حين تزوجت وانتقلت إلى حي الصليبية كنت أسمع صوت البائع المتجول "جوان الجوني" ينادي بأعلى صوته "ضو القمر يا جميز" فأسرع إلى "الصالة" وأقف خلف النّافذة أراقب عربته ذات الدواليب الثّلاثة يدفعها جوان أمامه وهو ينادي بصوته الجميل ويدلف تحت القنطرة وتغيب عن ناظريّ الثّمار الشّهية؛ لكنّ صوت جوان يظلّ يصلني من بعيد "ضو القمر يا جميز". جوان مثل الجميز يعشق السّير في طرقات اللاذقية ليلاً لذا؛ ينطلق مع عربته بعد آذان المغرب مع هذا لم يكن وجهه المضيء بابتسامة دائمة يخفى وسط عتمة الأزقة.. وحبات الجميز التي يقطفها من بستان عائلته من أشجار هرمة عاصرت أجداده تضيء هي أيضاً فوق العربة كقناديل لا تخطئها عين عاشق! آخر ربع ليرة دفعتها ثمن كيلو جميز كانت عقب المغرب في رمضان.. يومها سمعت صوت جوان مرتين، مرّة بعد المغرب ينادي على الجميز ومرّة عندما مرّ ليسحّر أهل الحي منادياً عليهم بأسمائهم متوقفاً لدقيقة أمام كلّ بيت حتّى يسمع صوت صاحبه يردّ عليه من الدّاخل.. بعدها رحل جوان إلى العالم الآخر، لكنّه لم يأخذ عربته، بقيت مركونة قرب البستان

بانتظار يد تجرّها من دون جدوى.. وبعدها لم أعد آكل الجميز!

يخفت صوت جوان تدريجياً ليحل مكانه همس رشدي في رسالته اليتيمة والتي ما زلت أحتفظ بها في صندوقي المقفل على تجليات روحي التي تخطفني في غفلة من الزمن فأسطرها على ورق رسائل لا تعرف طريق البريد! وكيف تعرف من لا عنوان له!

كثيراً ما رأيته في منامي يدفع عربة بنية من خشب الورد تحتضن ثمار الجميز ويبتسم لي تلك الابتسامة السّاحرة التي خصّني بها من بين فتيات المدينة، وما أزال أشعر أنّها تخصني وحدي. حدّثت أمّي عن المنام، قالت لي: "الجميز في الحلم يعني المال الوفير، لكنّه في حلمك لا يدل إلا على الفقر وضعف البصر، يقول المثل: "حظي على حظ أمّي مُركَّب، وحظي سبق حظ أمّي بمرْكَب"

لم تكن سعدى مخطئة فحظّي كان أسود من قرن الخروب كما تقول رقيّة.

كنت أجمل أخواتي وأسوأهن حظاً، ولكثرة خطّابي منعتني زوجة أبي من الظهور أمام الزوار ولم يكن جمالي السبب الوحيد بل لأنّي كنت واسعة الخيال أجذب بحكاياتي الزائرات من النسوة فيمتدحنني، ويصررن على وجودي في مناسباقمن، لكنّ نسرين خانم كانت تظهر حزماً لا يقبل نقاشاً حدّ إقناع عاصم آغا بأنّي ذكية وشاطرة وأتقن التّطريز والخياطة ولست بحاجة للمدرسة. ولم يكن عاصم آغا في ذلك الوقت يهتم لمصيري الذي رسمته زوجته الثالثة المدللة فقد أطلق يدها في حياته وأملاكه وبيته وانسحب من إدارة أيّ شيء بعد ملازمته الفراش إثر مرض أقنعته نسرين أنّ الأطباء قالوا إنّه مرض شيخوخة مبكرة وأخفت عنه الحقيقة.

لم أتخلّص من هوسي بتفسير الأحلام وتأثير أيّ حلم أراه على مجريات الواقع. فقد آمنت منذ صغري أنّ أحلامي ليست سوى نبوءة ستحدث يوماً ما وكان لذلك أثره الكبير في تسليم أمري للأقدار تفعل بي ما تشاء. لم أمتلك حسّ التمرد ولم أعرف الاعتراض على قسمتي وتعلّمت كيف أخفي ألمي عن الآخرين كي لا أكون سبباً في إزعاجهم.

سيطر عليّ لمدة طويلة حلم لم أجد له تفسيراً.. كنت أرى نفسي أسير بصعوبة في جبال عالية خضراء جميلة لكن من دون قدمين.. حين أنظر للأرض لا أرى ساقيّ.. ثمّ أصل إلى شاطئ بحر يشبه بزرقته بحر اللاذقية لكنّ شاطئه مختلف تماماً.. وكنت أشعر دائماً بوجود ذراعين إضافيتين تحيطان كتفيّ بحنان أثناء سيري على الشّاطئ.. كانتا منفصلتين تماماً عني.

حين رأيت المنام للمرة العاشرة أفقت مذعورة، تحسست ساقيّ خشية أن تكونا غير موجودتين.. استيقظ زوجي منزعجاً، حين رويت له المنام.. قال بسخرية: "لاشكّ أنّه الحنين، سافري إلى الأمودة ربما ترتاح أعصابك".

دائماً يذّكرني أنّي ابنة سعدى الخادمة الآتية من الجبال ولم ينسبني مرّة إلى أبي! مع ذلك كنت أحمد الله أنّ زوجي لا يعرف أهل أمّي خاصة أم علي.

لم أكن أعرف أنّها جدتي، لكنّي كنت أناديها هكذا، مع أنّها لم تكن تشبه إحدى عجائز الحي لا بطريقة كلامها ولا ملابسها ولا أفكارها الغريبة، لكنّ شيئاً غير مفهوم بالنّسبة لي جعلني أتلهف للقائها وأنتظره في أوائل الرّبيع من كلّ عام.. تفرحني هداياها

الصّغيرة من الأعشاب البرية خاصة تلك الأعشاب الحامضة "الحميضة".. لفت انتباهي أنّ أمّي كانت تأخذ الأعشاب من العجوز، الهندباء والخبيزة والزعتر البري الأخضر، وتعطيها أضعاف الثمن الذي تطلبه من الآخرين، وكنت ألمحها تضع في يدها خلسة صرة صغيرة، وتتصدق عليها بأشياء لا تحتاجها خالتي سكينة خانم. الأمر الغريب في كلّ ذلك أنّ أمّي كانت تقف وقتاً أطول من اللازم مع العجوز عند باب السّرايا الخارجي وتكلّمها همساً وفي محجر عينيها ظلّ دمعة تغلبها في بعض الأحيان وتفضح العلاقة المريبة بينهما.

بعد خطبتي بأيام جاءت العجوز وجلست عند باب رقية.. انتظرت طويلاً أن تنزل أمّي لتراها، لكنّ جوّ البيت المكهرب منع أمّي من الخروج إليها، ولم يعد مسموحاً لي أن أنزل إلى الشّارع لآخذ هديتي من الأعشاب، يومها سمعت توسلات أمّي لعاصم آغا كي يتركها تذهب لرؤية العجوز للمرة الأخيرة، وسمعت الرد الحازم من عاصم آغا بمنعها من الخروج أو طلاقها إن أصرّت على ذلك.

سكتت سعدى أمام التّهديد الصّريح، واختارت أن تترك العجوز تنتظر حتّى المساء ثمّ ترحل إلى قريتها في الجبال، ولم أرها بعد ذلك سوى في المنام!

لكنّ العجوز تركت لي عند جدتي رقيّة وللمرة الأولى "دَفَاً"(1) مليئاً بالتّوت الأحمر. لم تكن جدتي تبيع دفوف التّوت، كانت امرأة فقيرة وبسيطة تكتفي بقطف الأعشاب الجبلية وبيعها في حارات اللاذقية في الربيع.. أمّا باقي المواسم فلم أكن أعلم بالضبط ماذا

---

(1) آنية خشبية مخصصة للتوت يجمع فيها ويباع معها.

كانت تعمل. كثيراً ما تخيلتها وتخيلت بيتها وخبز تنورها الذي أكلته مرة واحدة وكان استثنائياً مغموساً بالزيت والفليفلة الحارة..

وتصورت أنّها اشترت التّوت خصيصاً لي، وربّما جاءها هدية من جارة أو قريبة لها فأحبت أن تحضره لي. ما حصـــل أنّ التّـــوت الذي فقد رونقه في اليوم التّالي وتغيّر طعمه بعض الشّيء كان أحبّ هدية وصلتني في حياتي خاصة عندما صارحتني أمّي قبل عرسي بأيام أنّ تلك المرأة الغريبة التي كانت تبهرني بأفكارها هي أمّها!

أذكر أنّها حذّرتني مرّة ونحن جالستان على عتبة باب جـــدتي رقيّة من الاقتراب كثيراً من حياة، وكان كلامها الغامض عن سكّان المدن الغدّارين الذين لا يصاحبون أحداً ما لم تكن لديهم مصلحة لديه أو يضمرون له شرّاً سبباً مباشراً في انقطاعي عن التّفكير بها ومحبتها، بالإضافة إلى تحذيرها لي من قطة الحي التي كنـــت ألاعبـــها يومـــاً وتلتصق بـــي ولا تفارق عتبة باب أم رشدي مهما حاولت نوريـــة طردها، نبّهتني حينها إلى أنّ القطة كانت في جيل مضى شحّادة لذا؛ لا تفارق باب البيت وربّما لها ثأر عند نورية!

قلت لسعدى إنّي كنت أشعر دائماً أنّ هناك رابطاً خفياً بـــيني وبين تلك المرأة على الرغم من أنّي لا أحبّ أفكارها خاصة وأنّهـــا حاولت أن تفرّق بيني وبين حياة وتدخل الشكّ في نفسي تجاههـــا. ابتسمت سعدى بمرارة وقالت: "أمّي امرأة طيبة وأفكارها لا تخصها وحدها هي إرث فُرض علينا ممن هم أكثر منا علمـــاً، لا تلوميهـــا، أحياناً أشعر أنّها على حق على الرغم من أنّي تزوجت عاصم آغـــا وأعيش بين المسلمين وأحبّ أهل الحي جميعاً لكنّ تلك الأفكار تنخر عقلي بشدّة بين حين وآخر.. أذكر أنّها كانت تحذرني من "ضـــرتي"

سكينة خانم ومن غدرها، وحتّى من والدك.. كثيراً ما حرّضتني على قتله، سامحها الله، وكانت تذكّرني دائماً أنّ السّنة ينتظرون الفرصة لذبحنا والقضاء علينا.. وأنّهم سيهجمون يوماً على الجبال ويبيدوننا جميعاً. في طفولتي جئت مرّة واحدة معها إلى اللاذقية وجبت معها السّوق والحارات وهي تبيع الخضار وأضاعتني لدقائق وكنت أتفرّج على الدكاكين ففقدت عقلها كانت تدور وتصرخ وتشد شعرها، حين وجدتني كانت ترتجف من الخوف وقالت بالحرف: "تصورت أنّهم ذبحوكِ، إياك أن تقتربي منهم".

حديث سعدى أضاء قلبي قليلاً وغمرني بهدوء عجيب سامحت جدتي وتصالحت معها لكن ذلك تمّ بيني وبين نفسي فلم أعرف منذ تاريخ زواجي شيئاً عنها ولم أسعَ لمعرفة شيء. لكنّ سعدى حافظت على طقس طبخ الخبيزة كلّ ربيع وسكبها في صحون وتوزيعها على الجيران، كانت تحضر كميات كبيرة من السّوق بعد أن توقفت أم علي عن المجيء إلى الحي.. تنقيها وتجعلها باقات ثمّ تفرمها وتغسلها جيداً وتصفيها من الماء، وتفرم البصل وتقليه بزيت الزيتون وتتركه أشقر اللون وتضيف إليه الملح والفليفلة اليابسة الحمراء وتضيف الخبيزة وتحركها حتّى تذبل ثمّ تغطيها وتتركها على نار هادئة لتنضج. أذكر جيداً أنّ أمّي كانت تزيّن الصّحن الذي ترسله لنسرين خانم بشرائح الليمون وتغسل فجلاً طازجاً وترسله مع الصّحن.. لكنّي كنت أرى نسرين وهي ترمي محتويات الصّحن في سلّة الزبالة وتعيده إلى أمّي من دون أن تغسله!

أخيراً قرّرت أن أذهب إلى "أم جميل الخبّازة" لتفسر لي الحلم. لم تلجأ أم جميل إلى فنجان القهوة كان الأمر أوضح من اللجوء إلى

وسائل تساعدها في الكشف عن المجهول، قالت بحذر: "لن يعيش لك طفل أبداً، وستهاجرين إلى بلاد بعيدة، وسترافقك فتاة من صلبك لكنّها ليست ابنتك". لم تأتِ البصّارة بجديد، فقد مات رضا بعد ولادته بأيام، وأسقطت بعده ثلاثة ذكور لم يكتمل حملي بهم حتّى الشّهر السّادس! كنت أملك حدساً غريباً بأنّ شيئاً ما سيحدث في زمن ما لكنّي لا أعرف متى ولا أين لذا؛ كان تفسير أم جميل الأقرب إلى قناعتي. بقيت تلك "الرؤيا" تؤرقني زمناً طويلاً حتّى تلاشت بالتّدريج و لم أعد أفكر فيها في خضم أحداث طغت على رؤاي أوّلها مرض والدي عاصم آغا.

* * *

البيت الثاني على اليسار
بيت رقيّة أم مصطفى

...

لم تكن الجدة رقيّة في أوائل أربعينات القرن الماضي –وقد تجاوزت السبعين من عمرها– قد فقدت لياقتها، لكنّها فقدت مقدرتها على الجلوس إلى ماكينة السنجر بسبب ضعف في بصرها جعلها تخطئ موضع الإبرة حتّى وهي تطرّز القماش على يدها، في تلك الفترة أتقنت هاجر ما تقوم به أمّها من أعمال الخياطة والتّطريز وشغل الكروشيه.

كانت هاجر تحمل ماكينة السّنجر وتخرج إلى الشّارع مصطحبة ابنتيها تنتظر أن يمرّ العربجي "أبو حسان" ليأخذها بطريقه إلى "دمسرخو" حيث تبقى عدّة أيام تخيط الثياب للفلاحين هناك، ثمّ تتابع طريقها سيراً بين الحقول..

كانت الحقول المزروعة بالقمح تمتدُّ مسافات طويلة في منطقة المروج، وغالباً ما تبدأ رحلتها أيام الحصاد، فتمرُّ بالحصادين وتمكث حتّى العصر وقد تطول إقامتها حتّى اليوم الثاني تقوم أثناءها برتق الملابس للحصادين وخياطة ما تيسر من ألبسة للصغار.

حين تصل إلى "جميزة بيت زيادة[1]" ترتاح قليلاً في فيئها وتتابع بعد ذلك مشوارها إلى مقام ابن هانئ حيث تتخذ لها مجلساً قريباً منه

(1) كانت جميزة ضخمة في بستان "آل زيادة" تقع على طرف البستان وسميت الأراضي في تلك المنطقة بأراضي الجميز نسبة إليها.

بين الشّجر الكثيف القريب من الشّاطئ الرملي، تفترش الأرض قرب تينة ضخمة كانت معْلماً لقاصدي المقام.. تبقى أياماً في خيمة ينصبها لها أهل المنطقة ثمّ تعود إلى اللاذقية في شاحنة عابرة أو برفقة العربجي "أبو حسان".

لم تكن النقود التي تحصل عليها في رحلتها تلك كثيرة لكنّها تكفي لتعيش مع ابنتيها وأمّها. بالإضافة إلى تحايلها على الزاد بطبخات مبتكرة أشهرها أكلة "الشول" التي فرضها الفقر والحاجة في الأربعينات وظلّت الطبق المفضل لدى الكثير من الأسر فيما بعد لكن استبدل الشول بورق الملفوف، والشول ورق القرنبيط المعروف في بلادنا باسم "الزهرة" كان أصحاب البساتين الممتدة على طول الشّاطئ في اللاذقية يقطفون القرنبيط ويبيعونه، ثمّ يقطفون أوراقه الخضراء الجيدة ويعطونها للنّاس من دون ثمن مع بعض الخضار، البصل والبقدونس والبندورة، فكانت النّساء يفرمن الخضار ويضفن إليها البرغل ويصنعن من هذه الحشوة "محشي" ملفوف بورق القرنبيط. تطورت الطبخة فيما بعد فصرن يستخدمن ورق الملفوف لصنع الأكلة "محشي الملفوف بالبرغل والخضار" يسلق ورق الملفوف ليسهل لفه، وتفرم سلطة من البقدونس والبصل والبندورة ويضاف إليها النعنع والفليفلة والبهارات وحمض الليمون والملح تخلط وتحشى بورق الملفوف وتطبخ بالماء والملح، ويصنع بجانبها صلصة من الزيت والثوم وحمض الليمون والفليفلة الحمراء الحارة، ويفضّل أن تنقع الفليفلة سواء كانت يابسة أم دبس بزيت الزيتون زمناً كي تتشرّبه قبل وضع حمض الليمون والملح والثوم المطحون.. ويغمس المحشي بها أثناء الطّعام.

حين أصبحت حياة في السّادسة عشرة من عمرها توقفت هاجر عن السّفر إلى القرى وصارت تسافر إلى بيروت لتجلب أقمشة من هناك، تقيم بضعة أيام في بيت شقيقها مصطفى وتعود محمّلة بأحدث أنواع الأقمشة والموديلات التي كانت ترسمها على ورق وهي واقفة أمام واجهة المحل، ثمّ تنفذّها في بيتها، وتبيع الألبسة جاهزة في دكّان ابنة خالها فاطمة في سوق "الصفن[1]".

* * *

عند مفرق الطريق الواصل إلى الطابيات استوقفها صوت مألوف سألها على استحياء "كيف حال البنات يا بنت أخي؟". وقفت ونظرت خلفها، رفعت منديلها ببطء وابتسمت وهي تسأله: "كيف حالك أنت؟ بعد زمان!".

لم يكن العربجي "أبو حسان" يمت بقرابة لهاجر لكنّه اعتاد أن يناديها هكذا منذ بدأت تركب معه في طريقها إلى "دمسرخو وابن هيني" فقد كان يدّعي أنّه ووالدها المرحوم عبد الرحمن أخوة بالدم.. كانت هاجر تبتسم وتترك "أبو حسان" يستفيض بحكاياته الخيالية والحقيقية، فكان طيلة الطريق يحدّثها في السّياسة، عن الاستقلال وطموح عائلة هارون لاستلام رئاسة الجمهورية. سكّان اللاذقية كانوا يعرفون "أبو حسان" ومواقفه الثّابتة منذ تولى شكري بيك القوتلي رئاسة سوريا في المرّة الأولى، ويعرفون إيمانه بأنّه الشّخص

(1) سمي السوق بهذا الاسم بسبب جلوس أصحاب الدكاكين أمام دكاكينهم ساهمين بلا عمل بعد أن اجتاحت موجة ركود التجارة والبيع والشراء في الخمسينات من القرن الماضي.

الوحيد الذي يصلح لرئاسة البلد لذا؛ رفض عروض عائلة "هـــارون" ولم يقف في صفهم ولم يروّج لهم في الانتخابات النيابية.

افتقدت هاجر "أبو حسان" يوماً وكانت تنتظره ليأخـــذها إلى أرض المروج فلم يأتِ، يومها سمعت أنَّ الجندرمة اعتقلته، وقد خرج من الكركون إلى الشّارع ليصرخ مرّة أخرى "يسقط أديب بيـــك، يعيش شكري بيك القوتلي".

لم يؤثر صوت "أبو حسان" في نتائج الانتخابات فقد أصـــبح "أسعد هارون" نائباً في البرلمان لكنّ وصـــوله إلى البرلمـــان لم يكـــن بسبب شعبيته الكبيرة بل بسبب أموال عائلـــة هـــارون الطائلـــة.. توزع رجاله في كلّ المناطق يجمعون الأصوات ويدفعون مقابل كـــلِّ هوية يحصلون عليها مئة ليرة سورية أي ما يعادل "20" غرامـــاً مـــن الذهب! ودرجت عبارة بين النّاس تقول "هات الهوية وخـــود الميـــة وعبّي مونة للشتوية". قاد الحملة الانتخابية "أبـــو هـــاني" العجـــوز الذي كان يعمل حمّالاً في الميناء ولا يعرف القراءة والكتابة وعنـــده الأرقام تقف عند ثلاثة، فالعشرة بالنسبة إليه "ثلاث ثلاثات وواحد"! لم تغيّر ملايينه المتراكمة هيئته أو ملابسه أو شكله، ولم يترك في الدّنيا ابناً يرثه، دفع تكاليف الانتخابات في عهد الشيشـــكلي وفي عهـــد البعث.

كان في لهجة "أبو حسان" عتباً رقيقاً حين قال على اســـتحياء: "والله يا بنت أخي لم أحب أن تتورط البنـــات في لعبـــة السياســـة القذرة". فتحت هاجر فمها استغراباً وأغلقته من دون أن تسأله ماذا يقصد وكان ذلك كافياً ليتابع "أبو حسان" "أقصد انتخاب أســـعد هارون.. سمعتُ أنَّ حياة باعت صوتها له بمئة ليرة.. أنا بصـــراحة لم

أصدق، لكنّ البلد لا يخفى فيها شيء خاصة وأنّي رأيتكما في كرّاج زكريا كرّوم يوم عدتما من حلب".

لم تفهم هاجر ماذا يقصد من وراء كلامه قالت: "والله هذه شورة "أبو شفيق زيادة" هو عرض عليّ أن يأخذ هوية البنات مقابل مئة ليرة للهوية وأنت تعرف أنّي لا أفهم في السّياسة وما يقوله "أبو شفيق" على عيني وراسي.. بيني وبينك أنا اعترضت في البداية لم تعجبني فكرة أن يرى أحد هوية البنات لكنّه أقنعني ما دامت الهوية لا يوجد عليها صورة ما المشكلة؟ مع ذلك زوج صفاء لم يوافق وحلف عليها يميناً بالطلاق لا يرى هويتها إنسان". قال أبو حسان معقباً: "يا ابنة أخي ليس اعتراضي من أجل الصّورة، أعرف أنّ الهوية لا تحوي صورة ومكتوب عليها مسلمة محجبة، لكنّ اعتراضي على المبدأ".

على الرغم من المبررات التي حاولت هاجر أن تقنع بها نفسها قبل أن تقنع "أبو حسان" إلاّ أنّها شعرت بالنّدم.. صحيح أنّ حياة فرحت بثوب المخمل الأخضر الذي اشترته من حلب والحذاء المخمل الأسود الذي دفعت ثمنه عشرين ليرة في وقت كان سعر الحذاء العادي فيه لا يتجاوز الليرات السّبع، وتفاخرت به أمام صديقاتها إذ لم يكن في محلات اللاذقية كلّها حذاء يشبهه خاصة تلك الخرزات البيضاء الناعمة المضغوطة على قماش المخمل عن طريق الحرارة والتي تعطيه شكل قماش منقط.. لكن كان ذلك خطأ مادام "أبو حسان" المعروف بفهمه العميق للعبة السّياسة يرى ذلك! كان يعرف أنّ "أبو هاني" يعمل لإنجاح أسعد هارون في الانتخابات من أجل مصلحته الخاصة. وقد دفع بسخاء على الرغم من بخله لإحباط

نجاح مرشح الاشتراكيين. ونجح هارون، لكنّ خصومه طعنوا بصحة الانتخابات وفضحوا قصّة شرائه للأصوات فأسقطته لجنة الطعون وأعيد الانتخاب في اللاذقية.

حدثت ضجة في البرلمان حول تأميم مواعين[1] "أبو هاني"، فالمواعين تتولّى نقل البضائع من البواخر الّتي لا تستطيع أن ترسو في الميناء لصغره. نواب حزب الشّعب كانت حجتهم بأنّ تأميم المواعين سيعود بالخسارة على الدّولة السّورية؛ لأنّ هناك مشروعاً قائماً لتوسيع المرفأ فإذا تمّ المشروع لا حاجة للدولة بالمواعين وتكون قد خسرت المليون ليرة ثمنها، ونواب حزب البعث العربي الاشتراكي يقولون إنّ قيمة ربح المواعين في السّنة مليون ليرة فتأميمها واجب قومي وإذا تمّ المشروع ترمى في البحر، المهم كسر طوق الاحتكار!

لكنّ السّلطة الّتي تمتلكها أسرة هارون وأموال "أبو هاني" فرضت وجودها على السّاحة بقوة ونجح هارون - رغم إسقاطه من قِبَل لجنة الطعون - وصار نائباً في البرلمان لكنّ صوته ضاع في زحام الأصوات الّتي أثبتت وجودها وصدر قرار التّأميم.

* * *

(1) مواعين: سفن صغيرة.

ليلة الآس

14/شباط/2015/

كان الوقت عصراً حين سلكنا الدّرب التّرابـــي مـــن خربـــة الجوز متجهين صوب الحدود مع تركيا.. الجوّ مدّ لنا بســـاط أمـــل بليلة دافئة فالشّمس لم تبخل في هذا الوقت علينا بأشعتها والأشجار الكثيفة في المنطقة شكّلت خيمة حجبت عنّا الرّيح الباردة. تركنـــا خلفنا الدّرب التّرابـــي المؤدي إلى المعبر الحدودي واتّجهنا شرقاً...

وصلنا إلى أسفل سفح تل في قمته يقـــف رجـــال الحـــرس التركي، لم تكن المسافة بيننا وبينهم كبيرة، أخبرنا المهرّب أنّ علينا الانتظار هنا حتّى الليل وسينتهز أوّل فرصة لتبديل الحـــرس كـــي يعبر بنا إلى الطّرف المقابل.

برحيل النّهار القصير وحلول العتمة كشّر برد شـــباط عـــن أنيابه وبدأ يجلد وجوهنا بلا رحمة. نهضت مـــن فـــوق الحقائـــب ورحت أتمشى جيئة وذهاباً علّ الدم يتحرّك في جسدي ويمـــنحني قليلاً من الدفء.. نبّهنا المهرّب حـــين رأى إحـــدى السّـــيدات تتحدّث بالهاتف أن نطفئ أجهزتنا المحمولة وألاّ نســـتخدم أعـــواد الثّقاب أو أيّ وسيلة إضاءة وأن نخفض أصواتنا كي لا نلفت أنظار الحرس في الأعلى!

لم نكن بحاجة إلى إضاءة فقد كان القمر بدراً، وكان قريباً إلى درجة تشعر معها أنّ بإمكانك أن تمسكه بيدك.. لم تكن لعبة بـــل

حقيقة فكلّما مددت يدي إلى نوره أشعر بها مليئة بالدّفء وتفيض بعبير الزنبق البحري!

لم يستطع الكثيرون الالتزام بالتّعليمات، فقد كان برفقتنا أطفال وفتية وزاد عددنا بتقدم الليل ففي كلّ ساعة تأتي أفواج جديدة وتنتشر على المساحة الكبيرة أسفل التّل.

بعد السّاعة التّاسعة قال المهرّب لنا إنّ علينا أن نحمل حقائبنا ونمشي مسافة قصيرة إلى منطقة خالية من الحرس كي نعبر للطرف الآخر.

المشي مع حمل الحقائب كان مستحيلاً بالنسبة لي خاصة بعد البرد الذي نخر عظامي ووضع جدتي التي تجمّدت وتشبث السّعال بحنجرتها وصارت تشهق وكأنّها تختنق.

تقدّمنا مع النّاس بمساعدة أحد الفتيان الذي حمل عني الحقيبة الثقيلة، لكنّنا بعد الوصول إلى المنطقة المحددة وانتظار ساعتين لم نستطع العبور فالحرس لم يغادر مكانه كما كان متوقعاَ. وكان علينا العودة إلى مكاننا السّابق كما أمرنا المهرّب!

فاجأنا المطر ونحن نتحرّك صوب النقطة الأولى.. لم تكن المسافة قصيرة بل أطول بكثير مما قال المهرب، وزادت كثافة المطر من طولها، وارتبكت النّساء اللواتي يصطحبن أطفالاً صغاراً ولم يعد من السّهل إسكاتهم فعلا صوت البكاء والصّراخ والشّتائم، لكنّ المفاجئ لنا بشكل استثنائي طبيعة الأرض التي نمشي عليها، كانت أرضاَ رخوة استحالت خلال دقائق إلى مستنقع طيني كبير تشبث بأقدامنا واحتفظ بها داخله.. الصّراخ والاستغاثة تصل أذنيّ من كلّ جانب وأنا أحاول اقتلاع ساقي الغائصة في الطّين...

لم يُسحق الطيب ولم يصبّ عليه ماء الورد ولم يُعجن حتّى يغدو طيناً، فالمعتمد مات في أغمات[1]، وذكرى يوم الطين أصبحت حكاية.. مجرد حكاية!

اقتلعتُ ساقي بصعوبة وأنا أتخيّل أنّ الأرض ستبتلعني، لم أصدق أنّي نجوت حقّاً من الأرض الرّخوة التي غاصت فيها ساقاي وخرجت إحداهما من دون الحذاء!

كم من الحكايات سترد على رأسي في هذه الليلة وتبعدني خطوات عمّا أنا فيه ثمّ ترميني مرّة أخرى في بؤرة الطين!

أمامي بمسافة كان شابٌ يساعد جدتي على السّير بعيداً عن الأرض الرخوة لكنّه لم يستطع أن يجنبها البلل أو الغوص في مستنقعات الطين التي تشكّلت بسرعة عجيبة بسبب هشاشة التربة ورخاوتها. كان منظري مثيراً للشفقة وأنا أحاذر الغوص ثانية داخل الطين.

وصلنا إلى قواعدنا أخيراً بخسائر قليلة وانتشر الفتية في التّل يجمعون أغصان أشجار وحشائش وأعواد الآس التي تنتشر بكثافة في تلك المنطقة، جعلوها كومة كبيرة وأشعلوا النّار وانتشرت رائحة الآس المسكرة في الجوّ.. لا شيء يشبه تلك الرّائحة، لا شيء يمكنه مهما كان مؤلماً ومزعجاً أن ينتزع روحي من تحليقها خلف تلك الغيمة التي تشكّلت من بخار الآس المحترق.. كنت أراه، أرى جسدي يرتفع عن الأرض وأراه ملتصقاً بجلدي.. أنا على يقين أن تلك الرّائحة كانت رائحة رشدي في زمن ما.. مهما التبست واختلطت بروائح أخرى لا يمكنني أن أخطئها أبداً.

---

(1) إشارة إلى قصة المعتمد بن عباد مع زوجته اعتماد.

تسلّل الدّفء إلى عظامنا وهدأ الأطفال، ورأيت جدتي تغفو قرب الفتى الذي اتكأت عليه طيلة الطّريق وهو يدثّرها ببطانية أخرجها من حقيبته!

كان الفجر يقترب، ولم يغادرنا إلا بضعة شباب غامروا في الركض وعبور الحدود بعد السّاعة الثانية عشرة منتصف الليل وتغاضى الحرس عنهم.. وبقي الخوف مسيطراً على الباقين على الرغم من النّار المشتعلة التي لم يلتفت إليها الحرس ولم تستفزهم لإطلاق النّار كما كان متوقعاَ.

في السّادسة صباحاً هدأ كلّ شيء، المطر والرّيح والنّار ونام معظم الأطفال في أحضان أمهاتهم.. وكان علينا أن نغادر المكان إلى "عزمارين" لكنّنا لم نجد المهرّب بيننا!

في الطّريق أوقفنا حاجز لجبهة النّصرة، وقال لنا أحدهم أن نعود إلى مكتب التّهريب ونطالب بالمبلغ الذي دفعناه للمهرّب وإن لم يستجيبوا سيتصرفون معهم.

وصلنا عزمارين ودخلنا أحد المساجد، غسلنا الطين عن ملابسنا وارتديناها مبلّلة، حتّى تلك اللحظة كنت أمشي حافية بعد أن رميت فردة الحذاء الأخرى، كانت جدتي تنظر إليّ مشفقة من توريطي في رحلتها الغرائبية تلك.. فتحت حقيبتها، وأخرجت من صندوقها حذاء المخمل الأسود وناولتني إياه من دون كلام، لمحت في عينيها ظلّ دمعة، ضحكت وقلت: "تعلمين يا جدتي كنت دائماً أرى في منامي أنّي أسير حافية في شوارع غريبة وأبحث عن محل لبيع الأحذية أحصل منه على حذاء أنتعله من دون جدوى، لقد تحقّق حلمي، لكن لم أكن أرى في الحلم أنّ حذاء سندريلا

العجيب سينقذني". لم تضحك جدتي بل لاحظت أنّها شهقت وكتمت صرخة احتجاج واستياء، يبدو أنّي اقترفت حماقة بمحاولتي إضحاكها، قلت "أنت أجمل من سندريلا يا جدتي، والله لم أقصد الإساءة، تعلمين أنّي أحبّ هذا الحذاء وكثيراً ما تمنيت لو أنتعله وأمشي به في الشّارع وأتباهى به بين رفيقاتي". ابتسمت جدتي وقالت: "نعم كنتِ طفلة حين ضبطتك مرّة وأنت تتمخترين به وقد نبشتِ محتويات صندوقي ولم أغفل عنه وهو مفتوح سوى دقائق كنت أحضّر أثناءها فنجان قهوة". ضممت رأسها بحنان.. وغصّ حلقي بالدّمع.

لم يدفع لنا صاحب المكتب سوى ألف ليرة من الثلاثة آلاف وخمسمائة التي أخذها المهرّب منّا عن كلّ شخص، ولم يهتم لتهديد عناصر الحاجز حين أخبرناه بما قالوه.. وكان علينا أن نلتمس مكاناً يأوينا وطريقاً أخرى للعبور إلى تركيا.

عصر ذلك اليوم كنّا في سرمدا، اشتريت ملابس جديدة وحذاءً وعدنا إلى بيت كفاية.. وكانت ليلة الآس تلف جسدي برائحة غريبة تدخلني عوالم أسطورية فقد رحل التّعب، واستقرّ جسدي داخل شرنقة البطانية الدّافئة، وتسلّل نور القمر شاحباً من حديد النّافذة والمخطوط مستقرّ بين يديّ.

* * *

صندوق الدنيا

في طفولتي كنت أتخيّل أنّ داخل صـــندوق جـــدتي حلـــوى وبالونات ملونة، ثمّ صرت أتصور أنّ الصّندوق يشبه مصباح علاء الدين مجرد فتحه سيكون مرعباً بالنّسبة لي؛ لأنّ المارد والشّـــياطين وكلّ الأشياء المخيفة تختفي داخله.. وكنت أسمع أصـــواها لـــيلاً فأنهض بفزع لأتأكد أنّ جدتي قد أحكمت وضع القفل، وبعـــد أن أطمئن أنام بعمق.

عندما أصبحت صبية لمحتها تفتح الصّندوق وتخرج محتوياتـــه، تمسحه بعناية وتضع فيه صابونة معطرة، ثمّ تعيد ترتيـــب الأشـــياء داخله! يومها شعرت بالخيبة، لم يكن في الصّندوق أيّاً من الأشـــياء التي تخيّلتها وأغنت مشاعري طيلة خمسة عشر عاماً مضت.. لكنّ يدها المرتجفة أوقعت ظرفاً انفلتت من داخله مجموعة من الصّـــور بالأسود والأبيض.. أسرعتُ لجمعها، وقبل أن أناولها إياها خفـــق قلبـــي لرؤيته.. كان شاباً في العشرينات ليس لوسامته مثيل، قلت لها مازحة: "ألأجل هذا كنت تحبين "رشـــدي أباظـــة" وتعيـــدين مشاهدة أفلامه؟". زجرتني وهي عابسة، وضعت الصورة الكـــبيرة في الظرف مع باقي الصور وأغلقت الصندوق بالقفل، ووضـــعت المفتاح في درج "القنصلية".

بعد إصابتها بجلطة خفيفة وأثناء وجودها في المستشفى جرّبت أكثر من مرّة أن أفتح الصّندوق ولم أستطع، كان هناك شيء أقوى مني يمنعني من لمسه، كثيراً ما تحسست المفتاح في جيبي من دون أن أجرؤ على اتّخاذ قرار برميه بعيداً وإراحة رأسي من أوزار سأحملها رغماً عني أدركتها بحدسي قبل أن أشاهدها بعينيّ!

وقتها كان السّواد المحيط بي من لباس وعتمة وذكريات هو السّبب المباشر لغرقي في دوامة الخوف، حتّى بات أيّ صوت عابر لسيارة أو شخص ينادي فجأة في الزقاق، أو ارتطام شيء عند الجيران أو صوت أعيرة نارية بعيدة تجعل جسدي يرتجف وقلبي يضرب بشدّة.

لذا اتّخذت قراري بترك البيت في الرمل الفلسطيني واللجوء إلى أخت جدتي صباح.

بحسب ما ورد في مذكرات جدتي وداد التي أقفلت عليها صندوق العجائب كما كنت أراه وصندوق الدّنيا، صندوق حسن الهوّاش، كما أطلقت عليه أمّي، أنّها لجأت إلى جدتنا رقيّة أواخر السّتينات وكانت تقترب من عامها "المئة" لتستفسر منها عن بعض الأحداث المهمة في تاريخ الحي لتسجلها في قصة كانت تكتبها. حتّى ذلك الوقت لم تكن جدتي قد كتبت شيئاً على ورق واكتفت بما تقصه من مخيلتها على النّسوة في اجتماعاهن الدّورية في بيت رقيّة. والسّبب في هذا التحوّل أنّ جدتي أرادت أن تكتب رسالة إلى المحامي "نجاة قصاب حسن" الذي كان يقدّم برنامجاً في الإذاعة السّورية بعنوان "المواطن والقانون" يناقش فيه قضايا تعرض أمام المحاكم ومنها القضايا الشّرعية. في الرسالة حكت جدتي للمحامي

قصتها مع زوجها الذي هجرها ورفض تطليقها وعاشر امرأة سيئة السّمعة. حين انتهت من الكتابة وجدت أنّها كتبت نصاً أدبياً وليس رسالة خاصة! مزّقتها وأعادت كتابتها مرّات ثمّ فكّرت بأن تحوّلها إلى عمل أدبي طويل تحكي فيه مشاكل نساء الحي جميعهن.

* * *

كانت نساء الحي مجتمعات كالعادة حين وصلتُ بيت جدتي رقيّة، لم أكد أصل منتصف الفسحة حتى لحقت بي أم محمد وفتحت ذراعيها وأسندت كفيها على طرفي الباب وهي تقول: "احزروا مين شفت اليوم بالسوق؟". تنحيتُ جانباً وأفسحت لها الطريق قائلة: "ادخلي يا جدتي وارتاحي من المشوار أولاً". رفعت أم محمد حاجبيها استنكاراً وقالت: "أنت بالذات الأمر يهمك، رأيت صديقتك سهام شاهدتها في دكان تاجر في سوق الصّاغة، لم أصدق نفسي أنّها هي حتّى سألتها وتأكدت، وعرفت أنّ والدها توفي، لم أصبر لأعرف أصل الحكاية فذهبت إلى دكان "أبو علي الفص" الله يأخذه، صحيح أنا لا أطيقه لكن على قولة المثل، إذا كان لك عند الكلب حاجة قل له يا سيدي... والفضول قتلني، المهم عرفت لك القصة كاملة.

قصة سهام مؤلمة جداً، كنت أتحاشى ذكرها طيلة حياتي. لم أكن أحتمل فظاعة ما جرى لها.. فجأة انقطعت سهام عن المجيء إلى المدرسة وكنّا وقتها في الإعدادية، لم نهتم للأمر كثيراً، فقد منعني عاصم آغا في الوقت نفسه تقريباً من الذهاب إلى المدرسة، وانشغلت بالاستعداد للزواج، ثمّ غرقت في مشاكلي الخاصة وانقطعت صلتي

بصديقات المدرسة.. لكنّ النّساء في جلساتهن المسائية تناقلن إشاعة تقول إنّ أهل سهام قد حبسوها في غرفتها ومنعوها من الخروج إلى الشارع بل منعوها من رؤية أحد حتّى أنّهم رفضوا تزويجها ورفضوا أن تراها أيّ خاطبة تطرق بابهم!

وكبرت الإشاعة إلى درجة تناولت سمعة سهام، النّساء حوّلن تخميناتهن وتحليلاتهن إلى حقائق.. وفجأة أصبحت سهام في رأيهن فتاة سيئة السّمعة قبض عليها شقيقها في موقف غير أخلاقي مع أحد الشّباب في حيهم ليلاً وأراد قتلها لكنّ أمّها دافعت عنها واكتفى والدها بحبسها!

لم أستطع تصديق تلك الشّائعات، كنت على يقين أنّ سهام لم يكن في حياتها شخص غير رشدي.. لقد باحت لي بذلك وهي لا تعلم قصتي معه.. نعم أنا على يقين أنّ ما تقوّلت به النّساء لم يكن صحيحاً. بعد مضي سنوات ماتت الشّائعة ونسي النّاس أمر سهام، ها هي الآن تعود للظهور مرّة أخرى، ترى ماذا في جعبة أم محمد عن السّنوات الخمس عشرة التي حبست فيها سهام؟ هذه المرة غيّر الواشون السّيرة التي كانوا يتداولونها، وقالوا إنّ سهام كانت مصابة بمرض الصرع، وأنّها وقعت يوماً في الشّارع وهي في طريقها إلى المدرسة فاضطرّ والدها لحبسها ومنعها من رؤية أحد. لكنّ سهام الضعيفة الهشة صاحبة الجسد النّحيف الفاتنة بكلّ تفاصيلها، وعلى غير المتوقع تزوجت -بعد وفاة أبيها- أحد كبار تجار الذهب في سوق الصّاغة وكان رجلاً في السّتين ماتت زوجته ولم تخلّف له أولاداً.. لم تكمل سهام السّنة حتّى رزقت بطفلة شديدة الجمال، ومات زوجها في العام الثاني لزواجهما!

احتجت لوقت تجاوز السّاعة حتّى تمالكت نفسي وخرجت من القصة التي سمعتها من أم محمد.

اتّخذتُ مكاناً لي على كرسي خيزران قرب الجدة رقيّة وسألتها: "ستي بتذكري بأيّ يوم ولدت؟". ابتسمت رقيّة وقالت: "طبعاً وكيف أنسى ذلك اليوم؟ يومها لم تقبل سكينة خانم أن نرسل وراء الداية نيازية بحجة أنّ أمّك تتدلّل وأنّ ولادتها ما زالت بعيدة، يومها ولّدتها بيدي هاتين، أنت الوحيدة يا روح ستك التي أخرجتها من بطن أمّها طيلة حياتي". قلت بمحبة: "لهذا السّبب يا ستي أشبهك في كلّ شيء". قالت رقيّة: "بل أنت أجمل مني بكثير، حفظ الله لكِ صحتك وجمالك ومواهبك كلّها، أخبريني يا ستي لماذا تسألين عن يوم مولدك؟".

قلت: "أريد أن أؤرخ يا جدتي لكلّ الأحداث التي مرّ بها الحي بتواريخها الحقيقية فأنا أعلم أنّ أبي رفض تسجيلي مباشرة وبقيت مكتومة مدّة طويلة ولا أعلم تاريخ ميلادي بالضبط". قالت رقيّة: "أنتِ وحياة وفاطمة زيادة وليلى العجيل وعفراء صاري ودعد بنت منيفة مواليد سنة الكوارث، سنتها يا ستي راح الوفد السّوري إلى باريس لتوقيع المعاهدة، ورجع بعد ستة أشهر من المفاوضات وصار الإضراب السّتيني. وتوفي الملك فؤاد واعتلى الملك فاروق العرش، لكن أهم حدث في ذلك العام كان ثورة القسّام ثورة فلسطين الكبرى. أختك سامية خطبت "خطبتها الأولى" أوائل الأربعينات أذكر أنّنا وقتها كنّا قد دهنّا شبابيك بيوتنا باللون الأزرق خوفاً من غارات الحلفاء، كنّا جميعاً بقلوبنا مع هتلر؛ لأنّنا كنّا نظن أنّه بانتصاره سيمنحنا الحريّة وعلى قول المثل "عدو عدوك صديقك"..

يومها الرجال اجتمعوا ببيتكم ليسمعوا الأخبار من الراديو السّاعة سبعة بالضبط كنتِ ما تسمعي صوت غير دقات السّاعة، بعدين نسمع من الغرفة التانية -غرفة سكينة خانم- صوت يونس البحري يقول: "هنا إذاعة برلين حي العرب" الحقيقة كنا يا دوب نسمعه، عاصم آغا والرجال الذين يجتمعون عنده كانوا يخافون أن يرفعوا الصوت حتّى ما يسمعه أحد عناصر المباحث المنتشرة في الطرقات...

قاطعتها أم محمّد "ما يبلى كان صوته غير شكل"... عقّبت رقيّة: "نعم كان صوته ساحراً، كلّ شيء في الراديو كان جميلاً ومدهشاً وغريباً، و لم تنافسه بلورة الجنيات". ضحكت النّساء وقالت أم عبد الله: "معك حق يا رقيّة، بالنسبة لي لا أبدّل جهاز الراديو بألف تلفزيون.. وإن جئت للصدق جلستنا هنا أجمل من بلورة الجنيات".

دهشتُ من المعلومات التي سمعتها من الجدة رقيّة، كان الجميع يعرفون أنّها تربط المواليد والوفيات بأحداث اجتماعية معروفة كما يعرفون أنّها لا تجيد القراءة سوى في القرآن الكريم الذي تستطيع قراءته كاملاً كما تعلّمته في الكُتّاب و لم تكن سيدات الحي يقرأن الصحف في ذلك الزمن إلاّ ما ندر. قالت رقيّة ردّاً على استغرابي هامسة في أذني: "أتكتمين السرّ؟". قلت: "في بئر يا ستي". قالت رقيّة وعيون النّسوة تراقبها باهتمام: "بعد ولادتك بسنتين وكانت أيام حصاد انتسبت للجمعية النّسائية التي كانت رئيستها زوجة سيف الدين الحسيني، تبرعت ست من الجمعية لما شافت اهتمامي بالصحف تعليمي القراءة، ما شفت صعوبة كبيرة في تعلّم القراءة بس الكتابة كانت صعبة جداً أستطيع الآن كتابة اسمي وقراءة أسماء

الباصات ولافتات المحلات.. أذكر سنة 1958 أول ما صار عندنا باصين باللاذقية، ركبت الباص من الرمل الشّمالي للمستشفى الوطني يومها زرت ستك نيازية وكانت بعافية شوي". ضحكت أم عبد الله وقالت: "الحمد لله على الصحة وراحة البال، ماذا تأخذ إحدانا من العلم؟". قالت أم رشدي: "لا تغلطي يا أم عبد الله طول عمرنا نسمع أنّ العلم نورنٌ" ضحكت النساء ضحكة مجلجلة وهنّ يؤكدن على النون في نهاية كلمة النور! قلت: "يا ستي تذكرتِ الباصين ونسيت أهم حدث في تلك السنة".. قاطعتني رقيّة: "كيف أنسى؟ لا والله.. تلك الذكرى لا تغيب عن بالي يومها كان ابن حياة قد بلغ عمره ثلاثة أشهر وسجلناه في النفوس، لكنّنا لأجل عيون الغالي أطلقنا عليه اسم جمال، زيارة عبد الناصر ليست حدثاً مهماً في تاريخ اللاذقية فقط وكلّ النّاس يذكرونها لذا؛ لم أتحدث عنها"

عندما هدأت النساء وتوقفن عن المزاح مع بعضهن، قلت لرقيّة: "احكي لنا يا ستي عنك وعن يوم ميلادك". قطبت رقيّة حاجبيها وقالت: "أنا ولدت بعد الإحصاء الذي صار في اللاذقية بسنة يوم ولد المدعوق غورو[1]". رفعت حاجبيّ استغراباً، لم أكن أعرف متى ولد غورو، كلُّ ما أعرفه عنه أنّه كان المندوب السّامي في سوريا وأنّه توفي في العام الذي استقلت فيه سوريا.

قالت رقيّة باهتمام: "نعم.. الاستقلال أخذ معه الشّر وراح. تعلمين، ربّما أصابني النّحس لأنّي ولدت في اليوم نفسه الذي ولد فيه صاحب نظرية الإبادة في الحرب، مع أنّي لم أره ولا أعرف شكله ولكنّي أتخيّل أنّه أبشع ما خلق الله على وجه الأرض. هل تتخيلين

(1) ولد غورو عام 1867.

شخصاً يسخر من الأموات ويحتقرهم ويظنّ أنّ تصرفه هذا قوة؟ إنّه منتهى الخسة والضعف". وكانت رقيّة تقصد وقوفه على قبر صلاح الدين وعبارته الشّهيرة التي قالها يوم دخل دمشق[1]".

تابعت رقيّة: "تزوجت عبد الرحمن وكان أسعد حدث في حياتي، وبعد سنة عمّرنا هذا البيت وأصبحنا جيرانكم، أذكر يومها كان والدك عائداً من الضيعة ومعه أقفاص فاكهة وبيض ودجاج، أهدانا منهم قفصين ليمون وتفاح وسلة بيض. وسكينة خانم الله يرحمها أهدتني سلة حلو "معمول وغريبة وأقراص عجوة" وغطّت السلة بصحيفة احتفظت بها سنوات طويلة، كانت أوّل صحيفة تصدر في اللاذقية، كان اسمها "من مآثر لاذقية العرب[2]" عندما أتقنت القراءة وأنا في الخمسين كان عندي في البيت عدد كبير من الصّحف كنت أتسلّى بقراءتها بعد أن تركت العمل على ماكينة السنجر"..

وتطلّقت هاجر من زوجها الأوّل يوم وقعت الصّاعقة على غرفة مدير مدرسة التّجهيز وشبّ فيها حريق لكن الله ستر وكان المدير خارج الغرفة، طبعاً كلكن تعرفن أنّ اسمها كان التّجهيز قبل أن يصبح "جول جمّال[3]" على اسم ابن اللاذقية البطل الذي دمّر البارجة الفرنسية جان دارك. وتزوجت هاجر من عبد الغفور في الصّيف بعد فترة من أول عرض للسينما الصامتة في اللاذقية، والتي

(1) ها قد عدنا يا صلاح الدين.

(2) أصدر الصحيفة الشيخ محمد سعيد صفية، وهي صحيفة أدبية غير دورية صدرت عام 1898.

(3) جول جمال ابن اللاذقية البطل، انقض بطوربيد على البارجة الفرنسية أثناء العدوان الثلاثي على مصر.. واستشهد في تلك العملية.

افتتحت في مدخل سوق العطارين "سوق بيت الداية حالياً" داخل خان "البيلستان" الذي كان مخزناً للتبن والبضائع.. حسّنوا هيئته، وجعلوه صالحاً لعرض سينمائي، كانت المرة الأولى في حياتي التي أقدم فيها على مشاهدة السّينما بصحبة العروسين وآخر مرّة أيضاً".

سألت ستي رقيّة "ماذا كان العرض في ذلك الزمن؟". قالت وهي تضحك وتبين أسنانها الجديدة: "يا ستي اسمه صعب بس أذكر جيداً أنّه يضع برنيطة ويحمل عصا وحركاته مضحكة" قلت لها "تقصدين شارلي شابلن" قالت بانبهار: "هذا هو بعينه، أنا حزينة لأنّي لم أتذكّر اسمه" ضحكت إحدى الصّبايا وقالت: "يا ستي بسيطة، ستنا أم محمد ما تذكّرت اسم "المناكير" وفضحتنا بالسّوق". قالت رقيّة وهي تقطب حاجبيها: "ستك أم محمد لا تملك ذاكرة جيدة الحق عليكن اللواتي تطلبن منها إحضار أشياء غريبة من السّوق!" وأكملت: "المهم ستي وداد في الصّيف كانوا ينقلون السّينما إلى "بيت الياسمين" تعرفينه أكيد صار مكانه "سينما أوغاريت".. قلت لها: "أكيد ستي أعرفه كان على طريق مدرستنا في شارع القوتلي". تابعت رقيّة:

"توفي عبد الغفور في العام الذي انتشر فيه الجرب، لكنّه مات بالتيفوئيد، كنّا نغسلكن بالماء والصّابون وندهن أجسادكن الصّغيرة بالكبريت الأصفر".

حكت جدتي رقيّة لي عن كلِّ شيء يخصها لكنّها تجاهلت الحديث عن مصطفى، كان جرحها منه أكبر من مقدرتها على الحكي عنه. كان هذا آخر اجتماع أحضره في بيت ستي رقيّة.. فقد فارقت الحياة نهاية السّتينات بعد أن تجاوزت المئة ونبت في فمها أسنان

جديدة كانت تضحك لمنظرها وكانت نساء الحي يشاركنها فرحتها الغامضة بعودهًا إلى الطّفولة!

بموهًا فقد الحي شيئاً من حميميته فقد أُغلق باب المساء أمام اجتماعات النّسوة وخفتت أصواهن، وتلاشى دخان سجائرهن اللف ودخان نرجيلتهن. لكنّ الفضاء الرحب للحي احتفظ بضحكاهن وطرفهن وحكاياهن الحميمة. كانت جدتنا أم محمد تحيل كلّ مآسي النّساء في الحي إلى مزحة وضحكة تخرج من قلبها حين تقول لها رقيّة: "كلّنا ملكات". فتردّ عليها: "يسلّم فمك، بس ملكات نحل قتلنا الذكور وقعدنا على تل من الشّمع". فتقول رقيّة بأسى: "تل من العسل يا أم محمد، شوفي ها البنات كلّهن أطيب من العسل". تضحك أم محمد وتقول: "أي صح، لهذا زوجت ابنتي الوحيدة لدكر أخرس". وكانت تشير إلى نقصه لاعتقادها أنّ الذكر الناقص لا يطاله الموت! فقد ارتبطن جميعهن برجال ندر أمثالهم، فلم يعمّر أحدهم أكثر من أربعة وثلاثين سنة! توفي زوج أم محمد وهو في التاسعة والعشرين وابنها مات صغيراً في موجة التيفوئيد وبقيت هي وابنتها رمزة، وتوفي زوج رقيّة وهو في السّادسة والعشرين، وزوج هاجر وهو في الخامسة والعشرين، وزوج أم رشدي وهو في الثالثة والثلاثين، وتوفي زوج منيفة بعد سنة من زواجهما وبقيت مريم عزباء ولم يتقدم أحد لخطبة بشيرة وشقيقتها، وكل سكّان الحي لم يعرفوا زوجاً لأم جميل! كما أنّ أم عائشة التّركمانية وصلت إلى الحي في نهاية الأربعينات مع ابنتها فقط. ولم ترزق شمس أخت مريم ومنيفة بأولاد على الرغم من تعدد أزواجها وكانت إقامتها في الحي مؤقتة.

* * *

البيت الثالث على اليمين

بيت عاصم آغا

...

لم يطل الأمر بعاصم آغا بعد أزمتين متتاليتين هزتـــاه بعنـــف، أولهما قرار التّأميم الذي صدر في عهد الوحدة، والذي استطاع الأغا التحايل عليه بنقل ملكية بعض الأراضي للفلاحين، وتوزيع ممتلكاتـــه في المدينة على أبنائه وزوجاته، وقام باستعادة كلّ شيء فيما بعـــد.. وثانيهما هرب ابنته مع مدرّسها الذي أوقعه طريح الفراش. لم تحتمله نسرين سوى أيام معدودات، طردت بعدها الأسرة التي تســـكن في الغرفتين اللتين بناهما الأغا في مدخل الحديقة لأحد أقاربه الفقـــراء. وأمرت سعدى بتنظيفهما وإعدادهما لإقامة الأغا!

أغلقت نسرين غرف الطّابق الثاني، وتركت الغرفة الكبيرة التي كانت تسكنها سكينة خانم لابنتها صباح لتدرس فيها. نقلت أمّـــي حاجياتها إلى الغرفة الصغيرة الملاصقة للبـــاب الخـــارجي للســـرايا، ووضعت سرير الأغا في الغرفة القبلية ذات النّافذة المفتوحـــة علـــى الحديقة الدّاخلية. وسعى الأغا وهو على فراش المرض لتزويج ألما قبل أن ترتكب حماقة أخرى!

كان على أمّي أن تعمل طيلة النّهار وتعتني بالآغا بالإضـــافة إلى مهمة جديدة كانت متنفسها الوحيد وهي إحضار حاجيات الطّـــبخ من السّوق. لم يكن مشوارها طويلاً فهي لا تحتاج سوى إلى قطـــع

شارع يوسف العظمة لتصبح عند اللحام "سليم ودح" وبعد خطوات دكّان "حسن زيزونة" توصي على ما تريد ثمّ تقصد فـــرن الســـرّاج القريب من جامع العجّان.. وفي طريق عودها تقف لـــدقائق ببـــاب بيت رقيّة تتبادل مع هاجر بضع كلمات وتدلف إلى بيتها.. فتجـــد الأغا بانتظارها بالشّتائم. لا تنبس بكلمة، تغيّر له الأغطيـــة، تفـــتح النّوافذ للتهوية، تطعمه، وتعطيه الدّواء، ثمّ تدخل المطبخ. تفاصيل يوم مكرر إلى ما لانهاية...

في صباح الخامس عشر من شهر شعبان اشتدّ المـــرض علـــى عاصم آغا وفارق الحياة عام 1389 للهجرة، الموافق لأواخر تشـــرين الأوّل 1969...

كانت صباح أصغر بنات عاصم آغا تنتظر نتـــائج القبـــول في الجامعة بعد نجاحها في امتحان الثّانوية العامة حين اشتدّ المرض علـــى والدها وأرسل في طلب محاميه الخاص.

لم يترك الأغا تفصيلاً صغيراً في ممتلكاته لم يسجله ويذكر لمـــن سيورثه. لكنّ نسرين كانت صاحية لكلّ صغيرة وكبيرة تركت الأغا يسجّل كلّ شيء ووعدته أن تأخذ الأوراق للمحـــامي، واتصـــلت بالمحامي وأجّلت الموعد؛ معتذرة بأنّ صحة الأغا لا تسمح باســـتقبال الزوار!

وقّع الأغا الأوراق وغفا.. أخفتها نسرين عن العيون وفي غفلة من الجميع أعادت كتابة الوصية وكتبت كـــلّ شـــيء هبـــة لهـــا ولأولادها..

حين دخلت صباح إلى غرفة والدها لتخبره أنّها قبلت في كلية الطب وستحقق أمله الذي أضاعه شقيقها الذي سافر إلى اســـتنبول

لدراسة الطب ورجع بخفي حنين، وجدته قد وقـــع عـــن السّـــرير وجسده في وضعية الجنين. كان الأغا وحيداً حين فاجأه الموت، ومن الواضح أنّه أراد أن يشرب أو يتناول الدّواء ولم يستطع الوصول إلى القنصلية فوقع في المسافة الفاصلة بينها وبين السّرير.

ليست هذه الحادثة وحدها السّبب في تغـــيير خطـــط صـــباح وحياها لكنّها كانت السّبب المباشر في تغيير الكلية فقـــد تمســـكت نسرين بصباح التي لم يبقَ غيرها بالقرب منها.

كان الجوّ غائماً مائلاً للبرودة مع هذا لم توافق نســـرين علـــى الاحتفاظ بالجثة حتّى الصباح وفقاً للعادات في ذلك الزمن الذي كان النّاس فيه يفضّلون دفن موتاهم صباحاً، ولم يكن وقتها قد ظهـــرت موضة سيارات دفن الموتى ومكاتب الدفن، كان النّـــاس يحملـــون موتاهم ويطيلون طريق الزيارة ليكسبوا أكبر قدر من الأجر. دُفـــن عاصم آغا في المساء نفسه، وأغلقت نسرين باب الدّار دون المعـــزين وطبعت أوراق نعي لصقت على الجدران في الشّارع الرئيس حدّدت فيه يوماً للعزاء ولم تقبل أن يحمل عليها أحد.. فالمتعارف عليـــه أنّ أهل الحي يطبخون لأهل الميت مدّة أيـــام العـــزاء ويســـاعدوهم في استقبال المعزين وتنظيف البيت وكلّ طقوس العزاء.

النّساء في الحي انتقمن لأنفسهن من الست نسرين بأن عملـــن "ربعة[1]" وأقمن العزاء في بيت رقيّة، وتشاركن في تحضير طبخـــات مختلفة كلّ واحدة حسب إمكانياها، وكانت كلّها طبخات شـــعبية

(1) في باقي المدن السورية يقيمون للميت "ثالث" يكون في اليوم الثالـــث للدفن، وكلّ مدينة تشتهر بنوع خاص من الأطعمة تـــوزّع عـــن روح الميّت في هذا اليوم.

بسيطة؛ لأنّ نوريّة أخذت على عاتقها أن تطبخ شاكرية مـــع الأرز وأوصت سليم اللحّام على فخذ خروف بعظامه. وأم عبد الله عملت كبة نيئة مع تبولة.. أمّا سعدى فلم تستطع الحضور لدخولها "العدة" فأرسلت نساء الحي لها من كلّ الأطباق التي صنعنها. ســلق مقلّــى بالزيت، ومْنَزّلة قرنبيط، ومْلَقَّسْ، طبخته رقيّة خصيصاً لعلمهــا أنّ سعدى تحبّه خاصة وأنّها تصنع دبس الرمان بيديها، وقد ســاعدتها سعدى في قطف الرمان وفرطه وعصره وغليه على النّار قبــل أيــام من وفاة الأغا، ووعدتها بأكلة ملقّس.. في الصّباح البــاكر أحضــر حسن زيزونة لها الكوسا، غسلته وقطّعته مربعات وقلــت البصــل المفروم وفصوص الثّوم قليلاً وقلبت قطع الكوسا معها وأضافت إليها الملح والماء وتركتها على النّار حتّى نضجت ثمّ أضافت إليها دبــس الرمان.

أكلت النساء عن روح الميت وشربن قهوة مرّة وشــبعن مــن النّميمة عليها وتوبيخها على إدخال عادات جديدة لم يعرفنها مــن قبل.

لم يكن هذا الأمر سيئاً إذا قيس بما قامت به فيمــا بعــد مــن حرمان أولاد زوجها من الميراث بحجة أنّ الأغا كتب كــلّ شــيء باسمها قبل وفاته!

وفي العام نفسه توفي زوج ماري ولم يبقَ رجالٌ في الحي، فقــد غادره الشباب للدراسة وكانوا قلائل وبقيت فيه النّســاء والصّــبايا خلية نحل تصنع عسلها الخاص!)

* * *

لفترة طويلة لم تعد النّساء في الحي يذكرن سامية ابنة المرحومة سكينة خانم زوجة عاصم آغا الأولى فقد ابتعدت عن الحي وترفّعت عن زيارة أخواتها و لم تحضر جنازة والدها بعد الحصار الذي فرضته نسرين على الآغا في مرضه، فجأة لم يعد للأمسيات نكهة من دون نميمة صغيرة قد تكبر حدّ تدخل الخيال بعد ذلك اليوم الذي وقفت فيه أم محمد بباب رقيّة وكانت عائدة من السّوق وقبل أن تلتقط أنفاسها قالت: "سمعتم الخبر؟". وكالعادة توقفت النّسوة عن الحديث وتوقفت أفواههن عن مضغ الطّعام والتّدخين والتّفتن بحركة جماعية وبصوت واحد تساءلن: "خير **يا** أم محمد؟". وكعادة أم محمد لم تكن عبارتها تلك سوى لتشويق الجارات ولفت انتباههن، نزلت إلى الفسحة ببطء وخلعت "البرانيل" والمعطف، وثبتت منديلها الصّغير الشّفاف حول رأسها، ونادت إحدى الصّبايا لتحضر لها كأس ماء وفنجان قهوة والنّساء يدلّلنها ويستعجلن بوحها بالخبر. قالت أم محمّد بعد أن صلّت على النّبي: "حلفت يمين معظّم اليوم لن أعود إلى السّوق مرّة ثانية ولن أشتري لإحداكن ما يلزمها، الظّاهر أنّ ذاكرتي أصبحت خرفة وضحك عليّ ابن الفص؛ لأنّي نسيت اسم الخيطان التي أوصتني عليها وداد، واسم السّائل اللعين الذي أوصتني عليه نوال، يلعن الذي بذركن، عملتن مني مضحكة..." ضحكت النّسوة عندما قالت أم محمد ماذا سمّت الأشياء التي راحت تشتريها.. لكنّهن عدن يلححن لمعرفة الخبر الذي عادت به من السّوق. هنا نطقت أم محمّد جملتها الصّاعقة: "نور الهدى ابنة سامية خانم تزوجت ابن صاحب المقهى المسيحي". لم يكن الزواج بحدّ ذاته خبراً استثنائياً لكنّ اللفظ هنا يشبه "هربت" الذي حدث مع أخت سامية من

زوجة أبيها نسرين حين "هربت" مع فلاح[1]. السّؤال الذي وقف في حلق النّساء كيف يحدث ذلك؟ كيف تتزوج ابنة سامية المسلمة من رجل مسيحي؟ ردّت أم محمد: "سألت قبلكن هذا السّؤال، جارتها التي أخبرتني ونحن في دكان الملعون "علي الفص" قالت بأنّه أسلم وأنّ عائلته تبرّأت منه وأيضاً عائلتها تبرّأت منها". قالت رقيّة باستغراب: "لماذا تتبرّأ منها عائلتها وقد أسلم الرجل؟ بالعكس كسبت ثواب". صاحت أم محمّد لنوال: "أين القهوة؟ لو كنتِ تطبخين غمة كانت استوت". ردت نوال: "ما في بن مطحون يا خالة لحظة رايحة أخلص طحن البن. نبرت أم محمّد: "هاتي من ايدك أبطأ من سلحفاة، يا لطيف على ها الجيل".

تناولت أم محمّد الطاحونة اليدوية المصنوعة من النّحاس وراحت تطحن حبات القهوة بقوة، وفاحت رائحة البن الطازج، وناولتها لفاطمة: "روحي أنت اعملي القهوة بسرعة".

هدأت النّسوة قليلاً واختلفن في التّفسير والتّحليل والاعتراض والموافقة. ظللت صامتة، أخذت من أم محمّد خيطان "الدي أم سي" وأنا أتمتم "الله كبير". لاحظت أم محمّد استيائي فقالت: "تقبري قلبي يا وداد والله ما قصدت تزعلي بس ما بقدر ما أحكي، الله خلقني حشرية". ابتسمتُ وقلت بخجل: "لا والله يا خالتي، حقّك طبعاً.. أنا متضايقة من أمر آخر".

ما ضايقني ليس لأنّ الفتاة موضوع الحديث ابنة أختي بل؛ لأنّ زوجي أيضاً أحبّ امرأة مسيحية وهجرني لأجلها. كتبت يومها "لست ضدّ نور الهدى، ولا أشعر بالشّماتة أبداً ولا أعتقد أنّ ما

---

(1) فلاح باللهجة المحلية كناية عن "علوي".

حدث لها تخليص حق ناس من ناس كما قالت أمّي بل بالعكس أنــا أراها شجاعة استطاعت أن تفرض إرادتها على مجتمع بأكمله ولــيس على أسرتها فقط، نور الهدى خلّصت حقّي لكن ليس بالطّريقة الــتي ظنّتها أمّي بل؛ لأنّها استطاعت أن تتزوج من تحبّ وأن تقــول لا.. المهم عندي أنّها قالت "لا" لكلّ هــؤلاء الــذين كتمــوا صــوتي وأخرسوني وأبعدوني عن رشدي".

حكاية نور الهدى بدأت في المقهى الذي يمتلكه والد الشّــاب والذي يبعد بضعة أمتار عن الكازينو المطل على البحر، تعرّفت نــور الهدى عليه في المقهى وصارت ترتاد المكان وحــدها لتســتطيع أن تتحدّث إليه أحاديث خاطفة، تواعدا على إثرها خارج المطعم بعيداً عن عينيّ أبيه والزبائن. أحبته نور الهدى وهو وقع في هواها، لم تكن حماقة تلك التي دفعته لتغيير دينه من أجل الارتباط بها فلم يكن أمامه خيار آخر بعد أن عصف به حبّها إلى درجــة المــرض.. لم يــدم زواجهما طويلاً ويبدو أنّ اللعنة المكتوبة على نساء الحي لحقتها على الرغم من أنّها لم تتعمّد بمائه وهوائه وفيروس الموت الــذي يصــيب الرجال فيه وهم في عزّ الشباب!

مات زوج نور الهدى بعد سنتين من زواجهمــا، وتشــاجرت العائلتان حول جثته، حضر والده وأمّه على وجه السّــرعة إلى بيتــه وأرادا أخذ الجثمان للصلاة عليــه في الكنيســة ودفنــه في مقــابر المسيحيين، وتمسكت نور الهدى به وطردت والديه من بيتــها.. لم تكن تريد مفارقته وأصرت أنّه أسلم لأجلها وأنّها ستدفنه في مقــبرة المسلمين. وظلّ أهل الحي سنوات طويلة يترحمون على الشّاب كلّما جاء ذكره ويغبطون نور الهدى على الثّواب الذي كسبته بإســلامه

ويضيفون عبارة "الله يصبّرها" فقد أقسمت نور الهـدى ألا تتـزوج بعده وواظبت على زيارة قبره بانتظام كلّ يوم جمعة حتّى أنّ النسـاء صرن يخترعن قصصاً حول الجنة الصغيرة من الأشجار والورد الـتي أحاطت بها القبر والتي كبرت بسرعة غريبة متجاوزة الأشجار العتيقة في طولها وجمالها.

فجأة انقطعت نور الهدى عن زيارة القـبر، وذبلـت الـورود ويبست شجرة الآس واندثر القبر تدريجياً لكثافة القبور حوله ونسيه أهل الحي الذين يزورون موتاهم باستمرار بعد أن كانوا يتوقفون عند قبره لقراءة الفاتحة!

لكنّ إشاعة انتشرت كشرارة صاعقة في نهاية السّـبعينات –ولم يعرف مصدرها– بأنّ حارس المقبرة سمع في ليلة معتمة أصواتاً داخل الجبّانة فحمل فانوسه وسار يتبع الصّوت حتّى أطراف المقـبرة مـن الجهة الشّرقية ولم يجد أحداً مع أنّ الصّوت كان واضـحاً وجليـاً وأقسم أنّه صادر من قبر "الياس"! عاد إلى غرفته خائفاً وأغلق علـى نفسه الباب وفي الصّباح راح يفتش عن آثار تدله على ما سمعـه في الليل، كان القبر مفتوحاً ولا وجود لجثة فيه!

وشاع أنّ أهله سرقوا الجثة ليدفنوها في مقابرهم، لكنّ إشـاعة أقوى غلبت عليها وهي أنّ الياس غادر المقبرة هائماً وراء نور الهدى التي قيل إنّها تركت البلد وسافرت إلى مكان غير معروف.

* * *

البيت الثّاني على اليسار
بيت رقيّة أم مصطفى

...

كانت صفاء أوّل فتاة في الحي تترك الدّراسة برغبتها، لم تكن تحبّ المدرسة وشبت عن الطّوق باكراً، وكثر خطّابها وهي في العاشرة من عمرها. لم تشأ هاجر تزويجها صغيرة فهي تدرك من تجربة زواجها الأوّل كارثة الزواج بسن مبكرة، وكانت تعمل جهدها لتوفير متطلبات الحياة بشكل لا تحتاج معه ابنتيها لأيّ شيء في غياب الأب. لكنّ النّصيب كما يقولون يُخرس الألسنة، ظلّ سليم اللحّام يرسل المراسيل لهاجر طالباً يد صفاء حتّى وافقت على مضض، وأقنعت نفسها بأنّ البيت الواقع بعد العطفة في الشّارع خمسة شمالاً لا يبعد عنها سوى خطوات وستكون عندها إن احتاجتها خلال دقيقتين. ربّما لم تشعر بالنّدم في حياتها على قرار اتّخذته بمقدار ندمها على تزويج صفاء بتلك السّرعة فلم يكن لديها الفرصة الكافية للتفكير ودراسة الأمر من كلّ جوانبه وشعرت في وقت ما أنّها وضعت ابنتها في السّجن بيديها ليس لأنّ سليم فرض عليها عدم الخروج حتّى إلى بيت أمّها فقط بل؛ لأنّها هي أيضاً لم تعد تستطيع زيارتها أو رؤيتها إلا نادراً وقد وقعت بين فكي رحى كانت تطحن روحها ليل نهار وهي تفكر بالوضع الذي تعيشه ابنتها في بيت عائلة سليم خاصة وأنّ أخته "عطية" لم تتزوج بعد!

لم تتغيّر تلك المعاملة بعد أن ماتت بكرها "تهاني" وجاء بعدها سلسلة من الذكور بل زاد تعنيف حماتها لها وتضييق الخناق عليها من ابنة حميها..

كانت واقفة أمام المرآة المشروخة التي كسرتها حماتها منذ أسبوع عندما رأتها تضع أحمر شفاه وتمشط شعرها، قالت لها بلؤم: "لمن تتزينين؟ صار شكلك متل..." وأخذت كلّ ما في الأدراج من أدوات الزينة ورمتهم في الجب، وكسرت لها المرآة، ثمّ أسرّت بإذن ابنها شيئاً جعله يغضب ويحبسها في غرفتها مدّة أسبوع!

لم تسمع صوت الطّرق على الباب، كان صوت صباح تغني "يا خسارة على الأيام" في شارة مسلسل "الحبّ الضائع"[1] يملأ فضاء الغرفة.. هكذا كانت تحبّ أن تستمع إليها، فتح باب غرفتها بقوة، ودخلت عطية غاضبة: "ألم تسمعي صوت جرس الباب، أم أصابك الطرش؟ وكيف ستسمعين الصوت وأنت تستمعين إلى الراديو، الحق ليس عليكِ بل على أخي الذي اشترى لك راديو.. لابق للشوحة مرجوحة ولأم فصيع قبقاب".

ارتجفت صفاء غيظاً وخوفاً لكنّها لم تجرؤ أن ترد بكلمة، كانت تدرك جيداً أنّ أيّ كلمة ستقولها ستكون نتيجتها وخيمة.. مع هذا ابتعدت عن المرآة، قرّبت الراديو من أذنها وخفضت الصّوت قليلاً لتسمع همس عمر الشّريف لسعاد حسني.. لكنّ صوت الأولاد في فسحة أرض الدّار يغنون لرمضان "يا رمضان يا شهر العيد /يا جاية

(1) الحب الضائع، قصة طه حسين، أذيع في شهر رمضان 1969، إذاعة الشرق الأوسط، بطولة عمر الشريف، صباح، سعاد حسني.

من بلاد بعيد /حسّبتك جاية الليلة لأعملك رز وبقّيلة/ شوّش على سمعها و لم تعد تستطيع أن تفهم ماذا قال عمر الشريف؟ كانت تتساءل عن عالم الحبّ الغامض الذي يعيشه هؤلاء الأبطال، أصواتهم تنقل إليها عبر الأثير مشاعر لم تجرّبها من قبل تهزّ أعماقها وتجعلها تفكّر كيف تزوجت من دون حب؟ أحلامها المدفونة بأن تصبح مطربة مثل صباح ماتت منذ اليوم الذي وطئت فيه قدمها عتبة باب غرفة الزوجية.. لم تكن تجرؤ على أن تغني أمام أحد فقد حلف عليها زوجها يميناً بالطلاق إن سمع صوتها إنسان سيعيدها لأمّها ولن ترى أولادها طيلة العمر. حتّى هو لم يكن يريد أن يسمع صوتها!

نادتها حماتها: "تعالي خذي صحن ستك، كلّ النّاس تطبخ البقلة أوّل يوم برمضان ما عدا رقيّة تطبخها في أوّل جمعة من رمضان، روح قلبها تخالف العادات وتكون مميزة بكلّ شيء". لم تكن حماتها تتجرّأ بالحديث عن جدتها أو السّخرية منها فقد كانت لها مكانتها في الحي، لكنّ لسانها الحاد لم يوفر أمّها يوماً فكانت تنتقدها دائماً وتقول لها إنّها لم تحسن تربيتها.

توقعت صفاء وهي تنزل الدرجتين قفزاً لتأخذ صحن "البقيلة" من يد حماتها أنّ الأمور ستمر على خير لكنّها لمحت تلك اللمعة الغريبة في عينيها وعرفت بحدسها أنّ توقعاتها خاطئة وأنّ عقاباً ما ينتظرها عند عودة زوجها لا تدرك ما هو لكن سيساهم في شدته كون زوجها صائماً وهي تعرف مدى عصبيته في رمضان. أرادت أن تتقرّب من حماتها علّها تخفف من غلوائها، فأسرعت تأخذ عنها حبّات الخفيف[1] لتحفرها، لكنّ حماتها نظرت إليها شزراً وأخذت

(1) القرع البلدي، نقرتِ: حفرتِ.

الحبات من يدها وقالت: "شفناكِ فوق وشفناكِ تحت، كل ما نقرتِ حبّة بتكسريها، روحي على غرفتك".

حين وصل سليم كانت أمّه قد انتهت من حفر القرع وتنظيفه وحشيه بالأرز واللحمة المفرومة ولم تنسَ أن تُكثر من الفلفل الأسود وتقلل من الملح وتضع قليلاً من مرق البندورة مع الحشوة كما يفضلها سليم وتكثر من الزعفران ليعطي الأرز لوناً أصفر، وكالعادة تحاشت أمرين لا يحبهما سليم وضع النعناع والثوم في المرق وتشويح صلصة البندورة بالزيت، كانت الطبخة جاهزة بانتظار أن تضعها على النّار بمجرد وصوله حاملاً العظام وشرحات اللحم التي أوصته عليها... اختلت بابنها لدقائق ويبدو أنّها أثقلت عيار التّحريض وحشت رأسه بأحاديث كثيرة وتّرت أعصابه إلى حد جعله يدفع باب الغرفة بقدمه ويفك حزام بنطلونه وينزل به على جسد صفاء من دون وعي، حاولت أن تحجب وجهها بذراعيها لكن بعد فوات الأوان فقد وقعت أوّل ضربة على رأسها وسمعت صوته يشتمها ويصفها بالعاهرة؛ لأنّها تستمع إلى قصص الحبّ من الراديو لتتعلّم فنونه وسألها من ستحب؟ كانت في تلك اللحظة قد أغمي عليها ولم تعد تعي ما يحصل حولها.

المرّة الوحيدة التي تجرّأت هاجر فيها على اقتحام بيت ابنتها من دون استئذان كانت في ذلك اليوم قبل الإفطار بدقائق حين وصل الأولاد مرعوبين وحكوا لجدهم عمّا فعله والدهم بأمّهم. لبست ملاءتها بسرعة وركضت صوب البيت مع الأولاد، دخلت غرفة ابنتها، غطّتها بملاءة ورمت فوق رأسها منديلاً وسحبتها من يدها وخرجت.

سمعت صوت سليم الذي كان في غرفة أمّه جالساً حول مائدة الإفطار يقول لها: "إن خرجتْ من البيت تكــون طالقــاً، لا أريــد رؤيتها بعد الآن". لم ترد هاجر لكنّ صفاء رجتها أن تتركها كي لا يقع يمين الطلاق.. وقفت هاجر أمام الباب مذهولة من منظر ابنتها، الوجه المزرق وعينها المغلقة من الورم وجسدها.. كيف تطلب منها أن تعود إلى زوجها!

تركت هاجر يد ابنتها وتابعت سيرها إلى بيتها بصمت. كانت رقيّة تنتظرها لتتناولا الطّعام معاً، سألتها: "أين صفاء لماذا لم تحضريها معك؟"

قالت هاجر بغصة: "ليست ابنتي لن أعرفهــا بعــد اليــوم". حاولت رقيّة أن تهدّئ من روع هاجر وتجبرها على تناول الطّعــام: "دوقي البقيلة يمكن تكون آخر مرّة تأكلين فيها من طــبخ أمّــك، ملح الرز قليل، لكن لا بأس هكذا أفضل، الطبيب قال لي لا تكثري من الملح". نظرت هاجر إلى أمّها باستغراب، شيءٌ ما جعــل قلبــها يخفق بقوة وعضلات صدرها تتقلّص.. أحسّت بما يشبه الذبحة لكنّها مدّت يدها بصمت وسكبت قليلاً من الرز بالشــعيرية في صــحنها وقليلاً من البقيلة المطبوخة باللحمة الشقف وحمض الليمون.. أكلت لقمتين، مضغتهما بصعوبة وعلّقت قائلة: "اللحمة من عند ســليم؟ كأنّها ليست لحم خروف!". ردّت رقيّة بعتب: "تريــدين القــول إنّي لم أعد أعرف كيف أطبخها؟ يمكن وضــعت الليمــون قبــل أن تستوي اللحمة! أنا لم أشعر بذلك، طول عمرنا نأخــذ اللحمــة من عند سليم، أعتقد أنّك مقهورة منه لــذا؛ شــعرتِ أنّ اللحمــة قاسية".

أشعلت هاجر سيجارة، وسألت أمّها: "ما رأيك بفنجان قهوة؟ لا تقولي لي الأطباء قالوا.. الأطباء لا يعرفون رأسهم من أقـــدامهم.. سنشرب القهوة وفي الغد يخلق الله مالا نعلم".

وذهبت إلى المطبخ.. صنعت فنجانين وحاولت أثناء ذلـــك أن تستعيد رباطة جأشها وتتخلّص من غيظها. حين عادت إلى الغرفـــة رأت أمّها قد اتكأت على الوسادة فوق الخوان وغفت. لم تشـــأ أن توقظها فخرجت إلى أرض الدّار لتشرب قهوتها وتتنسم بعض الهواء الذي يصبح لطيفاً في منتصف تشرين الثاني وتزول الرطوبة الخانقة.. الياسمينة على كتف الباب الخشبـــي يحرّكها النّسيم الذي اشتدّ قليلاً وتحوّل إلى ريح عاصفة غير متوقعة جعلت هاجر تنهض من جلستها مع بداية التّسميع لصلاة العشاء.

لم يخطر ببال هاجر أنّ كلمات رقيّة التي قالتها بعـــد الإفطـــار كانت آخر شيء ستسمعه منها فقد فارقت الحياة بهدوء مـــن دون ضجة وبدت في إغفاءتها الأخيرة كأنّها نامت بعمق!

تعمّق إحساس هاجر بالقهر والظلم.. وأشبعت الوحدة روحها بالهزائم بعد وفاة والدتها رقيّة في يوم الجمعة الخامس مـــن رمضـــان. لكنّ تاريخ الهلع الذي أصابها لم يكن بسبب فقد أمّها وابتعاد ابنتيها عنها، بل بدأت تلك الحالة بعد وفاة زوجها عبـــد الغفـــور بمـــرض التيفوئيد.. لم يستغرق مرضه سوى ساعات من ارتفـــاع الحـــرارة والهذيان ثمّ رحل وكأنّه لم يكن! أصيبت هاجر بعد ذلك بتلك الحالة الغريبة تأتيها تحت وطأة أيّ حدث بسيط وتافه، فإن جرحت إحدى ابنتيها إصبعها كانت تركض بها إلى الطبيب وهي تتخيّل أنّ المـــوت سيخطفها بسرعة كما فعل مع أبيها وجدها. وحين أصيبت حيـــاة

بالزّكام والرّشح أخذها لعند "وهيب الغانم[1]" وسألته بلهفة "هل ستموت؟". ضحك الطبيب وقال: "مجرد نوبة برد لا تخافي". لكنّ هاجر لم تقتنع و لم تشأ أن تكتفي بالدّواء الذي وصفه لها الطبيب، اقترحت عليها أم عبد الله أن تأخذها لعند أم جميل الخبّازة وتعمل لها حجاباً يحميها من العين.. نفذّت الاقتراح بسرعة وبالمصادفة كان الدّواء قد أخذ مفعوله وشفيت حياة وعادت إلى المدرسة!

في منتصف الخمسينات حين تزوجت حياة ابن عمتها وسافرت إلى أريحا كان سقف الغرفة الصّغيرة "غرفة الخياطة" قد بدأ يتصدّع وتشقّق مع الوقت فنقلت هاجر حاجياتها إلى غرفة أمّها قبل أن ينهار السّقف تحت وقع الأمطار في شتاء بارد نهاية الخمسينات.. وأرسلت ماكينة السنجر هدية إلى ابنتها وتوقفت عن الخياطة والتّطريز واكتفت بأشغال الإبرة والمخرز، وتحوّلت رخامة "الجاردينير" إلى أرضية لأصيص من "زهر الهواء" الذي أحضرته حياة معها من أريحا..

عاد البيت إلى حيويته في نهاية الخمسينات حين جاءت حياة لتسكن مع أمّها وجدتها مدّة من الزمن حين أصبح زوجها مدرّساً في إحدى قرى اللاذقية. لكنّ ذلك لم يستمر سوى أشهر وضعت خلالها بنتاً وعادت إلى أريحا.

---

(1) وهيب الغانم: طبيب علوي من مدينة أنطاكية "في اللواء السليب" وهو أول طبيب عربي في اللواء تخرج من الجامعة السورية، عرف في اللاذقية في تلك الفترة بأنّه خصص يوماً في الأسبوع لمعالجة الناس من دون أجر، وكان أحد الأطباء الثلاثة "أمين رويحة، ونديم شومان" الذين ترشحوا للبرلمان. وقد كان بعثياً وله إنجازات ومؤلفات.

في تلك الفترة طرأت تغيرات كثيرة على الحي، وتحسنت العلاقات بين عطية وصفاء.

* * *

عُرفت "عطية" في الحي بشراستها منذ الصّغر و لم يكن صبيان الحي يستطيعون أن يغلبوها في ألعابهم الخشنة.. كان ذلك قبل أن تقص البلدية البيوت لتفتح شارعاً يصل التّفريعة خمسة بشارع 8 آذار ولكون الشّارع أعلى من التّفريعة بكثير انتهت الوصلة بدرج حجري.. المهم أنّ التنظيم نسف قسماً من البيت وطارت الغرف التي تعيش فيها عطية وأمّها وباقي العائلة وبقيت الغرفة التي تخص صفاء مع الفسحة خلفها، عمّر فيها سليم غرفاً إضافية وأصبح لصفاء بيتاً مستقلاً!

اشترت عطية ملحقاً على سطح بناية في الحي نفسه، كانت "عطية" تزرع الزنبق الأبيض البحري في تنكات السّمنة الفارغة.. في الشّتاء تضع التنكات في وضعية الاستلقاء ووجها للغرب كي تتنسم هواء البحر الدافئ، وتمنع عنها هواء الشّرق الصقيعي في بعض الأيام.. كانت تقول لابنة أخيها "الريح الشّرقية باردة وتؤذي الجميلات، انتبهي لبشرتك منها، نحن بنات اللاذقية نتمتع ببشرة ناعمة ولينة لا تتشقق؛ لأنّ البحر يرسل لنا نسيماً دافئاً عابقاً باليود وأسرار الجزر المنسية".

كانت "أمون" التي تحمل اسم جدها وملامح عمتها تضحك وتقول: "يا عمتي ماذا تنفع نعومة البشرة مع هذا اللون الأسمر الذي ينفر منه الشّباب، خليها بالقلب تجرح يا عمتي "لولا علبة مكي كانت الأحوال بتبكي".

تسخر عطية من ابنة أخيها؛ لأنّها لا تفهم معنى أن تكون سمراء كنبيذ معتق بخابية، ولأنّها تبدو كمهرجة غبية عندما تستخدم كــريم "ايديال" لتحسين لون بشرتها: "أنت تتعدين على الطبيعة التي منحك إياها الخالق، يذهب سحر بشرتك بالمستحضرات، الشّباب يدركون أنّك مشوهة لهذا ينفرون منك.. لو أنّك تعرفين قيمة ما أورثتكِ إياه، ثمّ... إذا كنت تريدين بشرة صافية ولا بد افعلي مثل ستك هــاجر، طول عمرها تفرك بشرتها بالنّخالة صباحاً و لم تلمس المستحضــرات ولا الصّابون، انظري إلى بشرتها بعد هذا العمر كم هي جميلة!".

لم تكن "أمون" تغفل أبداً عن السّبب الحقيقي لدفاع عمتها عن جمالها "المتخيل" فقد ورثت عنها لون البشرة الغامق وغلاظة الشفتين وقصر القامة.. لكنّها لم ترث ظروفها التي جعلــت أجمــل شــباب اللاذقية في ذلك الزمن يتزوجها ويبقى طوع أمرها حتّى آخر لحظــة في حياته!

قصدت عطية وقتها السوق في "حارة الموارنة[1]" –وكان حيــاً جميلاً طوله مئة وخمسون متراً وعرضه بين ستة وأربع أمتار– لتشتري مفروشات لبيتها الجديد، لكنّها وصلت متأخرة بتوقيت آذان العصر وكانت معظم المحلات قد أغلقت أبوابها، اللحامين والنجارين وبائع الفحم وصانع الأحذية والنجــار العربــــي والغريــب أنّ نجــار المفروشات كان محله مغلقاً أيضاً.. وبقيت بعض المحــلات مفتوحــة كالحلاق ودكاكين الخضرة والأجبان ومحل العطارة وورشــة حفــر الموبيليا وبائعي المشروبات الكحولية. كانت العجائز في تلك السّاعة يكنسن أمام البيوت ويرششن الحارة بالماء تمهيداً لجلستهن المعتادة التي

(1) سوق البالة حالياً.

سبقهن الرجال إليها حيث تجمعوا للعب الزهر والدمينو.. تجاوزت بخطوات سريعة صالتي القمار ومدرسة الشّهداء وطارق بن زياد والخان.. وتوقفت لترد السّلام على العجائز اللواتي دعونها بطيبة للجلوس معهن. حينها لمحته يدخل محل العطارة، بقيت عيناها معلقتان بالباب حتّى خرج بعد دقائق ودخل المطعم.. فبقيت تتحدّث مع النّساء لعلّه يعود..

فعاد، عاد ليخطبها ويتزوجها.. عاشت معه أكثر من عشرين سنة من دون أن تنجب أولاداً لكنّه لم يعترض يوماً و لم يحتج و لم يكن يجرؤ على مراجعتها بقرار أو تصرف و لم يرفع صوته يوماً في حضورها.. كان ذلك مثار حسد نساء الحي واستغرابهن، لكنّ أم جميل الخبّازة أسرّت لإحدى نساء الحي أنّ عطية قد جاءتها يوماً في حال غريبة وروت لها أنّها شاهدت شاباً في حي الموارنة أعجبها وتريده زوجاً وطلبت منها أن تكتب لها حجاباً بالمحبة تربطه به إلى آخر العمر، وهذا ما كان، كتبت أم جميل الحجاب بعد أن حصلت عطية على أثر من الشّاب جلبته لها، وأوصتها بوضعه تحت مخدتها وأن تسكب ماء -قرأت عليه أم جميل- أمام باب محل العطارة في الثانية عشرة ليلاً وسيأتيها خاطباً في اليوم التالي!

* * *

الرمل الفلسطيني

...

أهي مجرد مصادفة أعادت رقيّة للسكن في مخيم "الرمل الفلسطيني" بعد سنوات طويلة من نزوحها من فلسطين؟ حين عادت رقيّة الثانية من فلسطين نازحة من يافا لم يكن أحد من أقاربها يعرف ما الذي حدث بالضبط، كلّ ما يعرفونه أنّها ذهبت إلى "مرسين" برفقة زوجها وانقطعت أخبارها. لم يكن أحد في ذلك الوقت يملك فضولاً أو رغبة في معرفة ما حلّ بها حتّى أمّها. لكنّ عودتها أحدثت ضجيجاً مصحوباً بعاصفة من الأقاويل بسبب مواقفها الحادّة وشجارها مع أقاربها والجيران الذين تسكن معهم. انتقلت من البيت الذي استأجره أخوها الصهيوني لها، وسكنت في بيت آخر قريب من جامع العجّان، لكن ما حدث أنّ الجيران الجدد اشتكوا منها ومن سوء معاملتها للأولاد وجعلوها تترك البيت مرغمة، كانت تمنع الأولاد من اللعب بالكرة عصراً، وتصرخ بهم وتشتمهم إن أحدثوا ضجيجاً قرب باب بيتها كما كانت تصادر كلّ لعبة تقع في فسحة البيت عندها وترميها بالجب.. وتمنعهم من المرور فوق الرصيف أمام البيت خاصة عند العصر فهي تكنس المكان وترشه بالماء وتخرج كرسيها القش الصّغير وعدّة الشّغل وتجلس أمام البيت. لم يستطع

الجيران إيجاد عذر لها واعتبروا تصرفاتها إساءة لهم لكنّ أحداً منهم لم يدخل إلى قلب رقيّة التي كانت على الرغم من شراستها وأنانيتها هشة وسريعة العطب وعاطفية إلى حد تخشى معه أن يظهر ما تحس به أمام أحد، فتُظهر شراستها لتصنع حاجزاً بينها وبين الآخرين.. كانت تذكّر نفسها دائماً بأنّ الحبّ لا يجلب سوى الفراق هذا ما حدث بينها وبين زوجها الأوّل.. لقد أحبّته رقيّة وأعطته من روحها وجسدها ومالها بلا حساب.. سهرت الليالي تحيك الصّوف وتخيط الملابس وتسلّمه كلّ قرش يصل يدها، كانت تبخل على نفسها حتّى بالأشياء الضرورية التي لا غنى عنها فترتق ملابسها وتعيد خياطتها مرّات حتّى يتمزّق النّسيج، بينما تشتري له كلّ جديد. فجأة صار يغيب عن البيت أياماً وحين يعود لا يكلّمها، فقط يريد أن يأخذ منها النّقود التي يحتاجها وعندما لا يعجبه المبلغ يضربها ويتهمها أنّها تخفي النّقود عنه.

لجأت إلى قريبتها نفيسة لتجد لها حلاً وكان ما أرادت فقد باعت ماكينة الخياطة وتوقفت عن العمل وعندما لم يجد زوجها من ورائها نفعاً طلّقها. تعرّفت رقيّة في ذلك الوقت على سيدة فلسطينية من يافا زوجها تاجر يتنقّل بين بيروت واللاذقية ومرسين فطلبت منها أن تصحبها معها إلى اللاذقية؛ لأنّها لا تملك المال الكافي، وكان المركب في طريقه إلى يافا.

نزلت رقيّة في ضيافة السّيدة ريثما يحين موعد السّفر، لكنّ الأقدار كانت ترسم لها خطّ سير مختلف. في مدّة قصيرة تعلّمت رقيّة صناعة الزهور، وبرعت بابتكار أشكال جديدة وخاصة زهرة الياسمين البيضاء لتزيين أثواب العرائس والتيجان.. صناعة تلك الزهور بالنسبة

لرقيّة كانت فتحاً جديداً على عوالم الخلق التي بدأتها حين تعلّمت النّسيج بالمخرز ثمّ التّطريز على القماش وأبدعت في خلق طيور تكاد تكون حيّة وأجنحتها المرفرفة توحي للناظر أنّها ستغادر القماش بعد لحظات.. من ذلك العالم صنعت رقيّة صدفتها المتينة التي تحتفظ بالألم في القشرة الرقيقة تحت الجدار العظمي فلا يراه المتأمل لجلال مظهرها وهي تغرز الإبرة في القماش، أو تسحب خيوط الصّوف من بكرتها وتلفها على إصبعها الصّغير بنعومة وتحرّك المخرز بسلاسة لتصنع به أشكالاً في غاية الروعة.. إنّها عملية الخلق التي تعطيها مظهر عرّافة عجوز بملامح شابة جميلة تعرف كيف تحتال على الألم الخفي بابتسامة تبدع في رسمها ونسجها وتقديمها للآخرين!

قبل أن يحين موعد السّفر تقدّم لخطبتها التّاجر الذي تتعامل معه وقبلت رقيّة. لم يكن السّبب أنّها عشقت المدينة الجميلة ولا كرم أهلها فقط بل؛ لأنّ جرح القلب كان طرياً ولم تكن تستطيع تصور نظرات الشّماتة أو اللوم في أعين أهلها، والسّبب الأساسي كان حاجتها لحماية رجل في بلد غريب ووجود أب لابنتها "درّيّة" التي تجاوزت الخامسة من عمرها.

لم تتخلَّ رقيّة بعد الزواج عن عملها، اشترت ماكينة خياطة ولم تتوقف عن صناعة الزهور. الحرفة التي أنقذتها من الفقر عند عودتها إلى اللاذقية، فقد كانت رقيّة أوّل من أدخل الزهور الصّناعية إلى اللاذقية وقد تعاقدت مع تجار روّجوا لصنعتها قبل أن تنتشر ويصبح لها ورشاتها الخاصة.

حين أصبحت ابنتها درّيّة في السّابعة عشرة زوجتها من شاب فلسطيني من أقارب زوجها، كانت درّيّة وقتها قد أنهت دراستها

الإعدادية وكانت مولعة بالقراءة والكتابة.. حين اضطرت رقيّة لمغادرة يافا حملت معها من كتب ابنتها كتاب "ألف ليلة وليلة" أهدته لحياة فيما بعد وكان أوّل كتاب خارج المنهاج الدراسي تقرأه حياة وصبايا الحي بالتناوب.

لم يعرف أحد من سكّان اللاذقية بعد عودة رقيّة أيّ تفصيل عن حياتها في الفترة التي غابتها، وكلّ ما أشيع وقتها عن الطّفلة التي كانت بصحبتها مجرد تخمينات واجتهادات شخصية لم تؤكدها رقيّة كما لم تنفها! حين أصبحت أمل في السّادسة من عمرها، سافرت رقيّة إلى بيروت كالمعتاد، وعادت من دونها. يومها أغلقت باب دارها دون الزبائن والجيران والعالم بأسره ولم تخرج إلاّ بعد أسبوع وكانت عيناها متورمتان من البكاء.. يومها فقط قالت رقيّة شيئاً فاض عن صدرها ولم تحتمله "لقد رحلت روحي". لكنّ رقيّة لم تتحدّث عن أمل سوى كلمات قليلة لم تفسر بها لماذا جاءت معها من فلسطين ولم تذهب مع أمّها إلى مصر! لا حاجة للأقارب والجيران لكلام رقيّة فقد أشاعوا أنّ رقيّة سرقت الطّفلة وأنّها ليست حفيدتها.. ثمّ أشاعوا أنّ أمّها نسيتها وسافرت وأنّ رقيّة جاءت إلى بيت ابنتها فوجدت الطّفلة وحيدة أخذتها وسافرت. كلّ السيناريوهات المرسومة بدقة قريبة من الحقيقة؛ لأنّ دريّة لم تستطع الوصول إلى بيت أمّها لأخذ ابنتها حين هاجم الصهاينة المدينة بخمسة آلاف مقاتل ولم يكن فيها من الثوار سوى ألف وخمسمئة للدفاع عنها. وطرد أهلها بحراً إلى لبنان، وبراً إلى شرق فلسطين والأردن. وكانت القوات الصهيونية تفرز الذكور من سن العاشرة وحتّى الخمسين في معتقلات مؤقتة وقد كان بينهم زوج رقيّة وابنها! أعدم

زوجها مباشرة بين من أعدموا لإرهاب الباقين، واتّجهت هي مع أمل التي كانت تنام عندها إلى بيروت في مركب صغير.. ورحلت درّية برّاً إلى الأردن ومنها إلى مصر بصحبة زوجها.

في بداية السّبعينات اشترت رقيّة بيتاً في "الرمل الفلسطيني" وسكنت هناك بعد أن أشار عليها أحد أقاربها بأنّها تستطيع التسجيل في "الأونروا" على أنّها لاجئة؛ لأنّها تحمل الجنسية الفلسطينية ولديها ما يثبت ذلك، وأصبحت جارتي.

لم تتوقف رقيّة عن نسج الصّوف ولكنّها تخلّت عن صناعة الورد والخياطة بعد أن زاد وزنها كثيراً وأصيبت بهشاشة العظام وانحنى ظهرها و لم تعد تستطيع التّنقل بسهولة حتّى داخل البيت كانت تتعكز على مظلّة لا تفارقها صيفاً ولا شتاءً. لكنّها لم تتوقف عن رحلاتها المكوكية إلى مرسين لزيارة أقاربها، وبيروت لرؤية أمل التي تخرجت من الجامعة وذهبت إعارة إلى الكويت، ومصر لزيارة درّية ابنتها.

زيارتها المتكررة لبيروت ومصر كانت مفهومة لدى أقاربها وجيرانها لكن زيارتها إلى مرسين لم يفهمها أحد. فمن بقي هناك لتزوره بعد أن توفيت نفيسة في نهاية السّتينات؟ مع هذا لم تغيّر رقيّة خطّ سيرها يوماً، كانت تركب السّيارة إلى حلب وتنزل لتستريح أياماً في أريحا عند حياة ابنة هاجر، ثمّ تتابع رحلتها إلى حلب فتركيا فبيروت ومنها إلى مصر!

وفي كلّ مكان تحط فيه كانت تترك أثراً من يديها، تنسج لأصحاب البيت شالات صوفية وأغطية طاولات من الكروشيه وتصنع زهرة أو وردة لثوب وتغادر متكئة على مظلتها وفي يدها

"كشكولها" القماشي الكبير المطرّز باليد بخيطان ملونة تستخدمها الفلسطينيات في شغل لباسهن الشعبي.

آخر عهدي برقيّة كان في منتصف الثمانينات حيث أقنعها بعض الجيران ببيع بيتها الواسع الذي لا تستفيد منه لكونها وحيدة والسكن في بيت أجرة. واقتنعت رقيّة وبَصَمَت على أوراق البيع؛ لأنّها لم تكن تعرف القراءة والكتابة.. وجاء المالك الجديد ليرمي لها أغراضها في الشّارع ويخرجها بالقوة.. لقد تعرضت لعملية نصب ولم يشهد أحد من الجيران أنّها لم تقبض قرشاً من ثمن البيت! لكنّهم اتصلوا بشقيقها محمد سعيد ليأتي ويأخذها من الشارع، وقام هو بإرسالها إلى ابنتها درية في مصر.

لم يمضِ على غيابها زمن طويل حتّى عاد الجيران يتناقلون أخباراً جديدة عنها في جلساتهم المسائية أمام دكان الحجة بدرة في التفريعة 1 شمالاً، لست على يقين إن كانت تلك الحكايات حقيقة أم من نسج خيالهن وإن أقسمن أيماناً مغلظة على صحتها! كنت مارّة بالصدفة وتوقفت لشراء بعض الحاجيات حين رأيت نساء الحي وقد تجمّعن حول أطباق القش "يفتّلن" العجين ليصنعن منه الشّعيرية، وسمعت إحداهن تقول: ""الخبر أكيد كان ابنها في العاشرة من عمره حين انتزعه اليهود من بين ذراعيها وأخذوه إلى معسكر الاعتقال. لم يبقَ في ذاكرته سوى شكل يديها وهي تنسج الصوف وتصنع الورد، وابتسامتها وهي تقلّب تراب الزرع في تنكات رصتها في مدخل البيت.. وحكاياها عن بلدها وأهلها".

أخيراً وجدت الحلقة المفقودة في رحلة رقيّة المكوكية.. لقد كان ابنها يحمل جنسية إسرائيلية فقد تبنته عائلة يهودية جاءت إلى يافا من

روسيا، وبسبب جنسيته وظروفه لم يكن يستطيع الدّخول إلى سوريا لرؤية أمّه، فكانا يلتقيان في مرسين حيث يذهب في تجارة إلى هنـــاك بشكل منتظم، وتذهب هي لرؤيته.

* * *

متوالية الفقد

...

النوة التي تغلّب عليها بحّار عاد من "السفربرلك" وحيداً ولم يستطع أحد أن يعرف تفاصيل رحلته الغامضة، هي نفسها التي قتلت الكثير من أحلام صبايا الحي وابتلعت شباباً في عمر الورد.

ليس موت عبد الرحمن المثير للتساؤلات وحده ما ترك في نفس ابنته هاجر هاجس الخوف والتّوتر بل الفراغ الذي تركه غياب مصطفى شقيقها الوحيد الرجل الذي كانت تأمل أن تسند رأسها على كتفه حين تفاجئها مصائب الحياة التي لا تنتهي، الرجل الذي حلمت أن يكون عمود البيت الذي يمنعه من السّقوط والفناء.. لكنّ مصطفى خيّب أملها وأمل أمّه بالسند وتركها وحيدة في مواجهة الحياة بعد أن لحقت رقية بزوجها. وتحوّل غيابه إلى هاجس تمثّل في منامها على شكلِ نوة كانت تجتاح الشّاطئ فجأة وتجرف كلّ من عليه.. كانت ترى شقيقها وهو يصارع الموج بيدين عزلاوين والمركب يبتعد وسط العاصفة وهو يدير ظهره لها ويغرق!

سلسلة الموت لم تتوقف منذ التّاريخ الذي توفيت فيه أمّها رقيّة وحتّى بداية الثمانينات حيث اتّخذ الموت شكلاً آخر. فتحت رقيّة

باب السّماء لتأخذ وراءها أم محمّد الّتي غادرت الدّنيا بداية عام سبعين وأقفلت عينيها على مشهد الحي الجميل بتفاصيله الحميمة وروائحه قبل أن تمتدّ يد التغيير والقبح إليه. بقيت هاجر وحيدة في أوائل السّبعينات، وقد تعمّق إحساسها بالخوف والعزلة و لم يوافق سليم على بقاء أحد أولاده عندها ليلاً واقتصرت زيارات حياة على عطلة الصيف، أغلقت ماري باب بيتها في تلك الفترة و لم تعد قادرة على حمل النرجيلة إلى العتبة والجلوس أمام الباب لتأخذ نفساً عميقاً وهي تراقب الأولاد يلعبون بالكرة فتسقط في فسحات الدور المغلقة..

كانت بداية الخوف.. طرأ تغيّر ما على جوّ البلد لم يدركه النّاس جيداً، فقد بدا غامضاً. لكنّ خطوات الغرباء الثقيلة التي تجوب الأزقة والحارات جعلت النّساء يغلقن أبواب الدور ويتوقفن عن جلساتهن المسائية أمام الأبواب إلاّ نادراً.

كان يوماً عصيباً وقاسياً ذلك اليوم الذي عادت فيه هاجر من السّوق مرهقة بعد سعي لبيع بعض قطع القماش التي أحضرتها من بيروت.. لقد غزت الألبسة الجاهزة المحلات وصارت مطلوبة أكثر من القماش و لم يتبقَ لديها زبونة سوى ابنة خالها "نجاح" تشتري منها بأقلّ ربح ممكن.

جلست على الخوان تنتظر آذان العصر لتصلي وتأخذ قيلولة، لم تدرِ كيف خطفها النّوم وغرقت فيه وعندما انتبهت كان البيت غارقاً بالعتمة.. تطلعت حولها باستغراب لم تستوعب مباشرة أين هي، فهي لم تخلع ملاءتها وغطاء رأسها.. نهضت بصعوبة صوب الغرفة، شربت قليلاً من الماء وجلست على حافة السّرير.. سمعت خطوات في

الشّارع كانت تنزل شمالاً ثمّ تعود فتتوقف قرب بابها.. خيّل إليها أنّها رأت رأس رجل فوق سور البيت، خفق قلبها بسرعة، ابتعدت عن النّافذة المطلة على الفسحة، أغلقت باب الغرفة بالمفتاح من الدّاخل وظلّت واقفة وراءه وهي ترتعش.. الحركة خفّت في الشّارع، عادت إلى النّافذة لم ترَ شيئاً.. فتحت الباب ببطء ونزلت إلى فسحة الدّار وقصدت المطبخ.. أكلت لقمتين على عجل وتوضأت وعادت.. لم تستوعب أنّ الذي مرّ بين قدميها لم يكن سوى قط أسود أخفته العتمة، صرخت بقوة وسقطت أرضاً.. لم تنهض هاجر بعدها، حين جاء أولاد صفاء في الصّباح لزيارتها وجدوها مرمية في أرض الدّار وقد فقدت مقدرتها على النطق.

الطبيب قال بإمكانها أن تتحسن لكن يجب أن يبقى أحدٌ بجانبها لرعايتها.. لكنّ سليم بقي على موقفه المتعنت ومنع أولاده من البقاء عندها وحلف على زوجته يميناً بالطلاق لن تذهب إلى بيت أمّها ما لم تكتب لها البيت كاملاً باسمها.

رفضت هاجر أن توقّع على أيّ ورقة.. واتّصلت صفاء بشقيقتها حياة لتأتي وتأخذ أمّها.

قضت هاجر عامين وهي تعاني من الشّلل النصفي وتوفيت في ربيع 1974. كما فرّقهما الموت أوّل مرّة، لم يجتمعا في قبر واحد كما كانت تأمل.. بقي عبد الغفور في تربة اللاذقية ودفنت هي في تربة أهله بأريحا.

قبل انقضاء عام ماتت ماري، وأم عبد الله، واشترت فاطمة بيت رقيّة وهدمته وبنت مكانه مجمّعاً سكنياً غرفه لا يكاد يدخلها شمس ولا تعرف شكل البحر!

ساءت العلاقة بين صفاء وحياة بسبب إرث البيت الذي كان معظمه لورثة مصطفى الذي توفي أيضاً قبل شقيقته بأشهر. قضى زوج حياة سنتين في المحاكم كي يأخذ البيت كاملاً بحجة أنّ صفاء لم تعتنِ بأمّها و لم تزرها طيلة فترة مرضها، و لم يسمح لها زوجها أن تحضر جنازتها. واستطاع تخليص البيت من الورثة الذين لم يُعثر على أحد منهم!

لم ينسَ "أبو حسان" ابنة أخيه هاجر -كما كان يسميها- بعد سفرها، كان يمرُّ بالباب المغلق على أصوات الراحلين ويراقب الياسمينة اليابسة وشقوق الباب الخشبي ذي اللون الأزرق الباهت، ويسمع بقلبه رجع صدى الضحكات، ضحكات رقيّة والبنات والأحفاد.. يتوقف للحظات ويتابع طريقه وهو يتحسّر على ما مضى.. كان ذلك قبل هدم البيت!

صوت "أبو حسان" ضمير البلد اليقظ سكت فجأة، لكنّه سكت في زمن لم تعد اللاذقية فيه تنام باكراً لتصحو على همس أمواج بحرها ودفء نسيمها، و لم تعد الصبايا يتمشين على كورنيشها حيث ينتشر بائعو الذرة المشوية والميلانة[1].. ويعانق الموج أقدام مقاهيها في رقصة أبدية أوقفتها معاول الهدم والخراب لتغيّر معالم المدينة العريقة وتفرض قبحها الذي عشش في كلّ مكان وطال الأبنية والشّوارع والأزقة والتّاريخ.

* * *

(1) الحمّص الأخضر المشوي.

لأوّل مرّة تطأ قدم سامية عتبة بيتي بعد انقطـــاع دام ســـنوات وكان الدافع أقوى من الخلافات التي أبعدتنا عن بعضـــنا. حـــاول زوجي -الوسيط في الصلح- إقناعنا بضرورة رفع دعوى على زوجة أبينا وأولادها لنحصل على حقّنا الشّرعي. وقام هو بتوكيل المحـــامي "نعمان العجيل" الذي عرف في بداية السّبعينات بأنّه أشطر محامي في اللاذقية وقد ربح الدعوى فعلاً.. وورثت سامية 100 ألـــف لـــيرة وكان غرام الذهب وقتها بخمس ليرات! وكان نصيبـــــي بيتـــاً في الطابيات[1].. وكذلك ألما وصباح.

أما مجد وهشام فقد كانت نسرين ترسل لهما ثمن ما تبيعه مـــن الأراضي حتّى باعت الضيعة كلّها، ثمّ باعت الأوتيل، ولكنّهما عادا بعد سنوات من استنبول من دون شهادة وقد أفلسا، أصيب أحدهما بالجنون وانتهى الثاني في محل لبيع الفلافل.

لم يمضِ سوى أشهر على استلامي البيـــت وفرشـــه وتجهيـــزه للسكن حتّى فوجئت بورقة الطلاق أرسلها زوجي لي بالبريد.. لكنّ المفاجأة الأقسى كانت سطوه بأوراق رسمية على البيت بمعاملة بيـــع وشراء موثقة لدى الشهر العقاري.. حيلة صغيرة قام بها جرّدني مـــن كلِّ شيء ورماني ومعي وصال، وتزوج عشيقته المسيحية.

كانت صباح عندما تتحدّث عن حياتهـــا في بيـــت العائلـــة لا تقترب من هذه الفترة ليس لأنّها لا تحبّ الحديث عـــن الـــذكريات المحزنة بل؛ لأنّها غالباً ما تشعر بالخزي من تصرفات أمّها التي صنعت حاجزاً بينها وبيننا لا يمكن تجاوزه أبداً، في طفولتها كانت تتسلّل إلى

(1) الطابيات، تعني القلعة المرتفعة، يعتبر من الأحياء الراقية في اللاذقية يطل على البحر من ثلاث جهات.

غرفة سكينة خانم في الطابق الثاني وكانت أمّي سعدى تحضـــر لهـــا أطعمة طيبة تحبّها وما زالت حتّى الآن تشم رائحة ماءِ الزهر من الرز بالحليب وأبخرته تتصاعد في المطبخ وتذكر كيف كانت أمّها توبخهـــا وتضطر إلى حبسها أحياناً ومراقبتها كي لا تغافلها وتصعد الدّرج إلى الطابق الثاني. لكنّها لم تخضع لرقابة أمّها وبقيت متمردة طيلة حياتها وقد دعم عاصم آغا ذلك التّمـــرد بإعطائهـــا الحريّـــة الكاملـــة في تصرفاتها، وكانت سنداً لي في الحصول على بيت يأويني مع ابـــنتي في الرمل الفلسطيني.



يوم الحلة

15 شباط / 2015/

...

توجهنا إلى "عزمارين" بصحبة كثيرين ممن كـــانوا معنـــا في منطقة خربة الجوز.

أكّد المهرّب لنا أنّ الطريقة آمنة ولا يوجد مخاطر مطلقاً، وأنّ بإمكاننا رؤية الضفة الأخرى بسهولة، ولن نضطر للمشي ســـوى مسافة قصيرة حتى نصل منطقة "حجي باشا" في الطرف التّركـــي من الحدود. وكان من الصّعب إقناع جدتي أن تتخلّى عن فكـــرة اصطحاب حقائبها إلاّ بعد أن وعدتها بـــأنّ هنـــاك أصـــدقاء لي سيجلبون أغراضها معهم عندما يفتح الأتراك معبر بـــاب الهـــوا.. فرضيت أن تحمل ما يلزمها وتركت الباقي مع الصّندوق في عهدة كفاية.

هل سبق أن جرّبت إحساس تلـــك الحيوانـــات المذبوحـــة والمسلوخة جيداً وهي داخل وعاء الطبخ فوق النّار؟ المشهد أعاد إليّ صورة الحلة النّحاسية الكبيرة التي كان أهل الحي يطبخون فيها الحنطة مع شقف اللحم الكبيرة في المناسبات الهامة كعودة الحجّاج وطهور الأولاد والأعراس!

ربّما لم يكن وجودي مع آخـــرين داخـــل "الحلـــة" بتلـــك القسوة لكنّ الإحساس لازمني طيلة دقائق شعرت فيهـــا أنّ المـــاء

تحتنا تحوّل إلى نار، وأنّ العاصي جهنم بكلّ تفاصيلها المرعبة.. كلّ ما أعرفه عن النّهر أنّه هادئ وجميل ومياهه شحيحة، وقد كنت على يقين أنّ العاصي المتمرد منذ وجوده على الكرة الأرضية، والذي سمي عاصياً لسيره عكس قانون الأنهار في الدّنيا، كان اليوم متآمراً ضدّنا وعلى عكس طبيعته لم يكن هادئاً ولا صديقاً طيباً.. فقد هاج فجأة مع حركة الرّيح وتدفقت السّماء بالمطر...

تمتمت جدتي وهي تحدّق في الضّفة الأخرى التي حجبها المطر عن أنظارنا.. "رحم الله جدتي أم محمّد كانت تقول: إنّه شباط ما على كلامه رباط".

ارتفع منسوب الماء في النّهر.. وسمعت أصوات صراخ الأطفال وتدفق الماء إلى الحلة..

في البداية ظننت أنّ الماء دخل الحلة بفعل الرّيح وحركة الموج.. لكنّ امرأة رمت بنفسها إلى النّهر وهي تصرخ "الحلة مثقوبة.. سنغرق.. ستغرقون". وارتفعت الأصوات تستنجد وتستغيث

لم يكن أمامي مفر، لن أقفز في النّهر وأترك جدتي التي لا تستطيع السّباحة تغرق في الحلة!

الماء وصل إلى حلقها وبدأت تشعر بالاختناق، كانت الحلة تغوص في النّهر والنّاس ترمي بنفسها خارجها وأنا أمسك جدتي وأحاول إبقائها واقفة، لكنّها تهاوت فجأة وصرخت: "لم أعد أستطيع الوقوف، فقدت الإحساس بساقيّ.. عانقتها وأنا أبكي، رميت معطفي وحقيبتي، وأمسكت بها أجرها وأنا أخوض وسط

المياه الهادرة.. من أين جاء العاصي بكلّ هذا الجبروت؟ ومتى كانت مياهه بهذه الغزارة...

وصلنا الضفة في الطرف السّوري ونحن في حالة يرثى لها، لم تكن هناك خسائر في الأرواح والحمد لله، لكنّ جدتي لم تعد تستطيع الوقوف واستنجد بعض الشّباب بسيارة بيك آب حملتها إلى المستشفى في مدينة آطمة الحدودية.

كان المستشفى في فوضى شديدة فقد كانت هناك الكثير من السّيارات المليئة بالجرحى جراء القصف والمعارك، وقد تدفّق النازحون من المخيّم القريب للتبرع بالدم، لكنّني استطعت الوصول إلى طبيب غريب عاينها وقال بأسف إنّها أصيبت بشلل نصفي ولن تستطيع الوقوف على قدميها ثانية.

هذه المرّة اتّخذت قراراً بعدم الخضوع لرغبتها في النزوح، وسيطر عليّ حلم العودة إلى سلمى.. لكن لم يقبل أيّ سائق أن ينقلنا إلى هناك بحجة أنّ الطّريق صار مكشوفاً لقوات النّظام والطّيران الروسي يحلّق في الأجواء. وأصرّت جدتي أن نحاول الذهاب إلى تركيا للمرّة الأخيرة عن طريق "اليمضية" فهي الطريق الأكثر أماناً كما سمعت من النّاس الذين رافقونا في رحلة الحلة! لكن كان علينا قبل ذلك العودة إلى سرمدا لشراء كرسي متحرّك، والاتفاق مع سيارة تأخذنا إلى هناك.

* * *

كنت محرجة إلى درجة كبيرة من العودة إلى بيت كفاية لـــذا؛ صمّمت أن تكون المرّة الأخيرة وإن أجبرتني الظروف سأســـتأجر بيتاً في آطمة أو سرمدا.. كما قرّرت أن أنهي قراءة المخطوط هذه الليلة التي غاب عنها القمر وتكاثف فيها الضباب مانعاً رؤيـــة أيّ شيء خارج شبك الحديد.

* * *

تبليط البحر

...

لم تشهد اللاذقية حدثاً مؤلماً في تاريخها الحديث بمقدار ذلك الحدث الرهيب الذي توّج سياسة القبح وشوّه وجه المدينة الجميل بماء النّار.. لم يكن التشوّه الحاصل في كورنيش اللاذقية كارثياً وحده، فقد امتدّت يد القبح إلى الحارات والأزقة ببناء مساكن كرتونية حشرت في الشّوارع الجميلة الفسيحة، وامتدّت أذرع الأخطبوط الأمني إلى المساحات الخضراء فأزالتها وأغلقت الشاطئ دون أبناء المدينة.

تبليط البحر كان خاتمة لكلّ التشويه الحاصل داخل البنية الحضارية للمدينة الذي تسلّل إلى النفوس فأضعفها وغيّر مسارها الهادئ الجميل.

حتّى العابرون في اللاذقية كانوا يتحسرون على الماضي ويغضون الطرف عن المشهد الكئيب للميناء الذي أقيم على أنقاض المقاهي والعلب الليلية مثل "البحري" و"فينيسيا" و"اللاكابان" ومنع زبد البحر في فورانه من الوصول إلى "الكازينو" حيث يستحم الرصيف برذاذه المنعش خاصة أيام المطر الربيعي العنيف، حين تبدو "النوة" من خلف زجاج المقهى وكأنّها تفتح ذراعيها لعشاق المغامرة الذين يسهرون حتّى الصّباح.

حين أزال الفرنسيون المقبرة كانوا يهدفون إلى جعلها حديقة عامة فاحتفظوا بالأشجار العتيقة التي كانت تشكّل دغلاً مستطيلاً تطلُّ عليه الأبنية المحيطة بالمكان؛ خاصة مركز القيادة العسكرية الفرنسية "السكتور" ومخفر الشرطة "الكركون".. والسّاحة الصّغيرة التي يدور حولها الطّريق في الوسط كانت تحمل مجسّماً لروافع المرفأ ومن ثمّ أخذ المجسم شكل صاروخ حربي، أمّا المستطيل الكثيف للشجر فقد أصبح مركزاً للأنشطة التّجارية والخدمية، استقرّ على جوانبه "الحلاقون، ماسحو الأحذية، البائعون الجائلون".. في السّاحة وجدت أوّل محطة وقود في المدينة، وكانت في أحد الدكاكين التي تحولت إلى مقاهي. الأبنية التي حافظت على وجودها من دون أن تمسها يد التغيير "جامع العجّان، ومدرسة جول جمّال". ما تبقى طاله طوفان البعث!

ما قبل الطوفان كانت السّاحة تشكّل مركزاً بالنّسبة للفلاحين القادمين من الريف، يعملون في دكاكينهم حتّى العصر ثمّ يغادرون إلى قراهم. بعد الطوفان لم يعودوا بحاجة للمغادرة فقد زال عنهم الخوف وتمكّنوا من التمركز في مفاصل البلد الرئيسة وأصبح الكورنيش بعد تبليط البحر في مناطق سكنهم وأطلق عليه "الكورنيش الجنوبي" التّسمية التي تتضمن وجود كورنيش آخر لن ينساه سكّان اللاذقية!

بدأ المحتلون الجدد إنجازاتهم في بداية السّبعينات بحفر ملجأ ضخم مقابل مدرسة جول جمّال، وقاموا بنسف الأشجار المعمّرة.. في تلك اللحظة التي ماتت فيها أشجار ساحة الشّيخ ضاهر، فقدت السّاحة أهميتها ووظيفتها وأصبحت جسداً بلا روح يمرُّ العابرون منه دونما توقف، خاصة حين تمّ تعديل السّاحة إلى شكلها الحالي قبل دورة ألعاب البحر الأبيض المتوسط نهاية الثمانينات!

البيت الأوّل على اليسار

بيت نورية أم رشدي

...

في نهاية السّبعينات حين اشتدّ المرض على نورية ولزمت الفراش أرسلت نوال برقية لرشدي تستدعيه ليرى أمّه قبل أن تموت، كان الجوّ بارداً عاصفاً أرغى البحر وأزبد وأسلمت نورية الروح من دون أن ترى رشدي، لم يكن حول فراشها سوى ابنها عبد الله الذي لم يخلّف وريثاً وكنتها نوال التي عاشت عمرها بحسرة الولد لكنّ وفاءها لعبد الله منعها من طلب الطلاق في سبيل الحصول على طفلٍ من رجل آخر.

ماتت نورية في حسرة أن ترى أحفادها من بكرها رشدي أو ابنها عبد الله.. لكنّ من تبقّى من أهل الحي لم ينسوا أحدهم فما زال النّاس يذكرون قصة الحبّ التي جمعت عبد الله بنوال.

نوال التي لم تمل أبداً بعد زواجها من سماع أسطوانة عبد الوهاب "ياما بنيت قصر الأماني" التي أهداها إياها عبد الله والتي حفظها أهل الحي جميعاً.. فقد كانت تتسلّل عبر النّوافذ لتصل أسماعهم حتّى في ليالي الشّتاء حين يغلق البرد نوافذهم ويُخفت المطر أصوات الكون فلا تكاد تُسمع تحت وطأة انهماره.

حتّى رقيّة كانت تناديها من فسحة الدّار "يا نوال فين عيونك"؟ فتطلّ من شبّاك غرفتها في الطابق الثّاني قائلة: "هنا يا ستي أمرك".

فتطلب منها رقيّة أن تقطف حبّات التّين من الفروع العالية الواصلة إلى شبّاكها. فتفعل نوال وتنزل السّلة بالحبل إلى رقيّة التي تأخذ حاجتها وتعيد الباقي لنوال وهي تقول: "الله يطعمك يا نوال بجاه النعمة كلّ شيء تتمنينه". فتختنق العبرة في حلق نوال فهي على الرغم من محبتها لدعاء رقيّة إلاّ أنّ تذكيرها بأنّها لن تنجب أولاداً يجرحها.

وعلى الرغم من العداوة الكامنة بين "نورية" و"نوال"، إلاّ أنّ "نورية" كانت تشهد لنوال بأنّها سيدة بيت ممتازة. وقد اعترفت أمام الجارات يوماً وبشيء من الإعجاب أنّ نوال ليست رعناء، وتحافظ على الأشياء سليمة وزاهية، وتشهد فناجين الشّاي هدية عرسها على ذلك فما من ضيف شرب فيها إلا وظنّ أنّها تستخدم للمرّة الأولى.. كادت "نورية" تشهق بعد أن أدلت بذلك الاعتراف الخطير وأرفقته أنّها خلال عشرين سنة من زواجها لم تحطم كأساً أو صحناً و لم يكسر بيدها لوح زجاج على الرغم من كثرة النّوافذ والثّريات الكريستال التي تلمّعها أسبوعياً! ورغم ذلك كان ممنوعاً على نوال دخول بيت حماها في أيام الأسبوع الأخرى أو لمس أيّ شيء يخصّها. وكانت في يوم التّنظيف تقوم بمراقبتها والوقوف قرب الباب ريثما تنتهي من عملها!

بعد وفاة "نورية"، وانقضاء أربعينها، زرت نوال لأساعدها في توضيب البيت والأغراض التي ستوزعها على الفقراء، ارتمت نوال على سرير حماها وتمرّغت بصوف اللحاف النّاعم مراراً وابتسمت ابتسامة ملتبسة ما بين النّصر والشّفقة، قلت لها: "عين نورية تشوفك". قالت بتشفٍ لم تُخفِه: "لم يعد هناك عين ترى"! لم تكن

من الوضاعة بحيث تكمل الجملة كما كانت تفعل سلفتها زوجة وليد حين قالت: "لجهنم الحمرا". لقد تخلّصت من حماها أخيراً ومن الوسواس الذي أفسد عليها حياتها منذ زواجها. يومها فتحنا صندوق نورية، تملكتني الرهبة وأنا أرتّب أغراضها وأشاهد صورها وصور الأولاد.. حينها وقعت صورته في حضني، زلزلت كياني وأنا أقرأ ما كتبه بخط يده خلف الصورة: (إليها.. تلك التي ستبقى الروح سكناها وإن فارق الجسد الحياة.. اللاذقية/1950/ الشارع.. 24 شمالاً!).

نظرت ناحية نوال لأعرف إن كانت رأتني وأنا أخفي الصّورة في حقيبتي، فرأيتها تتواطأ معي بأن أدارت رأسها إلى الجهة الثانية. ولم تكتفِ بذلك بل دعتني يومها إلى مقهى سبيرو لتناول مشروب ساخن. لم أعرف لحظتها أنّها دعتني لمقلب ساخن.. فقد فوجئت بعد دقائق من وصولنا بدخول رشدي إلى المقهى ولم أكن أعلم أنّه قد عاد إلى اللاذقية.

كانت المسافة الفاصلة بين كأسينا على الطاولة مزروعة بارتعاش أصابعنا وكلماتنا المتعثرة وارتباكنا، أردت أن أخبره أنّ القلب مازال كما هو ينبض باسمه وأنّ الرّوح كما تركها في الشّارع الخالي يوم عرس سميرة، وأنّي...

لكنّي لم أجرؤ، ليس لوجود نوال أيّ علاقة في ترددي وخوفي بل شيء غامض ينتصب كأسلاك شائكة بيننا كلّما حاولنا كسر الحواجز والتّقدم نحو بعضنا.. شيءٌ يدركه الجسد فيحافظ على المسافة الآمنة، وترفضه الروح فتنصهر في بوتقة واحدة غير آبهة بالزمن والمسافات.

حين خرجنا من المقهى لامتني نوال على تردّدي وكادت توبخني لأنّي أضعت الفرصة الأخيرة الّتي منحتني إياها لأتزوج رشدي. ربّما لم تفهم نوال طبيعة الحبّ الذي يربطني به، ربّما لم تـــدرك أنّـــي لم أضع الفرصة بل اغتنمتها للمحافظة على حبّه، فقد كنت على يقـــين أنّ أيّ ارتباط به من أيّ نوع سيدفن حبنـــا إلى الأبـــد. لا أدري إن كانت تلك الفكرة الحمقاء التي منعتني من الارتباط به، قـــد فوتـــت عليّ فرصة العمر كما قالت نوال!

لم أرَ نوال بعد تلك الزيارة حتّى رحـــل عبـــد الله في نهايـــة التّسعينات، كان صائماً أواخر رمضان والراديو قرب رأسه يســـتمع إلى مسلسل "فين عيونك يا نوال" من إذاعـــة الشـــرق الأوســـط.. وصلها صوت الشارة وهي في المطبخ، دمعت عيناهـــا ومســـحتهما بطرف ثوبها ونور الشّريف يقول: "فين عيونك يا نـــوال؟ 30 ســـنة اتغير فيهم حاجات كتير وأحاسيس كتير.. اتشال من الخريطة بـــلاد واتحط بلاد، لكن الشّيء الوحيد اللي ما تغيرش في التلاتين سنة دول هو حبـــي ليكِ يا نوال". وسمعت مباشرة صوت ارتطـــام الراديـــو بالبلاط.. ركضت بلهفة فوجدته على الأرض بجانب الراديو وعيناه شاخصتان صوبها.

لم تكن ثلاثون سنة التي عاشاها معاً بل أربعون مرّت وانتـــهت كأنّها لم تكن ولم تشأ نوال أن تزيد عاماً بعد وفاته في حياتها فقـــد أسلمت الروح قبل سنوية عبد الله، وأغلق باب الدّار بالقفل بانتظار عودة رشدي!

...

نهاية الحكواتي

...

كان وليد منذ نشأته مولعاً بشخصية الحكواتي التي كـثيراً مـا قلّدها في سهراته مع رفاقه على الشّاطئ البعيد في ليالي الصّيف أو في جلساتهم الخاصة في مقاهي الشّيخ ضـاهر. ولشـدّة حبّـه لتلـك الشّخصية اشترى في السرّ "ساكو" قصير وقنباز مخطـط وطربـوش أحمر، وكان في تلك الليالي يحمل "خيزرانة" بيده يلوّح بها مثلما يفعل فارس بسيفه، ويقلّد الزير أبو ليلى المهلهل، أو عنترة العبسي.. وقـد حفظ قصتهما غيباً، بينما كان الحكواتي يقرأ في كتابـه القـديم ذي الأوراق الصّفراء! وكانت أمّه تغضب من تصرفاته وتتشـاجر معـه ويعلو صوتها فيسمعها الجيران وهي تقول: "آخرتك مثل الخبّـاص، ستدور على المقاهي وتشحذ لقمتك من مهنة بائسة". لكنّ "وليد" لم يكن يرى الخبّاص شخصاً سيئاً كما تصوره أمّه بل يراه فناناً عظيماً أسّس لفن المسرح والتّمثيل في اللاذقية بالإضافة لكونـه حكواتيـاً ماهراً.

في مطلع شبابه اشترى وليد راديو خاص وضـعه في غرفتـه.. وكان كبير الحجم ذو إطار خشبـي وله "هوائي" عبارة عن سـلك نحاسي يرفعه إلى أقصى طوله ويضعه قرب النّافذة ليلـتقط الإشـارة

جيداً! أما مؤشر الراديو فكان دائماً يقف على محطة القاهرة دون باقي الإذاعات التي ثُبِّت اسمها بالعربية على "المينا"،[1] فقد جذبته اللهجة المصرية وكانت بالنّسبة إليه أجمل من تلك اللهجة الجادة والحيادية التي تتميز بها محطة لندن أو برلين أو حتّى إذاعة دمشق. دفء غريب في الأصوات وغرام بسهرات كلّ خميس التي كانت تحييها أم كلثوم. وتبدّل ذلك الولع مع التّطورات التي طرأت على اللاذقية، وقد حاول أن يشارك "خالد الكراكيزي" الذي أدخل فن خيال الظلّ على المقاهي، وكان يرفض أن يشاركه في عمله أحد، بدءاً من رسم الشّخوص على الكرتون وقصها وزخرفتها إلى عرضها، بالإضافة إلى براعته في تقليد الأصوات حتّى أصوات الحيوانات واتقانه لهجات المدن الأخرى.

لم ينجح المشروع لعدة أسباب منها تفرد الكراكيزي في فنه وعدم رغبته بمشاركة أحد في إبداعه ومزاجية وليد الذي لم يكن بالأصل فناناً، لكنّه اعتقد أنّ لديه القدرات الكافية لخوض غمار هذه التّجربة! وقد شجعه على ذلك تجربة الأخوة سبيعي في صناعة الأفلام الصّامتة، تخيّل أنّ الأمر لا يحتاج لأكثر من كاميرا ومعدات بسيطة وأشخاص يقومون بالتّمثيل.. لكنّه أيضاً لم يفلح في هذا المجال الذي اقتصر فيه دوره على تجربة بائسة أمام المرآة و لم يكن لديه جمهور سوى ظلّه!

كان تعلّقه بالسينما تعلّقاً مَرَضياً، و لم يكن يفوّت عرضاً بعد أن شاهد لأوّل مرّة فيلم "عودة أيلول" لروك هيدسون وجينا لولو بريجيدا، وكان أوّل عرض لسينما أوغاريت. ثمّ تنقّل بين صالات

---

(1) اللوحة الزجاجية.

السّينما، وقد استهوته عروض سينما "كايرو" الصّيفية التي تميّـــزت بذكاءِ الدّعاية لأفلامها وذلك بإغراءِ أصحاب السّـــيارات بتـــذاكر مجانية لقاءِ إيقاف سياراتهم قريباً من السّينما، كي يتوهم النّـــاس أنّ العرض جيد وأنّ الأثرياء يحضرونه!

لم يكن وليد يحبُّ الدّراسة مثل شقيقه رشدي بل على العكـــس تماماً شاء أن يدخل مجال العمل في سن مبكرة خاصة وأنّه نشأ يتيمـــاً في بيت غني، لم يعمل مثل أبيه على الشّاحنة بل شارك سائقاً محترفاً ليعمـــل عليها وباع الأرض التي تملكها العائلة وعمل في التّجارة. ثمّ فتح مكتبـــاً للاستيراد والتّصدير وصارت الشّاحنة الواحدة عشر شـــاحنات تعمـــل على خط بيروت اللاذقية، وخلال سنوات صارت حكايته مع السّـــينما والتّمثيل ومواهبه طي النسيان، ولم يعد يفكر حتّى بحضور فيلم فلم يكن لديه الوقت الكافي لذلك. شاع في الحي أنّ "وليد" يعمـــل بالتّهريـــب فكانت الجارات جميعهن يوصونه على أدوات منزلية أجنبية غير موجودة في اللاذقية، وكان وليد أوّل من أدخل أواني "الألمنيوم" إلى الحي وتباهت بها نورية أمام الجارات إذ كانت غالية السّـــعر في ذلـــك الوقـــت ولا يستطيع الحصول عليها إلا الأغنياء فهي نادرة الوجود. وقـــد أهـــدت نورية لجاراتها أكواباً من الألمونيوم لها مقبض قمن بربطه بسلك إلى يـــد "خابية" الماءِ ووضعنه فوق الغطاءِ واستبدلن بـــه الكـــوب الفخـــاري وأكواب الميلامين الملونة التي كنّ يستخدمنها حتّى أوائل الخمسينات.

تزوج وليد في سن مبكرة تحت إلحاح أمّه، فقد كانت ترغـــب برؤية حفيد رفض رشدي أن يمنحها إياه بحجة الدراسة وهي تـــدرك السبب الحقيقي فمنذ صارحها برغبته في الزواج مني ورفضها للأمـــر جملة وتفصيلاً قرّر ألا يتزوج أبداً.

لكنّ زوجة وليد رفضت أن تسكن مع حماتها واستقلت في بيت خارج الحي.

رزق وليد بولدين ذكرين كبرا في غفلة منه ووجدهما فجأة شابين يرفضان الدّراسة والعمل أيضاً! وعملاً بالمثل القائل "إن كبر ابنك خاويه" لم يترك وليد ابنيه لرفاق السّوء والتّسكع في المقاهي والحانات، عاد شاباً يرافقهما في سهراتهما بدءاً من المقاهي الشّعبية في ساحة الشّيخ ضاهر وحضور أمسيات الحكواتي إلى حضور حفلات السّينما ومشاهدة "كراكوز وعواظ" إلى مقهى سبيرو وشناتا إلى المسابح حتّى شعر بالتّعب والملل من ملاحقتهما ومجاراتهما فيما يفعلانه. وفي جلسة ودية حاول إقناعهما بالعمل معه، وزيّن لهما أهمية أن يحسا بجني المال والحصول عليه لا أن يقوما بصرفه فقط.

اقتنع الشّابان حين عرفا أنّ والدهما سيجعلهما شريكين معه في تجارته وأنّهما سيسافران إلى بيروت ويعقدان صفقات هناك ويعودان. وتحقّق حلمهما في السّفر والسّهر وكسب المال.

...

ليس غيرة من سلفتها طلبت نوال من عبد الله أن يشتري لها "تلفزيون" تتسلّى بالفرجة عليه في وحدتها حين يغيب عن البيت، وكان أوّل تلفزيون يدخل الحي..

مع ذلك لم يحتل تلك المكانة لدى النّساء، لكنّ الصغار كانوا أكثر انجذاباً لتلك البلورة المدهشة خاصة وصال كانت متعلّقة بمشاهدته، وكانت تتسلّل من اجتماع النساء عند جدتنا رقيّة وتذهب لعند نوال بأيّ حجة صغيرة لتتفرّج على الأفلام التي يبثها

التلفزيون، وقد عادت مرّة وهي تبكي، شاهدت يومها فيلم "لحن الوفاء، لعبد الحليم وشادية"!

كانت وصال مغرمة بالأغاني التي تتحدّث عن السّفر، تحفظها وتغنيها وهي تقوم بأعمال المنزل.. وكانت أجمل تلك الأغاني التي سمعتها منها "يا مسافر وحدك" لمحمد عبد الوهاب. وقد حفظتها وهي صغيرة من "أبو خيرات الفاروسي" صاحب الصّوت الجميل الذي يحفظ أغاني عبد الوهاب كلّها، وكان يجلس قريباً من "سيبانة" النساء في بساتين الخس عند دوار هارون تحت القلعة ويغني فتسمعه النّساء بخشوع، ويرسلن إليه الأطفال لطلب المزيد.. وقد تعلّقت وصال بصوت الفاروسي وحفظت عنه معظم الأغاني قبل أن تصبح صبية وتشتري راديو ترانزستور خاص بها تستمع منه إلى الأغاني والمسلسلات والبرامج وحفلات شم النسيم.

كان يجوب البساتين المحيطة بالقلعة ويجلس قرب حاووظ الماء، أذكر أنّ جدتي رقيّة كانت تزور شقيقتيه وأخذت معها وصال وهي طفلة لثقب أذنيها عند شقيقته التي تقيم في حي القلعة. لم تتزوج إحداهما كما لم يتزوج أبو خيرات، كان عالمه الخاص غامضاً وغير معروف على الرغم من أنّه كان ودوداً ومحباً للناس ويملك صوتاً جميلاً لا يتناسب مع شكل رأسه المحلوق على الصفر دائماً وفمه الخالي من الأسنان عندما تجاوز السبعين من عمره لكنّه بقي محافظاً على صفاء الصوت ورنينه العذب.. كانت أغاني عبد الوهاب تستهويه كما تستهوي معظم سكّان اللاذقية، وحين يمر في السّوق يستضيفه أصحاب الدكاكين ليغني لهم "ياوابور قلي، ويادنيا يا غرامي". وكان صوته الجميل يملأ فضاء السّوق فيصل إلى معظم

الدكاكين وهو جالس في محل مصباح حمادة بائع الأحذية العاشق لعبد الوهاب في محله الكائن قرب سينما أوغاريت في شارع القوتلي. وكان يضع في صدر دكانه صورة كبيرة لعبد الوهاب. يجلس الفاروسي أمامها يتناول فطوره، ثمّ يعلو صوته بالغناء.

حين غاب عن الحياة، لم يتوقف صوته عن التسلّل في عتمة شارع القوتلي بعد أن تغلق الدكاكين أبوابها ويترجّل عبد الوهاب من صورته في صدر الدّكان تاركاً الإطار فارغاً متأبطاً ذراع الفاروسي، حاملاً عوده، ومع صوت الموج يسمع سكّان الحي في هدأة الليل نغماً حزيناً قبل أن ينطلق صوته عميقاً وشجياً، متسائلاً بنبرته القلقة: "عندما يأتي المساء/ونجوم الليل تنثر/اسألوا لي الليل عن نجمي/متى نجمي يظهر؟

... كلُّ نجم راح في الليل بنجم يتنوّر غير قلبي فهو ما زال على الأفق محيّر".

...

خيمة الحنان

...

هو الحبّ الذي كسر قلوبهنّ في جميع الأزمنة التي مرّت على الحي، في الزمن الأوّل زوجٌ غاب عن الدّنيا، وفي الثاني ولد سافر و لم يعد، وفي الثالث جيلٌ غيّبته المعتقلات.

المعتقلات! القاسم المشترك بين صديقاتي اللواتي جلسن يوماً أمام صندوق حسن الهوّاش ليتفرّجن على فطوم المغربية و لم يحببن رؤية الشّياطين، في ذلك الوقت كنّ خاليات البال و لم يخطر لهنّ أن يأتي الزمن الذي يتحوّل فيه البشر إلى شياطين يجرّون أبناءهن من بين أيديهن إلى حيث التّعذيب والغياب والقتل.

لقد كانت جدتي رقيّة محقة حين وصفت ميلادنا بسنة الكوارث "عفراء وحياة وفاطمة وليلى ودعد وأنا" بنات الحي وصديقات الطّفولة والدّراسة، وغابت أخبار وسيلة بعد انقطاعنا عن المدرسة. لكنّ الدار التي تعتلي التلّ قرب دوار هارون أصبحت تعرف اليوم بدار وسيلة ولا أعرف السّبب!

الثمانينات الزمن الذي رأت حفيدتي وداد فيه النّور بعد أن تزوجت وصال من شاب فلسطيني كان جارنا في المخيّم، و لم يكلّل زواجها بالسّعادة، بدأت المشاكل قبل أن تلد وداد وانتهت بالطلاق

وعادت إلى البيت تحمل خيبتها وترضع ابنتها حليباً ممزوجاً بالدّموع والقهر. وثبت المثل، فلم يختلف حظها عن حظي قيد شعرة وكيف سيختلف وهي حفيدة سعدى!

...

حين وصلت حياة إلى الحي مساء السّابع من آذار 1980 لم يكن الشّارع يفضي إلى القلب.. شعرتْ بغربة الأبواب المغلقة، نظرت يساراً كان باب أم رشدي مغلقاً، ولمحت صباح تخرج من باب السّرايا وتنزل شمالاً من دون تحية! ألم تعرفها؟ أم أنّ صباح لم تعد تهتم لذلك الزمن الذي كان فيه الراحلون يخيمون بذراع الحنان فوق سقفه ويجمعون الأولاد تحت خيمة الجيرة التي تعلو على مرتبة الأخوة؟ غصّت بريقها، والتفتت يميناً، لقد حلّ مكان بيت أم محمّد بناية عالية بطوابق لم ينتهِ العمل بها.. طرقت باب أوّل بيت في الطّابق الأوّل.. فتح شاب في العشرينات ما لبث أن صرخ: "أمّي، تعالي خالتي أم ياسر بالباب.. من زمان يا خالتي، اشتقنا لكِ". حمل "علي" الأغراض عن حياة وأدخلها الصالة وجاءت رمزة مسرعة ترحّب بها وتعانقها بلهفة والأسئلة تتدحرج ككرة بينهما من دون أن تتركا لها فرصة الحصول على جواب..

مضى زمن ليس بالقليل منذ آخر مرّة رأتا بعضهما فيه، وكانت أخبار فترة الانقطاع تملأ فضاء الغرفة وأسماعهما ونبضات قلبيهما فلم تنتبها للوقت الذي رمى فجأة ظلّ المساء من النّافذة.. وقفت حياة تريد المغادرة، لكنّ رمزة حلفت أيماناً مغلظة أنّها لن تنام عند أحدٍ غيرها. وعدتها حياة بالعودة بعد أن تمرّ على شقيقتها بعض الوقت فلا بيت آخر تنام فيه!

لم يخطر ببال حياة حين توجهت صباحاً لزيارة فاطمة صديقة الطّفولة والصّبا أنّها ستفاجأ بخبر اعتقال ابنها خالد.

كانت فاطمة بعودها النّحيف جالسة على كنبة في زاوية الصالة تحفر الباذنجان والكوسا وترميه في سلة تكاد تمتلئ وكأنّها تستعد لإقامة احتفال. فوجئت بحياة حين فتحت ابنتها باب الصّالة المؤدي إلى بسطة الدرج.

نهضت فاطمة بصعوبة وهي تنفض حرجها من آثار الخضار، سلّمت على حياة بلهفة وفرّت الدّمعة من عينيها. قالت لتتحايل على اللحظة العاطفية السّاخنة والمربكة: "الأولاد كانوا البارحة في المشروع، وقطفوا بواكير الخضار فأحببت أن أطبخ لهم محاشي، حماتك تحبّك، ستتناولين الغداء معنا اليوم". انتبهت حياة لذلك الارتباك في حركات فاطمة وصوتها، تناولت الطبق الكبير وراحت تنقي أعواد البقدونس وترصفها في باقات من دون أن تعلّق، لكنّها لم تصمت طويلاً، فاجأت نفسها قبل فاطمة بسؤال مباشر: "من السّبب؟ أبو الأولاد؟". انفجرت فاطمة بالبكاء فجأة ونهضت مغادرة الصّالة، وعادت وهي تحمل صينية القهوة وقد غسلت وجهها وسرّحت شعرها، وضعتها أمام حياة وأشعلت لها سيجارة، وقالت وهي تحاول التماسك: "دخّني، لا بد ما تفرج". كبرت مساحة التوتر بينهما وفاطمة تشرح لحياة السّبب الحقيقي لدموعها، لقد اعتقلوا ابنها خالد.. صعقت حياة، حاولت التّخفيف عن صديقتها ولم تجد الكلمات المناسبة. قالت من دون تفكير: "لماذا لا تذهبين للتوسط له عند شقيقة عبد الفتّاح، كانت معنا في المدرسة الابتدائية، قد تخدمك هذه الخدمة". قالت فاطمة: "عبد الفتّاح يعمل في

المخابرات العسكرية بإدلب لا أظنّ أنّه يستطيع أن يعمل شيئاً لخالد، ثمّ أنت لا تعرفين نفسية سلمى من يوم صار أخوها مديراً للمخابرات، حتّى لو كان الأمر يتعلق بخالد لن أكسر نفسي لها". قالت حياة محاولة إيجاد منفذ آخر: "أذهب معك لعندها كانت صديقتي، وعبد الفتّاح معرفة قديمة وجار". أشاحت فاطمة برأسها دلالة على الرفض، وقالت: "لن تفعلي، لن نذل أنفسنا أكثر". تنهدت حياة وقالت: "طيب، ما رأيك أن نذهب لعند أم زكور أَأَعْ؟ هؤلاء جيراننا أيضاً من الطّفولة وابنها زكريا ما شاء الله يده لا ترد في دوائر الأمن، وعلاقته الشّخصية ببيت الأسد قوية". غصّت فاطمة وهي تقول: "رحت لعنده، قال لي بالحرف "إذا يده اليمين بتخون الحزب بيقطعها" وابني بيستاهل الحبس لحتى يتربّى وما يتمرد على أسياده". كانت حياة قد أنهت فرم البقدونس والبندورة والبصل وعصرت فوقهم الليمون ووضعت الملح والنعنع والفليفلة اليابسة المطحونة وزيت الزيتون، والتفتت صوب فاطمة التي حضّرت البرغل المحمّص بالزيت وأضافت عليه البهارات والفليفلة وقليل من اللحمة المفرومة والحمّص المسلوق، وقالت: "ذكّرتيني بأم بشير الله يرحمها، لما كنّا صبايا وكنّا مجتمعين يوم الجمعة متل العادة على الغدا وأمّي تطبخ هذه الأكلة.. تذكرين كيف كادتا تتشاجران حين قالت أم بشير إنّ أهل حلب يطبخونها بطريقة أفضل ويضعون مع الحشوة دبس الرمان ولا يضعون حمّص، يومها قالت أمّي إنّ البرغل يصبح أسود ومخبوص وطعمه غير جيد". ابتسمت فاطمة: "نعم أذكر يومها ستي رقيّة وبّخت أمّك وقالت لها: "يكفي مشاجرة ماذا حدث لكنّ الطّعام أذواق وعيب أن تقولي على طعام غيرك ليس طيباً، المفروض

أن تقولي أنّك اعتدت على طعم ما تطبخينه، مجرد اعتياد فقط وذوق شخصي لا يقلّل من ذوق الآخرين". هزّت حياة رأسها موافقة: "فعلاً الطّعام اعتياد، عندما كنّا صغاراً كان محشي الباذنجان بالبرغل بالنّسبة لنا أكلة ملوكية و لم تكن ستي رقيّة تضع فيه لحمة، كان النّاس يخترعون أطعمة غير مكلفة بسبب الفقر بعد الحرب العالمية.. وبعد الاستقلال وتحسن أوضاعنا المعيشية صدّقيني لم أستسغ إضافة اللحمة للمحشي لمدّة طويلة وكنت أفضّله مطبوخاً بالزيت سواء كان بالبرغل أو بالأرز.. وإلى الآن أحبّ تناول "اليالنجي" أكثر من اليبرق.. مع أنّ الفارق بسيط بينهما أحدهما باللحمة والأرز والثاني بالأرز والزيت والبهارات.. ربّما البهارات هي السّبب مع دبس الرمان بالمرق أولادي يحبون البطاطا التي أرصفها تحت اليالنجي أكثر من ورق العنب بكثير".

صمتت فاطمة قليلاً، ثمّ قالت: "زرتِ عفراء؟". ردّت حياة متسائلة: "ليس بعد، خير، هناك مصيبة أخرى؟". قالت فاطمة: "اعتقلوا ابنها عصام بعد يومين من اعتقال خالد".

اصفرّ وجه حياة و لم تستطع أن تعلّق بكلمة.. ما الذي يحدث بالضبط؟ أيّ لعنة حطّت على رؤوس صديقاتها؟ تابعت فاطمة: "أكيد عم تسألي حالك ماذا حدث لنا؟ أحياناً أتخيلنا عندما كنّا صغيرات وأرانا نتفتل في شارع القوتلي، والشّباب يختلسون النّظر إلينا وهم يتشاغلون بتقليب بضاعة في إحدى الدكاكين، وأتذكّر جلستنا أمام صندوق الدّنيا، ومشاويرنا لعند وسيلة، الفاروسي وبساتين الخس وريحة زهر الليمون، آخ لو أنّ الزمن توقف هناك و لم يتقدّم بنا أبداً". عقّبت حياة بآخ طويلة وصمتت.

....

كانت زيارة حياة لأم عصام أشدّ وطأة وأقسى على قلبها من زيارتها لأم ربيع.. فعفراء لم يكن عندها صبي آخر غير بكرها عصام الذي أنجبت بعده بسنة بنتاً وتوقفت عن الإنجاب.

حين دخلت حياة إلى غرفة الضيوف كان البيت صامتاً صمت القبور لا يدل على أنّ سكّانه أحياء! لكنّها توقعت أنّ أم عصام وحيدة في البيت، بعد أن شربت القهوة بدقائق لمحت طيف فتاة تمرق بسرعة من الممر وتدخل إلى إحدى الغرف.. الفتاة المحجبة التي ترتدي معطفاً طويلاً كحلي اللون أدارت وجهها جهة الحائط كي لا تقع عيناها على الزائرة. تساءلت حياة باستغراب: "عندك ضيفة؟". ردّت أم عصام بارتباك: "لا، هذه ابنتي عهد".

لم تعقّب حياة فقد شعرت أنّ صديقتها محرجة من تصرف ابنتها.. ولاحظت بدهشة كيف نهضت أم عصام بسرعة وتوارت في المطبخ وسمعت صوتها تتحدّث إلى ابنتها، وفهمت أنّها تلومها على تصرفها وتطلب منها أن تدخل وتسلم على أم ياسر، لكنّ الفتاة رفضت!

عادت أم عصام وهي تحمل صينية رتبت فيها صحون الفواكه والحلو وابتسمت وهي تعتذر: "لا تؤاخذيها، بصراحة يا أم ياسر البنت تحرجني دائماً ولا أعرف كيف أتصرف معها. تقبلت رفضها لمقابلة الخاطبات، ورفضها للزواج وللخروج إلى الأماكن العامة، لكنّها تتمادى كثيراً حتّى في التّعامل معي ومع والدها، وتتهمنا بالضلال والكفر أحياناً وتقاطعني أسابيع طويلة إن خرجت من البيت بملابسي المعتادة وتطالبني بأن أشتري عباءة فضفاضة وحجاباً مثلها.. كلّ هذا في كفّة والجرابات السّميكة التي تلبسها تحت ملابسها في

الحرّ بكفة.. والله تعبت ولا أعرف ماذا أفعل معها". تمتمت حياة في محاولة لتهوين الأمر على صديقتها: "الله يهديها".

كان عصام في السّنة الثّانية بكلية الهندسة، وكانت عفراء ترسم مشاريع كثيرة في مخيلتها للمستقبل الذي ستراه فيه رجلاً يملأ الدّنيا عليها وأباً تفرح بأطفاله، خمس سنوات مرّت حتى استطاعت أن تعرف أنّ وحيدها في سجن تدمر.. ولم تترك باباً لم تطرقه كي تستطيع زيارته. أخيراً اهتدت لسؤال وليد الذي عُرف في البلد بعلاقته الوثيقة بأبناء جميل الأسد وشراكته مع آل مخلوف في التّهريب، وكان اللقاء مع وليد صعباً جداً لانشغاله الدّائم، لكنّ أم عصام ألحت في لقائه ووعدها خيراً. ثمّ جاءها بالخبر اليقين أنّ بإمكانها أن تزور ابنها لكنّها بحاجة إلى مبلغ ضخم، والمبلغ يجب أن تشتري به ذهباً، وتهديه لوالدة مدير السّجن الذي سيعطيها إذناً بالزيارة.

باعت عفراء حصتها من الأرض التي ورثتها مع شقيقاتها من أبيها، وخلعت أساورها ومصاغها، وقدمته هدية كما نصحها وليد وظفرت بورقة تسمح لها بالزيارة!

زيارة يتيمة لم تتكرر، ليس لأنّ عصام رفض أن يتكلّم كلمة واحدة عن وضعه أثناء الزيارة، وليس لأنّه طلب منها ألا تزوره ثانية، ليس لأنّ الشّاب النّحيف الأخرق الذي وقف أمامها وهو يرتجف وعيناه زائغتان لم يكن يشبه ابنها الذي خطفوه من بين يديها منذ سنوات خمس بل لأنّها لم تكن تملك مالاً ولا عقاراً سوى الشّقة التي تسكنها في عمارة حديثة في مشروع الصليبة وكانت مستعدة لبيعها لأجل خاطره مع أنّها الشّقة التي اشترتها لأجله أيضاً كي يتزوج فيها ويملأها أولاداً!

لم تكن عفراء بحاجة لزيارة عصام في السّجن، فقد كانت روحها تغادرها يومياً في التّاسعة مساء ولا تعود إليها قبل التّاسعة صباحاً.. كانت تلك الرحلة الشّاقة وسط زوابع الصّحراء ترهق روحها، وتفصلها تماماً عن كلّ ما حولها بمجرد أن تتكئ على الأريكة في الصّالة الصّغيرة بعد صلاة العشاء وتغفو في مكانها يدرك زوجها وابنتها أنّ عليهما تركها كما هي ومغادرة المكان. كانت ابنتها في الأيام البـاردة تغامر وتضع فوقها غطاء سميكاً ولا تجرؤ على تدثيرها به بشكل محكم خشية أن تستيقظ مرعوبة كما حصل معها أكثر من مرة.

تشعر عفراء بالخطوات الخفيفة المنسحبة من الغرفة، تشعر بالعتمة المخيّمة على المكان وتتلاشى الأصوات الخارجية ويتعاظم شعورها بالخفة حتّى تفقد إحساسها بجسدها، وترى نفسها داخل حافلة تقطع صحراء ملتهبة تتطاير الحصى السّاخنة حول عجلاتها وتصيب زجاج الشّبابيك فيتحطم مُحدثاً دوياً والحافلة لا تتوقف، ينغرز الزجاج في ساعديها ولا ترى قطرة دم.. يتابع السّائق حديثه اللامبالي مع معاونه ويرفع صوت المسجل الذي يطرق أذنيها بكلمات مبتذلة لمطرب شعبي، تسدُّ أذنيها، لكنّ الصّوت العالي يتسرّب إلى جسدها يخضّه خضاً عنيفاً لم تدرك أنّه بسبب حفر في الطّريق فعيناها المغمضتان كانتا عصيتان على الفتح، كانت تشدّ جفونها كي تبصر حولها من دون جدوى.

من أصوات الصّرير المفاجئ للباب الحديدي الضّخم عرفت أنّها أصبحت في السّجن، كانت تعبر ساحته الواسعة وسط حرارة لاهبة تشعر بها تأكل لحم قدميها الحافيتين.. لا تعرف متى وأين خلعت حذاءها، لكنّها منذ زارته للمرّة الأولى لم تعد تجد حذاءها، صارت

ترى نفسها تجوب الأزقة حافية تحاذر أن تدوس مخلّفات الدّكاكين من مسامير النّجارة إلى الزجاج المكسور إلى سدادات قناني العصير والمشروبات الغازية.. لم تكن ترَ وجوه المارة.. فقط أحذيتهم وقدميها الحافيتين!

..

لم يمضِ على عودة حياة إلى أريحا سوى أقل من شهر حتّى أحاطت قوات رفعت الأسد بالبلد من مداخلها الثلاث بالدّبابات، وأنزلت المروحياتُ الجنودَ فوق الجبل، ومُشّطت البلدة، وأُفرغت من الرجال، واعتقل زوجها وولديها حمزة وعبد الغفور.

لم يكن ياسر في البيت و لم تعرف مصيره حتّى بعد مضي أشهر على غيابه وخروج أخويه من المعتقل.. كانت واقفة في الشّرفة حين مرّت الدّبابات تسحب وراءها جثث الشّباب الذين قتلتهم الوحدات الخاصة في الجبل.. كان قلبها فارغاً وروحها بعيدة، وعيناها لا تبصران سوى الأجساد المعلّقة والمرمية فوق الشّاحنات.. شباب مثل الورد، همست: "يا قلبي". و لم تدرك ساعتها أنّ قلبها وبكرها كان بين تلك الجثث، صرخ أحد الجنود بها لتدخل وإلاّ سيكون مصيرها مثلهم وأشار بيده إلى جثثهم وقهقه طويلاً.

دخلت وواربت باب الشّرفة وصارت تعدّ الدبابات والشّاحنات وتحاول أن تلقي نظرة وداع على أجساد كانت منذ دقائق تنبض بالحياة وتخطط للمستقبل.

بعد مرور ستة أشهر خرج زوجها من المعتقل بعده خرج عبد الغفور وبقي حمزة قرابة السّنة، حمزة الذي أخبر أمّه بالحقيقة وأخذ العزاء بياسر.

لم يكن من السّهل عليها استيعاب الكارثة على الرغم من مواجهتها للأمر في البداية بصلابة نادرة جاءها من التّسليم بنصيبها في الحياة وإيمانها أنّ كلّ شيء مُقدّر ومكتوب لكنّ الشّيء الرهيب الذي لم تستطع تقبّله ولا تحمّله ألا يكون لياسر قبر تزوره كلّ يوم وتزرع الريحان فوقه وترويه بالماء ودموع القلب.

بقي حمزة حتّى وفاته يعاني من أثار التّعذيب على جسده، ومن صداع لم يفارقه يوماً حتّى لحظاته الأخيرة. وأصيب عبد الغفور بنوبات ضيق في التّنفس كانت تقترب من الذبحة الصّدرية وفقد حياته بها. وحافظ زوجها على سرّ ما جرى له في الاعتقال فلم يتحدّث عنه مطلقاً أمام مخلوق حتّى وفاته.

...

الموت المباشر على أيدي العصابة التي استولت على الحكم أحدث جرحاً عميقاً في ذاكرة سكّان الشّيخ ضاهر لم يكن مقتل سهام أوله ولا آخره. فقد صحا النّاس في الحي في أحد أيام الربيع الماطرة في أوائل الثمانينات على خبر وجود جثة امرأة مقتولة في شارع القوتلي.. وكان من الصّعب التّعرف عليها بسبب آثار التّعذيب والتّشوهات الّتي طالت وجهها وجسدها. من الواضح أنّها تعرضت لحروق شديدة قبل أن تقتل بالرصاص. ولم يجرؤ أحد على الاقتراب منها وحين جاءت الشّرطة قُيّدت الحادثة ضدّ مجهول ولم يخرج في جنازتها سوى ثلاثة أشخاص أحدهم كان يصطحب كلباً مرقطاً عرف في الحي بأنّه من عشاق فريد الأطرش في شبابه، وثانيهم كان الرجل البسيط أبو علي الخربوطلي، وثالثهم كان مجاهد أفندي "أبو عيطة" بالإضافة إلى حفّار القبور.

ثمّ تتالت حوادث خطف البنات والقتل ولم يكن مقتل وليد آخر تلك الحوادث.

حين وجد وليد مع ابنيه مقتولين في شقتهم التي حولوها إلى شركة استيراد وتصدير بعد أن بنى فيلا على طريق دمسرخو.. كان المكتب خاوياً من كلّ شيء الخزنة والأوراق والوثائق وسندات الملكية حتّى ملكية البيت، وبعد أيام اختفت الشّاحنات العائدة لوليد واختفت معها أرصدته في البنوك وعقد ملكية البيت الأوّل على اليسار في الشّارع 24 شمالاً.. كان الباب مغلقاً وعليه قفل ختم بالشّمع الأحمر!

***

حدّقت طويلاً في صندوق جدتي، الصّندوق كان يحوي عدّة مغلفات مرتبة على جانبيه، ألبومات الصور في جهة والدّفاتر في جهة. بدأت بتصفح الألبومات، لم أجد من طفولة جدتي وداد سوى صورة بالأسود والأبيض يبدو فيها رئيس الدّولة السّورية شكري القوتلي وأخرى صغيرة جداً مصفرّة الحواف غير واضحة الملامح، وعدّة صور في أوائل السبعينات مأخوذة بكاميرا ملونة لا تظهر فيها سوى ألوان باهتة تقف في إحداها على الكورنيش وأخرى في مدخل مقهى العصافيري وواحدة مع أمّي وعمرها عشر سنوات.. هذه هي حصيلة صور جدتي..

كتبت في أحد دفاترها: "في حزيران 67 "مرّ هذا اليوم العصيب على خير بالنّسبة لي على الأقل لكنّه جعلني أفكّر جدياً بحرق كلّ أوراقي وصوري، لمن سأترك هذا الإرث الثقيل؟ في

الحقيقة لا أريد أن يقرأ أحد بعد موتي ما كتبته إليه.. ما كتبته يخصه وحده وعلى الرغم من يقيني أنّه سيصل إلى أوراقي هذه يوماً لكنّي أخشى أن يكون ذلك بعد فوات الأوان!

خفت اليوم أن يكون مصيري مثل مصير أم بشير الريحاوية التي توقف قلبها فجأة عند باب دارها عندما اخترقت الطائرة الإسرائيلية جدار الصّوت. خفت أن أموت في الشّارع من دون أن أمحو من ذاكرة الورق ما يمس حبنا. ثلاث صور لم أستطع حرقها، صورتي مع الرئيس القوتلي الرجل العظيم الذي لم يمرّ على سوريا مثله وصورتي التي التقطها لي هوان وعمري خمس سنوات قبل دخولي المدرسة وصورتي مع وصال بالإضافة إلى صور التقطتها لي بأول كاميرا اشتريتها لها.. فهي تعشق التّصوير".

لم يكن هناك الكثير بشأن أمّي وصال سوى الصّور، لم تكتب عنها وداد الكثير ولم تخط أمّي حرفاً واحداً ولكنّها تركت الكثير من الألبومات المليئة بصور الطّفولة وصور الرحلات المدرسية وصور الجامعة والغريب أنّ معظم تلك الصّور لم تكن هي موجودة فيها وهذا يعزز ما قالته جدتي عن عشق أمّي للتصوير فهي لم تترك فراشة ولا نحلة ولا شجرة ولا زهرة أثناء رحلاتها لم تصورها! أما صوري الشّخصية منذ لحظة ولادتي حتّى اللحظة التي رحلت أمّي فيها فلا يمكن أن تحصى. ويبدو أنّها أيضاً كانت تهوى جمع الكاسيتات وتعشق أغاني زمان، قعر الصّندوق كان مرصوفاً بأشرطة كاسيت لكلّ المطربين والمطربات لكنّ عبد الحليم أكثرهم حظاً.. وبين تلك الأشرطة حصلت على شريط غريب لم أفهم لماذا احتفظت به أمّي أو لماذا اشترته أصلاً.. شريط فيه مقاطع من أهم

خطابات عبد الناصر "تأميم القناة، خطاب التّنحي، وخطاب ينتقد فيه حافظ الأسد" كتبت عليه بخط جميل "الرجل الذي لن ينجب التّاريخ مثله، رمز الثورة العربية". ضحكت من قلبي فقد ذكّرني بالشّعار الذي بحت حناجرنا من ترديده في المرحلة الابتدائية "حافظ أسد رمز الثورة العربية!" يا لهذه الرموز التي سلبتنا حريتنا باسم الثورة!

لم تكن وداد لتوافق على خروج وصال في المظاهرات التي تنادي بإسقاط النّظام مهما حدث فقد كان خوفها أكبر من أيّ حريّة أو تغيير بل لم تكن ترغب في أن يتغيّر أيّ شيء حولها فهي منذ تبليط البحر باتت تشعر أنّ المكان القبيح هذا لا يخصها، لقد سرقوا ذكرياتها وأحبتها وضاع منها كلّ شيء وليست على استعداد لتخسر آخر ما يربطها بهذه الحياة. يرجع تاريخ الخوف عند وداد إلى الثّمانينات ولا يرتبط بمصرع وليد فقط بل في التّغيير الحاصل على أبنية الحي.. فمنذ باعت حياة بيت جدتها رقيّة وهدم البيت وقام مكانه بناء اسمنتي يشبه علب الكبريت وهي تغص كلّما اضطرت للمرور في شارع يوسف العظمة وتتحاشى النظر إلى مدخل الشارع 4 شمالاً.

لكنّ القدر شاء أن تكون الأكثر خسارة بين صديقاتها حين استشهدت أمّي أثناء المظاهرات وتهدّم البيت أثناء القصف من البوارج البحرية على الرمل الفلسطيني بعد ليلتين من مغادرتي إياه، ودفن تحت ركامه كلّ العذابات التي عاشتها أمّي وجدتي.

لم أشعر أنّي فقدت شيئاً عزيزاً حين سمعت الخبر.. لم يكن ذلك قاسياً على قلبي بمقدار قسوة رؤيته فارغاً منهما ومن براءة

طفولتي. خيّل إليّ لحظتها أنّ من الطبيعي أن ينهار البيت ويضم ركامه بقايا مَن عاشوا فيه بدل أن يبقى حاملاً ثقل أنفاسهم وحكاياهم وأحلامهم وكلّ اللحظات التي عاشوها بين جدرانه. لكن كيف الخلاص وجزء من تلك الذكريات والأحلام ما زال يرافقني في صندوق خشبي تأبى جدتي التخلي عنه؟

* * *

اليمضية/17/شباط/2015

الخيام الزرق

...

"كنّا نصعد" ليست عبارة مناسبة لطريقنا إلى اليمضية بل كنّا نتسلّق الدّرب حيث تتناثر المخيمات على طرفي الطّريق.. الخيام الزرق المصنوعة من مشمعات لا ترد -في مثل هذا الطّقس القاسي- رياحاً ولا تمنع مطراً من التّسرب إلى الدّاخل، ولا يمكنها أن توقف توحش البرد القاتل، ودبيب الموت المختبئ في التّفاصيل اليومية لحياة المتوارين خلف زرقة المشمعات التي منحتها منظمة "اليو إن" للنازحين من مدن وريف اللاذقية، مشهد خارج من لوحة مجنونة يصنعها العالم العاهر بتقنية واحتراف غير عابئ بكلّ الآلام التي تختبئ داخلها.. العين ترى زرقة تكتسح الجبال الخضراء، خيامٌ كأنّها لكشافة يبيتون لياليهم في التّسلية والمرح ويمضون يومهم في التّسلّق والاكتشاف. لكن هناك وجوه صغيرة لأطفال يختبئون خلف اللون الأزرق وقد غطّى الطّين أكفّهم الصّغيرة وعبثت الرّيح بشعرهم وترك البرد لونه المخيف في بشرة وجوههم مع هذا يمنحون كلّ عابر ابتسامة فضولية مع نظرات فيها من الأسئلة التي لا إجابات لها الكثير، تلك الوجوه تدخلني جحيم الواقع رغماً عني، لأبقى داخل دوامة العبث.. لماذا وكيف وإلى متى؟

ليس من عادتي الهرب من نظـــرات الأطفـــال، ولا تجاهـــل أسئلتهم المتوارية خلف ابتسامات تكاد لشدّة براءتها تجعلني أكفر بكلّ ما هو بشري على وجه هذه الأرض.. لكنّ الكرسي المتحرّك الذي أدفعه بقوة لا تتناسب مع حجم جسدي وتركيبتـــه وســـط الرّيح والبرد والدّرب الذي تحوّل ترابه إلى طين جـــاف تقتلعـــه عجلات الكرسي في كلّ حركة وتنثره حولنـــا مـــنحني فرصـــة التّواري والهرب من مواجهة نظراتهم بأسئلتها المخيفـــة. لكنّـــي لم أستطع التخلّص من إحساسي بالعجز والذنب والخوف حتّى بعـــد عبورنا الحدود ووصولنا إلى ييلا داغ في الطرف التّركي.. حجبت أكفّهم الصّغيرة ضوء الشّمس وزرقة السّماء وغرق كـــلّ شـــيء بلون طيني كئيب منعني من استنشاق هواء الخـــلاص، ورافقـــتني عيونهم بتساؤلاتها حتّى في منامي الـــذي تحـــوّل إلى كـــوابيس لا تنتهي..

...

بالضبط كما جاء في حلمها

ظلّ ذلك الحلم يلاحقها طيلة سنوات ثمّ اختفى فجأةً...

كانت ترى سرب طائرات يحتلّ السّماء وينخفض حتّى يكـــاد يلامس مئذنة الجامع وأسطح المنازل.. وتجد نفسها تهـــبط الـــدرج مسرعة من الطّابق الثالث إلى القبو الذي يشبه ملجأ متعثـــرة ببقايـــا ركام وحجارة كبيرة ومتخطية ما يشبه أطياف أناس تـــدرك جيـــداً أنّهم أموات!

لاحقها منام آخر لسنوات عديدة رأت نفســـها تعـــبر أنهـــاراً تجاورها أنهار لا يفصل بينها سوى أمتار قليلة من اليابسة حين تصلها

يحيط بها الماء من كلّ جانب لكنّها تصر على البحث عن مكان مأهول بالنّاس من دون جدوى، تعود لتسبح من جديد لكنّ قدميها تصطدمان بصخور ورمال فتدفعهما بحركة ضفدعة تمرست على القفز لكنّها لم تصل قصر الأمير؛ لأنّها لم تهبط من قبل إلى العالم السّفلي تحت الماء كما تفعل الأميرة الضّفدعة في الحكاية، فقد كانت المياه ضحلة دائماً! ودائماً تنتهي رحلة البحث إلى بيت بين الجبال تصعد إليه من درب ترابي وتطلّ من شرفته على وادٍ عميق يفصلها عن جبال في كلّ الاتجاهات، فكلّ نافذة مفتوحة على جبل، وكلّ تفاصيل الجبال غير مألوفة ولم ترها في حياتها!

...

كنت أدفع كرسيها المتحرّك صوب الشّاطئ.. معاً كنّا نتأمل الجبال العالية من الشّرفة كلّ صباح ولكنّها تصر أن آخذها في المساء إلى مكان تستطيع أن تغمس قدميها بماء البحر. تتأمله طويلاً وتغرق في الصّمت.. لم نكن بحاجة للكلام معظم الوقت فكلانا تعرف ما يكفي عن الأخرى بما لا يدع مجالاً للحديث عن أيّ جديد، فالأيام تمرّ رتيبة، لا أحداث ولا حركة سوى ما يصلنا من أخبار الوطن.

اليوم كان لديّ ما أحدّثها عنه، أردت أن أخرجها من عمق البئر الرطب الذي تغرق فيه روحها طيلة جلوسنا مقابل البحر. قلت: "تعلمين يا جدتي؟ لقد تعرّفت عبر الفيس بوك على ابنة صديقتك حياة".

فتحت عينيها وقالت ببطء: "ابتسام؟ صديقة أمّك وصال.. ولدتا في يوم واحد، في شتاء شديد البرودة من شهر كانون الثاني..

ولدت وصال في الصّباح وقبل أن تذهب فريدة من عندي جاءت ستي رقيّة تنادي فريدة لأنّ حياة تتألم، حاولت فريدة أن تـــتملّص؛ لأنّها يجب أن تذهب إلى أهلها في جبلة، كان يوم خميس لكنّ ستي رقيّة سحبتها من يدها ولم تستمع لرجائها بإحضار داية غيرهـــا". رحلت فريدة البطلة النّقية وحافظت على ما تبقى مـــن كرامتنـــا المهدورة. وظلّ أهل الحي حتّى الآن يحكون قصتها ويتساءلون ماذا حلّ بها في غربتها.

كنت مثل باقي سكّان الشّيخ ضاهر أعرف قصة فريدة الـــتي كان ابن جميل الأسد يلاحق ابنتها، وكيف تبعها إلى البيـــت مـــع عصابته وكانت طالبة جامعية جميلة، فاحتالت فريدة على الأمـــر واستقبلته في بيتها ووعدته أنّ ابنتها ستكون له بعـــد أن تنتـــهي الامتحانات.. لا يعرف أحد من سكّان الحي الشّخص الذي لجأت إليه فريدة كي يحصل لها على جوازي سفر وفيزا إلى السّـــعودية، لكن بعد مقتل وليد سرت شائعة أنّه هو من فعل ذلـــك خـــلال أسبوع ونقل فريدة وابنتها بسيارته إلى دمشق وأوصلها إلى المطار وأبعدها عن متناول شريكه القاتل الذي لم ينسَ له ذلك!

* * *

على كرسيين متحركين كان لقاؤهما يشبه نكتـــة ســـخيفة لم تُضحك سواهما.. غرقتا في ضحك متواصل انتهى بدموع غزيـــرة مسحتها حياة بسرعة وسألت وداد عن أخبارهـــا، قالـــت وداد: "كما ترين، ما أخبارك أنت؟". قالت حيـــاة: "جلطـــة خفيفـــة، صعوبة في النطق، لكنّي تغلبت عليها والحمـــد لله امتنعـــت عـــن

القهوة والتّدخين بعد ستين عاماً". ضحكت وداد: "ربّما لا يتعلّق الأمر بالتّدخين والقهوة بالنسبة لي.. ما بـــي لا يمكـــن الامتنـــا ع عنه! ما بـــي تعرفينه، لقد كنّا يوماً ما شريكتين فيه، لا تظنّي أنّك بتكتمك وعدم بوحك لي كنتُ غافلة عـــن تعلّقـــك برشـــدي.. فالصبّ تفضحه عيونه! وحتّى بعد زواجي وزواجـــك لم أســـتطع التخلّص من غيرتي عليه بسهولة".

التفتتا إلى البحر.. كانتا تودعان شمس الأصيل الغائصة بـــين ذؤابات أشجار النّخل العالية وبيّارات الليمون البعيدة.. ولطمت أمواج البوسفور برذاذ ناعم وجهيهما.. قالت وداد: "هل تعرفين من توفي منذ أشهر؟ نعمان العجيل، وجدوه في بيته بعد أســـبوعين من وفاته وحيداً وسط الفوضى التي عاش فيها خلال خمسة وثلاثين عاماً من حياته، رحمه الله كان سبباً في سعادة مؤقتة لم تدم أســـابيع قليلة حين ربح الدعوى التي أقامها على زوجة أبـــي وأولادها من أجل الإرث". تساءلت حياة بشرود: "ما أخبار سميرة؟" ضحكت وداد: "كما هي ما زالت صبية ما شاء الله مع أنّهـــا أكـــبر منـــا، تذكرين يوم عرسها؟". تنهدت حياة ووداد في اللحظة ذاتها الّـــتي حطّ نورس على سطح الماء قريباً منهما وزعق ونفض جناحيه مـــن الماء وطار بعيداً.

كانت كلتاهما تستحضران صور الـــراحلين مـــن أبنائهمـــا، وهمست حياة: "تعرفين أخبار فاطمة؟ ووسيلة، وسهام، وليلـــى، ودعد، وعفراء؟". قالت وداد: "فاطمة ماتت منـــذ ســـنوات، ألا ترين طيفها هناك عند خط الأفق؟ وسيلة لا أعرف عنها شيئاً لكن يخيّل إليّ أنّها لم تتزوج أو على الأقـــل لم تنجـــب، لأنّ دار بيـــت

الدمياطي يسميها النّاس الآن دار وسيلة! ليلى انقطعت أخبارهـــا بعد هربها في الثّمانينات إلى السّعودية هـــي وختـــام، عفـــراء في استنبول، أراها بين الحين والآخر هنا؟ تجلس مثلنا علـــى كرســـي متحرّك مقابل البوسفور تنتظر اللحاق بعصام في العالم الآخر".

همست حياة: "وأنا أنتظر اللحاق بياسر وحمزة وعبد الغفور.. يبدو أنّ السّوريين لم يعد لديهم سوى انتظار الموت الـــذي يـــأتي بأسرع مما يتصورون! لكن ماذا حدث لعصـــام؟ هـــل مـــات في السّجن؟

ردّت وداد: "لا، أفرج عن عصام بعد عشرين عامـــاً مـــن اعتقاله وكان في الأربعين من عمره. كانت تلك السّـــنوات الـــتي عاشها عصام بعد الإفراج عنه أقسى على قلـــب عفـــراء بكـــثير من سنوات السّجن.. فقد صارت داخل كابوس آخـــر.. كـــان عليها أن تبقى صاحية تراقب حركاته وسكناته أثناء النّوم، وأثناء الصّحو!

لم تكن المشكلة الأساسية بالنّسبة لعصام ضياع فرص العمـــل من يده، فهو لم يعد يتأقلم مع أيّ عمل يمكـــن أن يســـند إليـــه، عشرون عاماً كانت كافية لتحويله إلى هيكل ضامر العضـــلات، يخشى الشّمس والنّور، ترعبه أصوات الطّيور، يكـــره النّـــوارس ومنظر السّفن الرّاسية على الشّواطئ، أيّ ضجيج مهمـــا كـــان بسيطاً كفيلٌ بإدخال الرّعب إلى نفسه خاصّة زمـــور السّـــيارات العابرة تحت نافذته لذا؛ كان يحكم إغلاق نافذته جيداً، ويســـدل السّتائر الّتي اشترط على أمّه تبديلها باللون الأسود، ومنع تشغيل التلفزيون أو أيّ أداة كهربائية أثناء وجوده في البيت، وكان يعود

من كلِّ محاولة للبحث عن عمل محبطاً مكتئباً فيحـــبس نفســـه في غرفته ويرفض تناول الطّعام.

لم تملك عفراء وسيلة لإخراج عصام مـــن حالتـــه تلـــك إلا واستخدمتها حتّى أنّها لجأت للمشايخ على الرغم من عدم إيمانهـــا بمقدرتهم على التّأثير في جسد شاب بعث حياً بعد عشرين عاماً من الموت في أقبية سجن تدمر. هي الّتي تعرف معنى السّجن وعاشـــته بكلّ جوارحها طيلة فترة اعتقاله. هي الّتي داست الزّجاج المكسور وانغرزت المسامير في جسدها، هي الّتي مشت حافية طيلة عشرين عاماً لتشعر بإحساس وحيدها وهو يجرّ قدميه على أرضية السّجن القذرة الباردة من دون حذاء.. هي الّتي رأت بعينيها مـــا تركـــه التّعذيب على قدميه، على وجهه، في حركاته في صوته في كلماته.. هي الّتي تدرك أنّ ما حدث غير إنساني ولا يمكن إصلاحه مهمـــا فعلت. مع ذلك رفضت أن تستسلم حتّى في اللحظة الّـــتي رأت فيها جسد عصام البارد وقد سجي علـــى خشـــب التّـــابوت. لم يستطع الاستمرار في العيش خارج السّجن أكثـــر مـــن خمـــس سنوات، كان السّجن داخله ونقل كلّ أهله إليه.. بذلت عفـــراء روحها أمامه كي يعود ابنها الشّاب الذي اختطف في الثّمانينـــات من دون جدوى!".

تنهّدت حياة بقوة وقالت: "لعلّ عهد تعوضها بحفيد وتنسيها وحدها وغربتها".

ردّت وداد بألم: "عهد! هي السّبب في نزوح أمّها ومجيئها إلى استنبول.. عفراء وحيدة هنا.. لا أحد معها.. تعلمـــين أنّ عهـــد بقيت في دمشق بعد تخرجها تعمل في روضة من رياض الأطفـــال

التابعة للقبيسيات بالمجان، وعاشت هناك عيشة ذل وفقــر، وقــد حاولت أمّها أن تقنعها بالعودة للعيش معها في اللاذقيــة لكنّهــا رفضت، شيختها لم تسمح لها بل ذهبت إلى أبعد من ذلك طالبت أمّها بالانتساب للجماعة والقيام بالأعمال الخيرية علّ الله يغفر لها ويحشرها مع الأنبياء والصديقين.. حين يئست أم عصام من رجوع عهد ذهبت إلى دمشق وبقيت هناك ثلاث سنوات، عملت فيهــا مع ابنتها أملاً منها في إقناعها بالعقل ببطلان تلك الأفكــار الّــتي تروّع بها شيختها قلوب المريدات وعقولهن.. حاولت جهدها مــن دون جدوى، حينها انشقّت عن الجماعة وعادت إلى اللاذقيــة.. حكت لي آخر مرّة التقيت بها أنّها تركت اللاذقية بعــد أن رأت صورة ابنتها في الاجتماع الذي تمّ بين الرئيس والقبيسيات عــام 2012، لم تعد تستطيع البقاء في اللاذقية ولا في سوريا، صار الأمر أكبر من طاقتها على الاحتمال".

صمتتا معاً والتفتتا في اللحظــة ذاهّــا إليّ حــين ســألتهما: "وسهام؟ من قتل سهام يا جدتي؟".

تلاحقت أنفاس حياة، وسالت دموعها بصــمت، تنهّــدت جدتي وقالت: "قاتل السّوريين واحد مهما اختلفت صوره". قلت: "ولكنّي أنتظر التّفاصيل يا جدتي". قالت:

الأمر لم يكن يتعلّق بسهام بل بابنتها الوحيدة، بعــد وفــاة زوجها عاشت سهام وحيدة تربــي طفلتها اليتيمة، الّتي كــبرت بسرعة ملفتة للنظر وأخذت من أمّها جمال الوجه ومن جدهّا بياض البشرة ومن عمتها الطّول الفارع، وقيل إنّها كانت تبدو أكبر من عمرها بكثير، حتّى يحسبها المرء في العشرين وهي لم تتجاوز الرابعة

عشرة حين اعترض طريقها أحد مرافقي فواز الأسد وصار يلاحقها أينما ذهبت.. سهام ظنّت أنّ الوصول إلى الرأس قد يجنبها لسع الذنب فتجرّأت واشتكت إلى فواز ما يفعله رجاله، فوعدها خيراً.. لكن حين رأى ابنتها أرسل رجاله ليخطفوها له. هربت سهام وابنتها من اللاذقية خوفاً.. لكنّ رجال فواز قطعوا الطرقات ونصبوا الحواجز وفتشوا الباصات الذاهبة إلى حلب.. حتّى عثروا عليهما. بعد أشهر وجد سكّان الشيخ ضاهر جثة سهام مرمية في شارع القوتلي.. ولم يعرف أحد مصير ابنتها).

* * *

كانتا هناك على المقعد الخالي من عفراء وسهام، تنظران من خلال الدوائر الزجاجية،

دارت البكرة وسمعتا صوت حسن الهوّاش من وراء صندوقه يقول: "هلقتينية نحنا بإستنبول أم العلالي والقصور... اللي شبابيكها من بلّور...

تركيا / 30 آذار/ 2016 /

خارج النص:

...

- الرسائل المرسلة إلى صباح مأخوذة بحرفيتها من رسائله إليها.
- توفيت وداد في الخامس من شهر تشرين الأوّل 2016.
- عادت حياة إلى سوريا كي تموت هناك وتدفن بجانب أولادها.
- اختفت عهد في دمشق بداية هذا العام ولم يعرف أحد مصيرها.
- كتب لي رشدي رسالة عبر صفحتي على الفيس بوك يخبرني أنّه عاد إلى ألمانيا وتخلّى عن فكرة شراء قبر في اللاذقية، وأوصى لي بكلِّ ثروته!
- بيتي في سلمى صار ركاماً!

صدر للكاتبة

1- جذور ميتة - مجموعة قصصية - حائزة علـــى الجـــائزة الأولى لمسابقة سعاد الصباح 2001
2- جبل السماق /الجزء الأول / سوق الحدادين / رواية عـــن دار فصلت 2004
3- نساء بلا هديل - مجموعة قصصية / الجائزة الأولى لموقع لها أون لاين الرياض.
4- ذاكرة الرماد / رواية / دار الحوار / اللاذقية 2006
5- جبل السماق / الجزء الثاني / الخروج إلى التيـــه - الجـــائزة الأولى لمسابقة المزرعة - سوريا - صادرة عن دار العوام، دمشق 2007
6- المعراج / رواية / عن دار العوام 2008
7- عين الشمس / رواية / الدار العربية للعلوم - بـــيروت 2010/ الرواية التي دخلت القائمة الطويلة لجائزة البوكر العربية 2010
8- غواية الماء / رواية الدار العربية للعلوم - بيروت 2011
9- مدن اليمام / رواية / مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، 2014
10- لمار - رواية - مكتبة الدار العربية للكتاب - القاهرة 2015
11- لعنة الكادميوم - دار روايات - الشارقة — 2016

لمراسلة الكاتبة



لمراسلة الكاتبة

eet959@hotmail.com

الشّارع 24 شمالاً

إبتسام تريسي

الكم الهائل من الحنين أثقل كتفيه فانحنى في حركة لا إرادية وكأنه يريد الاتكاء على عصا تعينه على احتمال الألم.. لم يكن الألم نابعاً هذه المرة من هشاشة العظام التي عانى منها طيلة السّنوات العشرين الماضية، ولم يكن بسبب الضّغط المرتفع الذي يشكّل أمام عينيه غمامة من بخار البحر المتكاثف في هذا القيظ الذي لا حل له وسط ارتفاع درجات الحرارة إلى أقصاها. أهي قدماه من يسير به إلى الحي القديم؟ أم رغبته في أن يلمح طيفها كما كان قبل ستين عاماً مضت؟ اليقين الوحيد ما تراه عيناه، لا وجود للحي بل لبنايات عالية على طرفي زقاق ضيّق فَقَد رائحته المحببة وتفاصيله الحميمة وأنفاس ساكنيه وسعة شارعه واحتفظ فقط بلوحة على جدار عتيق كتب عليها «الشّارع 4 شمالاً» وانمحى ذلك الرقم الذي خطّته أنامله وهو صغير بالطّباشير.. كان الرقم 2 يعني له الكثير.. يعني «وداد» هو واحد وهي اثنان في كلّ لعبة يلعبانها، وفي كلّ تشكيل يقوم به الصبية في الحي، كان يخشى كتابة اسمها كي لا يفضح نفسه لكنّه على يقين أنها تعرف لماذا وضع ذلك الرقم بالطّباشير على لوحة الشّارع!







